منهج الفن الإسلامي

الطبعة الشرعيّة السادسة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

محمد قطب

منهج الفن الإسلامي

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الفن .. الإسلامي ؟!

وهل للإسلام صلة بالفن ؟

أو ليس الإسلام ديناً .. والفن فناً ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟

بل إن كانت هناك علاقة فهي علاقة النفور والخصام ! فالأديان تبحث عن « الحقيقة » والفن يبحث عن « الجمال » . وفرق بين الحقيقة التي تتقيد بأنها حقيقة ، وبين الجمال الذي لا يتقيد بشيء لأنه هائم طليق يسبح في عالم الخيال ..

ثم هناك الناحية « الخلقية » ..

فالأديان تحرص على الأخلاق ، والفن يكره القيود كلها بما فيها قيود الأخلاق .

لا بد إذن أن الفن الإسلامي مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات !

* * *

ذلك فهم ضيق للدين وللفن على السواء !

إن الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال ..

وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

فحين تتبلد النفس ، فيمر الإنسان على هذا الكون مروراً آلياً لا يراه ولا يحس به في أعماقه .. لا يثير فيه الشوق العلوي ، ولا تتفتح نفسه لما فيه من جمال وحركة وحياة وتناسق .. فإنه يكون قد ضيّق على نفسه المنافذ ، وحصر عالمه في نطاق ضيق محصور .

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم الفن والجمال .

وحين تتبلد النفس ، فيمر الإنسان على الوجود مروراً آلياً ، لا يتفتح لغاياته وأهدافه وروابطه ، ولا يستجيب استجابة حية لما يربطه بالله والكون والحياة والناس من صلات .. ولا تنطلق نفسه في الأفق الأعلى الذي تلتقي فيه كل هذه الصلات .. فإنه يكون قد ضيّق على نفسه المنافذ ، وحصر عالمه في نطاق ضيق محصور .

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم العقيدة .

ومن هنا يلتقي الفن والعقيدة في أعماق النفس ، كما يلتقيان في أعماق الوجود .

* * *

والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام !
وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر والحث على اتباع الفضائل .
وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة ، مبلورة في صورة فلسفية .
فليس هذا أو ذاك فناً على الإطلاق !
إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود .
هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان ، من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان .

هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » . فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال . ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود .

* * *

وقد كان يخطر في حسي دائماً أن العرب لم يستفيدوا من القرآن ولا من الإسلام في إنتاجهم الفني .

لقد مرت عليهم فترة في أول الإسلام ، انصرفوا فيها عن كثير من فنون القول .
وربما كان لهذا الانصراف أسباب متعددة ..

فقد كان بناء العقيدة الجديدة في داخل النفوس وفي واقع المجتمع ، ومجاهدة القوى المحتشدة في طريق هذا البناء ، سواء في واقع الحياة أو في داخل الضمير ، يستنفدان جهداً نفسياً ضخماً .. بل يستنفدان الطاقة الحيوية كلها ، ولا يدعان فيها فضلة تُدَّخَرُ للتعبير الفني .

وإذا لاحظنا المراحل الثلاث التي يمر خلالها الإنتاج الفني ، ولا يتم إلا بها ، وهي الانفعال النفسي بالتجربة الجديدة ؛ ثم استبطان هذا الانفعال في داخل النفس ، حتى يمتزج بأعماقها ويعطيها من لونه ويأخذ من ألوانها ؛ ثم ارتداد التجربة إلى الخارج في صورة « إفراز » أو « تعبير » ..

إذا لاحظنا هذه المراحل الثلاث ، ولاحظنا أن التعبير الفني يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية مختزنة في باطن النفس ، تسعى إلى التعبير عن ذاتها في صورة موحية ، لأن فيها شحنة مذخورة تريد الانطلاق .. أدركنا أن فترة البناء للعقيدة الجديدة لم تكن مناسبة لهذا اللون من التعبير .

لقد كانت العقيدة الجديدة في الواقع تنشئ النفوس إنشاء من جديد . كانت « تغسل » النفوس من أدرانها الجاهلية ، ومن موروثاتها القديمة كلها ، ومن مفاهيمها المنحرفة ، ومن تصوراتها الخاطئة ، وتملأ الفراغ الحادث أولاً بأول ، بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة ، وسلوك وعمل جديدين . ومن ثم لم يكن الرصيد القديم صالحاً للإيحاء

الفني ، فقد كان « غير موجود » في النفوس التي استجابت للدعوة الجديدة فنفضت عن نفسها كل تراث قديم ، وانسلخت من كل ما يربطها بماضيها الجاهلي من مشاعر وأعمال ووشائج قربى ، وصارت تحس نحوه بنفرة وتقزز . ولم يكن الرصيد الجديد قد تجمع بعد في الصورة التي تصلح للأداء الفني ، الذي يعبر – كما قلنا – عن شحنة مذخورة تريد الانطلاق ، لا عن الشحنة في دور التكوّن ، قبل أن تمتلئ بها النفس ثم تفيض بالتعبير .

ويمكن أن يكون من أسباب انقطاع التعبير الفني في تلك الفترة كذلك أن الأغراض « التقليدية » التي كان يقال فيها الشعر – فن العرب الأول – قد تغيرت من أساسها بفعل العقيدة الجديدة ، فصارت تلك الأغراض نشازاً فنياً وشعورياً لا يصلح للقول فيه . فالفخر والمديح والهجاء والمجون ، والتغني بالدمن والآثار ، وذكر المناقب « القبلية » والحروب والغارات والثارات .. كلها متعلقة بمشاعر الماضي الذي انسلخت منه النفوس المؤمنة ، وبتصورات هذا الماضي وعلاقاته التي نبذتها هذه النفوس .. ومن ثم لم تعد صالحة للقول ؛ بينما الأغراض الجديدة التي يمكن أن يقال فيها لم تتبلور بعد بلورة فنية . وهذه خطوة أبعد من السابقة . فليست المسألة أن المشاعر المذخورة التي تدفع إلى التعبير الفني لم تكن قد تجمعت بعد ، بل المسألة كذلك أن أغراض التعبير وطرائقه لم تكن قد تبلورت بعد لتساوق المعاني الجديدة والآفاق الجديدة . وكل غرض فني ، وكل طريقة أداء جديدة ، تحتاج إلى فترة من « الحضانة » قبل أن تظهر في صورة إنتاج فني . وقد كانت المعاني الجديدة والآفاق الجديدة ، التي كانت قمينة بأن تعدل أغراض التعبير وطرائقه ، شديدة الضخامة بالنسبة للعالم النفسي والبيئي المحصور الذي كان يعيش فيه الشاعر العربي في ظل القبيلة الجاهلية ، وكانت في حاجة إلى حضانة فنية عميقة واعية قبل أن تنبثق في ثوبها الجديد .

كما يمكن أن يكون من تلك الأسباب أيضاً وقع القرآن في نفوس العرب . فقد تلقوه مأخوذين مبهورين ، حتى الذين لم يسلموا منهم . يتجلى ذلك في حديث الوليد بن المغيرة الذي لم يسلم : قال : « فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ؛ ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ! » كما يتجلى في كلام عمر حين أسلم : « فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ، ودخلني الإسلام »[1] .

هذا الانبهار الذي تلقى به العرب القرآن ، حتى قبل أن يسلموا ، يمكن أن يكون سبباً من أسباب توقفهم فترة عن التعبير الفني ، فقد كانت شحنته الفنية العجيبة تملأ نفوسهم

---

(١) راجع كتاب « التصوير الفني في القرآن » لسيد قطب .

ملئاً ، وتتعمقها من جميع أقطارها ، فتستوعب منهم كل طاقة الفن ، وتغنيهم – مؤقتاً – عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال .

وثمت سبب رابع قد يفسر انقطاع المسلمين الأوائل عن التعبير الفني .

وهو سبب أستمده من تجربتي الشخصية ومن قراءتي لإنتاج الأدباء والفنانين في مختلف الميادين .

فقد كنت في فترة من الفترات أقول الشعر . وقد ظللت اثنتي عشرة سنة أو تزيد ، أقول في معنى واحد متكرر ، كلما اتجهت إلى الكتابة وجدتني أكتب في نفس المعنى وإن اختلفت المشاعر المباشرة الدافعة إلى التعبير . كانت في نفسي « أزمة » كبيرة . أزمة الشعور بالضياع الكامل في الحياة وعبث الجهد في هذه الحياة المفضية إلى الزوال :

ثم مرت بيَ دورات الليالي
وانطوى السحر الذي غشّى خيالي
فإذا « بالحق » في الكون بدا لي !
وإذا الناس جميعاً في ضلال !
ما الذي يرجون في دنيا الزوال ؟
أنا والوهم الذي يشغل بالي
في غدٍ نذهب في طيات هاتيك الرمال
ثم يمضي الكون في التيه المعمَّى . لا يبالي !

وكانت هذه الأزمة تؤزني وتجهد مشاعري وتخز إحساسي .. فأعبر عن ذلك كله بالشعر غالباً وبالنثر أحياناً .. حتى مررت بتجربة ضخمة اقتلعت هذه الأزمة من أساسها ، وأزالت ما حولها من مشاعر وأحاسيس . وكانت هذه التجربة هي .. الإسلام !

لقد وجدت نفسي من ضياع ، ووجدت لهذه الحياة غاية وهدفاً ؛ ووجدت أن هذه الغاية لا تذهب سدى ، ولا تنقطع بانقطاع حياة فرد ، ولا تنطوي في الرمال ؛ ووجدت أن الكون لا يمضي في التيه المعمى ، بل يمضي لهدف مرسوم معلوم .. وأنه كان يبدو لي أنه « لا يبالي » لأن نفسي هي التي كانت منقطعة الصلة عن روابط الحياة العظمى ، لا لأنه هكذا في حقيقته ..

ثم .. وجدتني – دون قصد مني – أنصرف عن قول الشعر !

لقد ذهبت « الأزمة » التي كانت تدفع إلى القول .

ذهب « الضياع » .. وأصبحت أحس « بالوجود » .

ولكن الإحساس « بالوجود » ، بغير أزمة لاذعة ولا وخزة دافعة ، لم يوح إليّ بالشعر ، لأنه في حاجة إلى طاقة فنية ضخمة – أكبر من طاقتي – تستطيع أن تعبر ، لا لأنها متألمة

ولا شاكية ، ولكن لأنها موجودة وممتلئة بهذا الوجود .. وراضية كذلك بهذا الوجود !

ولقد كان المسلمون الأوائل يواجهون هذه التجربة الفريدة .. تجربة الإسلام !

التجربة التي تزيل رواسب النفس المسمومة كلها ، وتملأ النفس « بالوجود » الكامل ، الراضي بهذا الوجود ..

وهي تجربة لا تقول الشعر .. إلا بطاقة فنية ضخمة لا توهب لكل إنسان .

ولقائل أن يقول ولا شك : إن هذا « الوجود » ولو أن سِمَتَه العامة هي الرضى والارتياح .. كانت له « أزمات » .

أزماته هي تلك الابتلاءات المتلاحقة التي عاشها المسلمون الأوائل حتى استتب لهم الأمر وظهر الدين واستقر ..

وكان من الممكن أن تؤدي هذه الأزمات إلى تعبير فني ..

ولكنا — عندئذ — نعود إلى الأسباب الثلاثة السالفة فنجد أن الفرصة لم تكن مواتية لمثل هذا التعبير . فقد كانت الشحنة النفسية لا تتلبث حتى تنطلق بالتعبير الفني ، في الموجة الموّارة التي تشمل المجتمع والنفوس . وكانت الأغراض الجديدة والطرائق الجديدة لم تتبلور بعد لتجد سبيلها إلى التعبير الفني . ثم كان القرآن يتنزل في تلك الأحداث فيصفها في بلاغة فنية معجزة ، تغني عن جمال التعبير بجمال التلقي والانفعال ..

* * *

تلك الأسباب — كلها أو بعضها — قد صرفت العرب المسلمين فترة من الوقت عن التعبير الفني .

ولكنهم حين عادوا إلى التعبير لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم وأغراض تعبيرهم وطرائقه . وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة في مجال التعبير ، أغراضه وطرائقه سواء . عاد الشعراء إلى الفخر والمدح والهجاء والمجون ، بل عادوا إلى حدود القبيلة التي كانوا قد تحرروا منها فترة من الوقت . وعادت مقاييسهم الفنية هي ذاتها مقاييس الجاهلية بحذافيرها !

هل عادت هذه النفوس إلى الجاهلية الشعورية وارتدت عن الإسلام ؟

هل مر الإسلام على ظاهر نفوسهم فقط ، ولم يتعمق فيها ؟

هل هم — أولئك العرب — ذوو طبيعة فنية ضحلة لم تستطع أن تستوعب إيحاءات الإسلام الضخمة في عالم الفن ، فانحسرت عنها ، وعادت إلى رصيدها القديم ؟

أسئلة تحتاج إلى جواب .. وتحتاج قبل ذلك إلى بحث .

ومع أنه ليس من همي هنا القيام بهذا البحث ، وإنما هدفي الأول أن أرسم بعض الخطوط العريضة لمنهج الفن الإسلامي ، فإني أرى أن الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب القاطع فيه

ظلم كبير للواقع . فقد ارتدت بعض النفوس حقاً عن بعض الآفاق الإسلامية العالية ، ولكن لم يحدث قط الارتداد الكامل الذي يلغي الإسلام من النفوس ويجعله كأن لم يكن . فمنذ انطلقت الشرارة الأولى فأضاءت صفحة الكون بضوئها الباهر ، لم تنطفئ الشعلة أبداً ، ولم يَخْبُ نورها إلى حد الإظلام .

ثم إن العرب – مهما يكن مستواهم الفني بالنسبة للنتاج العالمي – ليسوا بالضحالة التي قد توحي بها البيئة الصحراوية ، فقد ثبت من التاريخ أنهم قد استوعبوا مستويات أعمق وآفاقاً أوسع ، واستطاعوا أن ينتجوا في بعضها بدرجة الإبداع .

لا بد إذن أن هناك أسباباً أخرى .

قد تكون السياسة قد لعبت دوراً في ذلك ، إذ ارتدت – منذ العهد الأموي ، أو قُبَيْله في الحقيقة – إلى عصبية جاهلية قبلية ، وجرفت معها الشعراء الذين تحلقوا حول السلطان ، فغمرتهم في تيارها ، فإذا هم – حين يعبرون – يرتدون إلى مشاعر القبيلة في الجاهلية ، فيتخذون فنون القول القبلية بوعي أو بغير وعي .

وقد يكون النقاد الأوائل مسئولين أيضاً عن ذلك . فالنقد يبحث دائماً عن « القواعد » . وغالباً ما يبحث عن القواعد الموجودة بالفعل ، لا عن القواعد التي يمكن أن تستحدث . إذ النقد تقعيدي في طبيعته ، وليس إنشائياً كالتعبير الفني . ومن ثم جمد هؤلاء النقاد على ما كان موجوداً بالفعل في رصيدهم الفني ، وهو طرائق الجاهلية وأغراضها ، وقيدوا الشعراء بها فساروا في نطاق ذلك القيد .

وأياً ما كان الأمر ، فقد خسر الأدب العربي فرصة هائلة للاستمداد من رصيد الإسلام الضخم ، وظل في تاريخه الطويل مجانباً – في أكثر الأحيان – لهذا الرصيد ، مبتعداً عن ثرائه ، محروماً من القدرة على إبداع لون من الفن كان حرياً أن يكون أروع الفنون العالمية وأبدعها ، لو وجد التوجيه الصالح والقدرة الفنية المواتية ..

وإن من هدف هذا البحث أن يوضح بعض سمات هذا الفن الإنساني الرفيع ، لعل المسلمين – الذين لا يجدون في تراثهم الفني ما يغنيهم ، فيروحون يتنهبون نهبات متناثرة من فنون الغرب ، صالحها وفاسدها بغير تمييز – لعلهم أن يفيئوا إلى كنزهم الضخم الذي أهملوه ، وأن يفيئوا إلى أنفسهم حين يفيئون إلى هذا الرصيد ، فيجدوا أن في مكنتهم أن يتقدموا القافلة ، لا أن يكونوا متخلفين في الطريق ينتهبون ما يتناثر من الفتات .

والله ولي التوفيق .

محمد قطب

طَبيعَة الإحسَاس الفَنيّ

الفن – في أشكاله المختلفة – هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود ، في صورة جميلة موحية مؤثرة .

والفنان شخص موهوب ، ذو حساسية خاصة ، تستطيع أن تلتقط الإيقاعات الخفية اللطيفة التي لا تدركها الأجهزة الأخرى في الناس العاديين ؛ وذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحول هذه الإيقاعات – التي يتلقاها حسه مكبرة مضخمة – إلى لون من الأداء الجميل يثير في النفس الانفعال ، ويحرك فيها حاسة الجمال .

إنه كجهاز الاستقبال اللاسلكي الدقيق ، الذي تحس صماماته بالموجات الدقيقة الخفية فتلتقطها وتكبرها ، ثم تحولها إلى صوت ونغم ، صاف جميل يهز الأسماع .

والفنان – وكل بشر بصفة عامة – لا بد – ما دام حياً – أن يتلقى من الكون إيقاعات معينة في حسه ، تتوقف على طبيعة هذا الحس ، بين العمق والضحالة ، والكبر والضآلة ، وتتوقف على المساحة التي يكشف عنها حسه من صفحة الكون الكبير . ثم يمضي يحاول التعبير عن هذه الإيقاعات بالطريقة الفنية الميسرة له ، من لفظ أو لحن أو خطوط أو ألوان .

ومن ثم لا يمكن الفصل بين الفن – في أي شكل من أشكاله – وبين الصورة التي يتخذها الوجود في نفس الفنان ، والإيقاعات المختلفة التي يتلقاها حسه من هذا الوجود .

وقد تكون هذه الحقيقة واعية في نفس الفنان أو غير واعية . ولكن النتيجة واحدة في الحالين . فهو لا يمكن أن يعبر إلا عن انعكاس الحياة في نفسه ، ولا يمكن أن يكون تعبيره إلا من الزاوية التي يرصد منها الوجود ، ويتلقى منها الإيقاع .. ذلك ما دام فناناً حقيقياً ، صادق التعبير ، وليس مجرد صانع ماهر يتفنن في صنعة الإخراج .

لذلك يكون من المهم أن نعرف صورة الكون في حس كل فنان قبل أن نقوم بتقويم إنتاجه الفني . ويكون من أصلح المقاييس في هذا التقويم أن نعرف المساحة التي يشغلها الكون في نفسه ، أو المساحة التي تطلع نفسه عليها من كيان الكون فعلى قدر اتساع هذه المساحة أو ضيقها يكون اتساع أفقه الفني أو ضيقه ، وتكون عظمة فنه أو ضآلته .. وذلك مع الوفاء بشروط الأداء الفني بطبيعة الحال .

ولكل فنان – صادق – موقف من الكون والحياة – أراد أم لم يرد . موقف تحدده طريقة تصوره لهذا الكون وارتباطاته ، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث .

هذا الموقف قد يكون واعياً كما قلنا أو غير واع . ولكنه موجود بالضرورة . وهو مكشوف لمن يرقب أعمال الفنان ، متى كان بصيراً واعي الحس ، قادراً على الفهم والتقدير ، ويستطيع – إذا كانت له هذه المقدرة – أن يكيف هذا الموقف ويقوّمه ، ويزن عن طريقه أعمال الفنان .

فالفنان – أو البشر على وجه العموم – الذي لا تطّلع نفسه من الكون إلا على الحياة اليومية الصغيرة ، ومشاهدها وجزئياتها ، دون أن يرى فيها ارتباطاً ولا تماسكاً ، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني ، من الفنان – أو البشر – الذي تطّلع نفسه على ما وراء هذه المساحة المحدودة من الكون والحياة ، فترى أكثر من الجزئيات العابرة في الحياة اليومية .. ترى ما بينها من ارتباطات ظاهرة أو خفية ، وترى – على قدر عمقها واتساعها – ما وراء هذه الارتباطات من « كليات » عامة شاملة تفسر هذه الارتباطات وتلك الجزئيات ، وتجعل منها كياناً متماسكاً لا مجرد جزئيات متناثرة في صفحة الكون .

والفنان – أو البشر – الذي تطّلع نفسه من هذه الارتباطات على ارتباط واحد ، فيشغل به حسه ، ويصرف له همه ، وليكن – مثلاً – رابط الجنس ، أو رابط الاقتصاد ، أو رابط المجتمع ، أو رابط الصراع ، أو رابط الحتمية التي تسيّر الأشياء والأحياء .. أو أي رابط يرى في حسه أنه هو الذي يفسر حركات الحياة وسكناتها ، وتفرقها واجتماعها .. أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني ، من الفنان أو البشر الذي تطلع نفسه على أكثر من ارتباط واحد ، ويرى عمل هذه الارتباطات المتعددة حين تعمل معاً ، ويدرك تأثيرها على الحياة والناس والأحداث .

والفنان أو البشر الذي يطّلع حسه على الكون المادي وحده ، أو الروحي وحده ، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني ، من الفنان الذي يستطيع حسه أن يتفتح لهذا الكيان وذاك ، ويستطيع أن يدرك ما بين الروح والمادة من ترابط وامتزاج .

والفنان الذي يرى من الكون المادي مشاهده « الحية » وحدها أو « الجامدة » وحدها ، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني ، من الفنان الذي يرى ذلك الكون المادي في جميع مجاليه ، فيحتفل حسه بالجمال المبثوث في ربوع الكون كله ، من أناسي وطير وحيوان ونبات ، وجبال وأنهار وأرض وسماوات وكواكب ؛ ويكون هذا الأخير أكبر مساحة في التقويم الفني والإنساني لو استطاع في الوقت ذاته أن يدرك « الروح » السارية في هذا الكون كله بجميع مجاليه ، الروح التي لا تجعله مادة جامدة حتى في الأشياء الجامدة ، وإنما تجعله حياً يتحرك ويحس ويتعاطف ، ويلتقي على شتى المشاعر والانفعالات ...

ذلك مقياس صادق نقيس به الفن والفنان معاً ، على شرط الوفاء بشروط الأداء الفني في كل حال .

* * *

وإذا أدركنا ذلك .. إذا أدركنا أن الفن هو محاولة البشر أن يصوروا حقائق الوجود وانعكاسها في نفوسهم ، في صورة موحية جميلة ؛ وأن مكان الفنان والفن يتحدد بمدى المساحة التي تشملها الحقيقة التي يشير إليها العمل الفني أو يرمز لها من كيان الكون .. إذا أدركنا ذلك فقد أدركنا في ذات الوقت أن الفن الذي يمكن أن ينبثق عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان ، هو أرفع فن تستطيع أن تنتجه البشرية ...

* * *

التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم .. إنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر .. وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته ومعنوياته ، وكل كائناته .

إنه التصور الذي لا يجعل الحس بمعزل عن الحياة المنبثة في أعماق الكون ، بل يطلق الحس ليتملى الحياة في كل شيء في هذا الكون ، ويتصل بها اتصال المودة والقربى والإخاء .

إنه التصور الذي لا يأخذ الإنسان جسماً ويدعه روحاً ، أو روحاً ويدعه جسماً ، أو جسماً وروحاً بغير اعتبار لطاقة العقل . ثم هو لا يأخذ هذه العناصر متفرقة منفصلة ، بل يأخذها مترابطة متحركة – مع ترابطها – في واقع الحياة .

ولا يأخذ الإنسان فرداً ويدعه جماعة ، ولا جماعة ويدعه فرداً ، وإنما ينظر إليه في ذات الوقت بوصفه فرداً وجماعة مترابطين ممتزجين غير منعزلين في الكيان .

ولا يأخذه ضرورات قاهرة ويدعه أشواقاً طائرة ، ولا أشواقاً ويدعه ضرورات ، وإنما يأخذه بمجموعه كله ، عاملاً حساب الضرورات والأشواق ، ومكان كلتيهما من نفسه ومكانها من الحياة ، وأصالتها في هذه وتلك ، ودورها المرسوم هنا وهناك .

ولا يأخذه ارتباطات اقتصادية أو اجتماعية أو جنسية أو فكرية أو روحية أو مادية .. أياً من هذه بمفردها . وإنما يأخذها كلها جميعاً ، بوصفها انبثاقاً من نفسه المتعددة الجوانب الكثيرة الأهداف ، وبوصفها كلها « حقائق » موجودة في واقع الأرض مترابطة في كيان الحياة .

ثم لا يأخذه فرداً واحداً في جيل ، ولا جيلاً واحداً من أجيال .. بل لا يأخذه في الحياة الدنيا وحدها ويدع الآخرة ، وإنما يأخذه فرداً وجيلاً وسلسلة متصلة من الأجيال ، ثم يأخذه كياناً ممتداً بين الدنيا والآخرة على نسق متصل مترابط الأجزاء .

ثم هو بعد ذلك لا يأخذ الإنسان وحده منعزلاً عن بقية الكون ، أو منعزلاً عن بقية الأحياء . وإنما هو يأخذ الإنسان وغيره من كائنات الأرض ، وكائنات الكون ، ويأخذ في اعتباره « الأحياء » وغير الأحياء ، ويصل بينها جميعاً برباط حيّ يخلع عليها صفة الحياة المشتركة التي تربط بين الجميع .

ثم هو بعد ذلك كله لا يأخذ أحداث الكون والحياة فرادى ، منتثرة بلا رابط ، وإنما يربط بينها جميعاً برباط واحد محكم ، يجعل لها كلها غاية واحدة .. فكلها انبثق من إرادة الله ، وكلها صائر إلى الله ، وكلها محكوم بقَدَرِ الله . ومن ثم فهي « نظام » دقيق مترابط ، لا فوضى فيه ولا اضطراب ، ولا مصادفة ولا جُزَافَ .

ومن وراء ذلك حقيقة الله .. الخالق المدبر ، القادر الحكيم .

* * *

ذلك أصفى تصور لحقائق الوجود . وأشمل تصور للكون والحياة والإنسان .

أشمل تصور في تاريخ البشرية كله ...

فكل فكرة أخرى وكل نظام وكل عقيدة ، قد أخذت شيئاً من هذه الجوانب المتعددة ، ولم تأخذها كلها ، فنشأ من ذلك قصور في التصور ، وخلل في التوازن ، وخلل في الاتساق .

والإسلام وحده هو الذي شملت فكرته هذه الجوانب كلها في توازن واتساق .

وكل فكرة ونظام وعقيدة قد أنشأت فناً مبنياً على طبيعة تصورها للكون والحياة والإنسان ، واختلف الفنانون بطبيعة الحال بحسب استعداداتهم الفردية ، والزوايا الخاصة التي يرصدون منها الوجود ، ويتلقون منها في حسهم إيقاعاته ، ولكنهم جميعاً تأثروا بطبيعة تصورهم ، وأخذوا مكانهم في الميزان الفني والإنساني بحسب طبيعة هذا التصور ، والمساحة التي يشغلها من الكون .

وبقي الإسلام — في شموله وتكامله واتساقه — لم يجد تعبيره الفني الكامل في غير القرآن . لم يجد الطاقات الفنية البشرية الواعية التي تطبق هذا الشمول والتكامل ، وتعبر عنه في صورة موحية جميلة مؤثرة .

وليس هنا مجال بسط الأسباب التي أدت إلى خلو الصفحة الإسلامية العربية في أغلب أجزائها من فنانين كبار ، يدركون الإسلام على حقيقته الشاملة ، وتنفعل به نفوسهم على اتساعه ، ثم يقدمون هذا في صورة فنية جميلة ..

ليس هنا مجال التحدث في هذه الأسباب .. وإنما نقول فقط إن الإسلام دين البشرية في جميع عصورها ، وجميع أجيالها ، وجميع أجناسها ؛ فإذا كانت صفحته — لسبب من الأسباب — قد خلت في الماضي من روائع الفن البشري المنبثقة من تصوره الشامل ، فالفرصة

لتمثله موجودة دائماً ، وممكنة في كل جيل . والمهم أن ندرك طبيعة هذا التصور الشامل على حقيقتها ، حتى إذا اتجهت الطاقات الفنية إلى تمثلها اليوم أو غداً ، اتجهت إليها بقلوب واعية وحس مدرك ، فأتت بما يناسب روعتها وشمولها .

ونحاول في الفصل القادم أن نبسط طبيعة التصور الإسلامي ، لنرى كيف يمكن أن يتملاها حس الفنان الملهم البصير .

طبيعة التصور الإسلامي

لكي ندرك مجالات الفن الإسلامي وطبيعته . لا بد لنا أن ندرك أولاً طبيعة التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان . وارتباطها بعضها ببعض . فمن هذا التصور – كما بيَّنا في الفصل السابق – ينبثق العمل الفني في نفس الفنان .

والتصور الإسلامي يبدأ من الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود كله ؛ ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته . ويعنى عناية خاصة بالإنسان – خليفة الله في الأرض – فيعطيه مساحة واسعة من الصورة ؛ ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها وإليها يعود .

وهو في هذه الجولة الواسعة من الله وإليه . يشمل كل دقائق الكون . لا يغادر منها شيئاً يقع في محيطه ، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه . وما يدركه العقل بوعيه وما تدركه الروح فيما وراء الوعي . ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته . سواء نشاطه المادي ونشاطه الروحي . وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . وسواء عمله في الحياة الدنيا ، وفيما وراء هذه الحياة .

* * *

الله . . يصوره الإسلام في أوضح صورة وعاها الحس البشري . وفي أروع صورة كذلك .

الله هو الخالق المدبر القادر المهيمن . . الذي خلق كل شيء . . كل ما في الوجود خلقه . ولا خالق غيره في السماوات والأرض . وهو القادر الذي لا حد لقدرته . المهيمن على كل خلقه في السماوات والأرض . لا يقع في الوجود شيء إلا ما يريده أن يقع . ولا يكون شيء إلا ما أراده أن يكون .

قدرة مطلقة لا يحدها شيء ولا يقف في طريقها شيء .

وهو واحد مفرد أحد . . لا شريك له في الخلق ولا في الهيمنة على شؤون الخلق .

هو المتسلط وحده ، وهو المدبر وحده ، وهو القادر وحده ، وهو المتصرف وحده في ملكه العريض .

بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجع الأمور .

صورة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض .

ليس فيها شيء من اضطراب الأساطير واختلاطها وحيرتها وتضاربها وخرافتها .
وليس فيها شيء من انحرافات التصور التي أصابت الديانات الأخرى أرضيها وسماويها .
صورة صافية لا تحتاج إلى كدٍ في تصورها .
وهي في الوقت ذاته صورة رائعة تروع الحس البشري وتهزه من أعماقه .
تهزه القدرة القادرة . والعلم الشامل . والحكمة البالغة . والدقة المعجزة ...
والإسلام يوقّع على الحس البشري هنا توقيعات شتى ، تهز الوجدان من أعماقه ، وتنبه الحس وتفتح البصيرة ، حتى تصبح هذه الحقيقة الإلهية بكل إشعاعاتها يقيناً عميقاً في النفس ، وبديهية من بديهياتها ، بل جزءاً من صميم كيانها ، تتنفس به حياتها ، وتنشط به نشاطها ، وتسكن به سكونها ، وتعيش به كل لحظة من لحظات الحياة .
وتتنوع الإيقاعات ..
فهي مرة توجه القلب البشري إلى آيات الله في صفحة الكون ، ومرة توجهه إلى قدرة الله القاهرة التي تحكم كل شيء ، ومرة توجهه إلى علم الله الشامل الدقيق ...
الكون آية الله الكبرى ، ومعرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول .
« ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون ، وروعة الإحساس بها جياشة واصلة إلى الأعماق .
« الحواس تتبلد لما ترى وما تسمع ، فتمر بكل شيء كأنه لا وجود له ، وتنسى – بحكم التعود – أن كل شيء حولها آية للقدرة القادرة المبدعة الخالقة التي تبدع كما تريد .
« الليل والنهار متعاقبين متكورين على الأرض ، مختلفين في الطول باختلاف الفصول واختلاف المكان ..
« الشمس الطالعة الغاربة في كل يوم ، لا تكف يوماً عن الطلوع أو تكف يوماً عن الغروب .
« النجوم المتلألئة في ظلمة الليل كأنها عيون توصوص في الظلمة وتتناجى على ما بينها من أبعاد .
« القمر الذي يبدأ زيقة صغيرة لا تكاد ترى ، ويظل يكبر حتى يمتلئ وجهه بالنور ، ويغمر الأرض بنور رائق شفاف حالم هادئ جميل ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ زيقة لا تكاد ترى .. ثم يختفي في المحاق .
« الحياة النابتة في الشطأة الصغيرة التي تفتح الأرض بقوة وتتشقق عن ورق أخضر صغير جميل .
« الحياة النابتة في الطائر الصغير والحيوان الضئيل وهو يدرج وراء أمه تزقه أو ترضعه أو تغذوه .

« الحياة المنبثة في تضاعيف الكون « الميت » لظاهر العين ، وهو في حقيقته طاقات حية متحركة على الدوام .

« النظام المذهل في روعته ، المذهل في دقته ، الذي يسير عليه الكون كله ، فلا يختل منه كوكب واحد ، ولا يخرج عن مساره قيد أنملة في الزمان الطويل الذي يقدر بالملايين والبلايين من السنين .

« الزمن ذاته . كنهه وحقيقته ، وطريقة إدراكه .

« المخلوق البشري المعجز بكل ما فيه من أجهزة دقيقة وطاقات .

« العمليات الجسمية ، والعمليات الفكرية ، والعمليات الروحية في كيان الإنسان .

« امتزاجه وترابطه المحكم الشامل الدقيق الذي يجمع كل طاقاته ويوحد بينها في كيان ..

« آيات كلها من آيات الله في الكون . كل منها معجز ، وكل منها هائل ، وكل منها مثير . ولكنها لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعي ودون تفكير .

« والإسلام – وهو يربي الروح – يعمد إليها فيثير فيها الحياة .

« فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها ، فتتفتح للكون كأنه جديد :

« إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[١] .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[٢] .

---

(١) سورة البقرة [١٦٤] .

(٢) سورة الأنعام [٩٥ – ٩٩] .

« يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »(١) .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبًّا ، ثم شققنا الأرض شقًّا ، فأنبتنا فيها حبًّا ، وعنباً ، وقضبا ، وزيتوناً ، ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبًّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم »(٢) .

« وهكذا .. وهكذا .. يوقظ القرآن الحس لآيات الله في الكون وفي النفس ، ليعيش متفتحاً لها ، حفياً بها ، محساً بعظمتها ، متتبعاً لها في كل صغيرة وكبيرة ، شاعراً بالقدرة القادرة من وراء كل آية ، واليد المبدعة من وراء كل تدبير ، ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق ، تسبح بحمده وتتطلع إلى حماه .

* * *

« وكما يوجه القرآن القلب البشري إلى قدرة الله المبدعة في صفحة الكون ، فكذلك يوجهه إلى قدرته القاهرة التي تمسك بيدها كل أمر ، وتدبر وحدها كل تدبير :

« ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير »(٣)

« بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »(٤) .

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السماوات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلي العظيم »(٥) .

---

(١) سورة الروم [١٩ ـ ٢٥] .
(٢) سورة عبس [٢٤ ـ ٣٢] .
(٣) سورة البقرة [١٠٧] .
(٤) سورة البقرة [١١٧] .
(٥) سورة البقرة [٢٥٥] .

« وهو القاهر فوق عباده »[1] .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »[2] .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[3] .

« وكلها آيات توجه القلب إلى هذه الحقيقة الضخمة في بنية الكون وبنية النفس : أن الله وحده هو الخالق . والله وحده هو المدبر . والله وحده هو الذي يصرف الأمور . لا قوة سوى قوته . ولا تدبير سوى تدبيره ، وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية ، لا تملك لنفسها شيئاً ، فضلاً على أن تملك للآخرين . والنفع والضر بيده وحده . لا ينفع أحد إلا بإذنه ، ولا يضر شيء إلا بإذنه . والرزق بيده . والموت والحياة بيده . والبعث والجزاء بيده . بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

* * *

« وكما يوجه القلب إلى قدرة الله المبدعة ، وقدرته القاهرة ، كذلك يوجهه إلى علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء في السماوات ولا في الأرض ، ولا في داخل النفوس .

« وعنده مفاتح الغيب ، لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما في البر والبحر . وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار . ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون »[4] .

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار »[5] .

« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو الرحيم الغفور »[6] .

« ... وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير »[7] .

« يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور »[8] .

« يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير »[9] .

---

(١) سورة الأنعام [١٨] .
(٢) سورة الإنسان [٣٠] .
(٣) سورة التوبة [٥١] .
(٤) سورة الأنعام [٥٩ ـ ٦٠] .
(٥) سورة الرعد [٩ ـ ١٠] .
(٦) سورة سبأ [٢] .
(٧) سورة فاطر [١١] .
(٨) سورة غافر [١٩] .
(٩) سورة لقمان [١٦] .

« يعلم السر وأخفى »[١] .

« ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم »[٢] .

* * *

« فإذا وجه القلب هذه التوجيهات كلها ، وهزه بها من أعماقه ، وجعله ينفعل انفعالاً حياً متجدداً مطرداً لا ينقطع ولا يفتر .. فقد انعقدت بين الله وبين القلب البشري صلة لا تنقطع في النهار أو الليل . لا تنقطع في عمل أو شعور أو فكر . لا تنقطع في سر ولا جهر . لا تنقطع في خلوة ولا صحبة . لا تنقطع ما دامت الحياة ..

« ويتصل القلب بالله صلات شتى :

« يتصل به خشوعاً وتقوى .

« ويتصل به مراقبة له في كل أمر من امور الحياة .

« ويتصل به حباً وتطلعاً .

« ويتصل بـه اطمئناناً إلى قدره وتسليماً بما يرضاه »[٣] .

* * *

تلك حقيقة الألوهية في التصور الإسلامي . وذلك موقف الكون والحياة والإنسان من الله .

إنه موقف العبودية الخالصة للخالق . وهو في ذات الوقت موقف الحب والطاعة والتسليم ، عن رغبة في التسليم وسعادة في الالتجاء إلى حمى الخالق المنعم الكريم .

إنه ليس موقف العناد والحقد والكراهية والصراع .. ذلك الموقف الذي تصوره في وضوح أساطير الإغريق القديمة ، والذي تلصص إلى داخل اللاشعور الأوربي وظل قابعاً هناك !

« وينبغي أن نعرف أن أوربا لم تكن مسيحية حقة في يوم من الأيام ! على الرغم من انتشار المسيحية فيها وتعصب الأوربيين لها في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش . وعلى الرغم مما لا يزال يرد على بعض الألسنة الغربية حين تتحدث عن « الحضارة المسيحية » !

« كلا ! لم تكن مسيحية حقة في يوم من الأيام . وإنما كان قصارى المسيحية عندهم

---

(١) سورة طه [٧] .

(٢) سورة المجادلة [٧] .

(٣) الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل « تربية الروح » .

أن تلين لها قلوبهم في المعبد ، وتتأثر أرواحهم بأنغامها الشجية وسبحاتها الروحية المرفرفة ، ولكنها لا تحكم الحياة العامة ، ولا تحكم في أمر من أمور هذه الأرض . فإذا خرج الناس من صلاتهم في المعبد ارتدت عنهم مسيحيتهم ، وعادوا إلى الوثنية الرومانية الإغريقية القديمة ، يستمدون منها أفكارهم ومشاعرهم ، وتشريعاتهم وتنظيماتهم ، وكل حضارتهم المادية العريقة .. !

« وأياً ما كان الأمر فقد ظلت في لا شعور الأوربيين – تحت القشرة المسيحية الرقيقة – تلك النظرة الإغريقية إلى الله ، تؤثر في وجدانهم نحوه ، وتطبع إحساسهم الديني في الأعماق .

« فكيف كانت الأسطورة الإغريقية تصور الله .. أو الآلهة ؟

« لن نستعرض هنا الأساطير كلها ، ولا الصورة الزرية التي كانت تعرض بها الآلهة ، فتصورهم – على أحسن تقدير – بشراً فائقي القوة ، ولكن نفوسهم مشحونة بالنزوات الطائشة والانحرافات النزقة التي يتورع عنها البشر العاديون .. وإنما نستعرض أسطورة واحدة ذات دلالة ، هي بروميثيوس سارق النار المقدسة !

فبروميثيوس كائن أسطوري كان الإله زيوس يستخدمه في خلق الناس من الماء والطين . وقد أحس « بالعطف » نحو البشر ، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم . فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل في جبال القوقاز حيث وكّل به نسر يرعى كبده طول اليوم وتتجدد الكبد في أثناء الليل ، ليتجدد عذابه في النهار . ولكي ينتقم زيوس من وجود النار المقدسة بين أيدي البشر أرسل إليهم « باندورا » – أول كائن أنثى على وجه الأرض – ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشري ! ! فلما تزوجها إبيميثيوس – أخو بروميثيوس – وتقبل منها هدية « الإله ! » فتح الصندوق فانتثرت الشرور وملأت وجه الأرض ! !

« تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله ! النار المقدسة ، نار « المعرفة » قد استولى عليها البشر سرقة واغتصاباً من الآلهة ، ليعرفوا أسرار الكون والحياة ، ويصبحوا آلهة ! والآلهة تنتقم منهم في وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان !

« وهذه العلاقة قد اندست في أوهام الأوربيين ، وصارت تصرّف أفكارهم ومشاعرهم بغير وعي . العجز وحده هو الذي يخضعهم لمشيئة الله ! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه . فهم يطلبون القوة ويطلبون المعرفة . ويحاولون دائماً أن يقهروا هذا العجز . أو يقهروا – بلغتهم – قوة الطبيعة . أو – بلغتهم اللاشعورية أيضاً – « ينتزعون » الأسرار ! ينتزعونها من الإله الوثني القديم الذي سرقوا منه ناره المقدسة من قبل !

« وبهذا الدافع الخفي المطبوع في أعماق النفس الغربية – في أعماق اللاشعور – يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها « العلم » ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من

علیائه بنفس القدر ! « وتظل « المعركة » هكذا دائرة : كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان ، حتى تأتي اللحظة المرقوبة التي يتحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها ، اللحظة التي « يخلق » فيها الإنسان الحياة ، ويصبح هو الله ! »[1] .

موقفان متباينان تبايناً حاداً حاسماً شديداً : موقف أوربا من الله وموقف الإسلام .

ولا نحتاج هنا أن نقارن بين القلق والصراع والحيرة والاضطراب التي تستولي على القلب الذي تتملكه العقيدة الإغريقية الوثنية الفاسدة ، والسلام والراحة والأمن والاطمئنان الذي ينعم به القلب الذي تتملكه عقيدة الإسلام . ولكننا نقول فقط إن كلاً من التصورين له تأثيره في الإنتاج الفني ، كما سيجيء تفصيل ذلك في الفصول التالية من الكتاب .

* * *

والكون – المنبثق من إرادة الله – هو في التصور الإسلامي شيء جميل ، حيٌّ متحرك محس ، متعاطف مع الإنسان ، متجاوب معه تجاوب الصداقة والزمالة والمودة .

فالسماء « مزينة » بالمصابيح : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] .

والتعبير بالزينة هنا تعبير موح بأن خالق الكون قد قصد في خلقه أن يجعله جميلاً ، وأن الجمال جزء من بنية الكون أصيل .

والأرض التي يعيش عليها الإنسان قد جعلها الله معاونة له على الحياة ، وهيأها بكل ما تتطلبه هذه الحياة من مطالب : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها »[3] . « وجعلنا لكم فيها معايش »[4] . « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »[5] . « وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون »[6] .

والسماء والأرض بما تشتملان عليه من طاقات وكائنات تعاونان كذلك في تهيئة الحياة للإنسان ، وتيسير مهمته في الخلافة عن الله في الأرض :

« هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . . . »[7]

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه »[8] .

« والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نُسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون »[9] .

---

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » .
(٢) سورة الملك [٥] .
(٣) سورة فصلت [١٠] .
(٤) سورة الأعراف [١٠] .
(٥) سورة الملك [١٥] .
(٦) سورة الأنبياء [٣١] .
(٧) سورة يونس [٥] .
(٨) سورة الجاثية [١٣] .
(٩) سورة النحل [٦٥ – ٦٧] .

« وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون »[١] .

ومن ثم فالوجود كله صديق للإنسان ، متعاون معه ، بارّ به ، عاطف عليه ، لا تقوم بينه وبينه العداوة ولا البغضاء . ولا الجفوة ولا النفور .

وهذا الوجود الجميل ، المتعاطف مع الإنسان ، هو في الوقت ذاته كائنات حية ذات حس ووعي وإدراك :

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين »[٢] .

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .. وحملها الإنسان »[٣] .

« يُغشي الليل النهار **يطلبه** حثيثاً »[٤] .

« والنجم والشجر يسجدان »[٥] .

« فلا أقسم بالخنس . الجواري الكنس »[٦] .

ثم هو كون منسق متوازن ، كل شيء فيه مقدر بمقادير مضبوطة لا تضطرب ولا تختل :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر »[٧] .

« والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون »[٨] .

ثم هو مخلوق بالحق . فلا عبث في خلقه ولا باطل . ولا مصادفة ولا جزاف :

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين »[٩] .

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق »[١٠] .

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »[١١] .

ويحسن هنا أن ننقل من « ظلال القرآن » بعض الفقرات في الإشارات القرآنية للكون :

« الشمس والقمر بحسبان » .

---

(١) سورة النحل [١٤ ـ ١٦] .
(٢) سورة فصلت [١١] .
(٣) سورة الأحزاب [٧٢] .
(٤) سورة الأعراف [٥٤] .
(٥) سورة الرحمن [٦] .
(٦) سورة التكوير [١٥] .
(٧) سورة القمر [٤٩] .
(٨) سورة يس [٣٨ ـ ٤٠] .
(٩) سورة الدخان [٣٨] .
(١٠) سورة الحجر [٨٥] .
(١١) سورة الجاثية [٢٢] .

«حيث تتجلى دقة التقدير في تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعوراً بضخامة هذه الإشارة ، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

« وجسم الشمس ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها في فلكها . وكذلك حجم القمر وبعده ودورته .. كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض ، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

« ونتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء ..

« إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بدداً !

« وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها ، وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة ! وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

« وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

« وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » .

« وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

« إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما فسره بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوي على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة في النص واحد ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

« والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها في حقيقتها واحدة .

« و ند أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله . وحقيقة ا جاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدني فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس !

« ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة في بناء الكون ، ولكنه لا يزال بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

« والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون ؛ وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هي قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفراده .

« فإلى أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته ؟ » .

« القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه – وهي الحركة الأصيلة ، فحركة ظاهره لا تكون إلا تعبيراً عن حركة روحه – وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات . كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه » .

« وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجيباً ، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه ، وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهي تدب فيها جميعها ، وتحيلها إخواناً له ورفقاء !

« إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق ... »[1] .

« والخنس الجواري الكنس .. هي الكواكب التي تخنس ، أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهي تجري وتختبئ في كناسها ، وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها . في اختفائها وفي ظهورها . في تواريها وفي سفورها . في جريها وفي عودتها . يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه »[2] .

« الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

« والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه – كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها – يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن

---

(١) « في ظلال القرآن » ج ٢٧.
(٢) « في ظلال القرآن » جـ ٣٠

نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل . فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي ، قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

« ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون ، وإلى تملي مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً وفي كل عصر ...

« والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال ، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » ..

« ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جمالاً يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته . ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة ، ومن مرصد لمرصد ، ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

« هذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء !

« وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

« وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

« وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة .. !

« وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .

« إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات !

« والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة ، في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون ، ذلك أنها

هي اللحظات التي تهيئه وتمد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه »[1] .

* * *

والحياة – معجزة الخلق الكبرى – جميلة بكل صورها وأشكالها .. والقرآن يوجه القلب إليها ، ويعقد صلة القربى بين الإنسان وغيره من الأحياء في هذا الوجود . النبات والحيوان والطير ..

« وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خَضِراً نُخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه »[2] .

فهنا مهرجان من الحياة المتمثلة في النبات بشتى أنواعه . مهرجان زاخر حافل ، مختلف الألوان والأشكال والشيات . كلها مبهج وكلها جميل . تستغرق الحس بتمليها واحدة إثر واحدة ، ثم بالمقارنة بينها واحدة إثر واحدة . فهذه طويلة سامقة وهذه قريبة المنال . وهذه متشابهة وتلك غير متشابهة . وهي جميعها ثمر وينع ، يلذ الأعين ويلذ الحس . والآية توجه الناس إلى « النظر » « إلى ثمره إذا أثمر وينعه » . وهو توجيه يلفت النظر هنا بصفة خاصة في مجال عرض هذه « المأكولات » الشهية التي يتوق لها الحس . فهو لا يقول هنا – كما يقول في مواضع أخرى – « كلوا من طيبات ما رزقناكم » بعد هذا العرض المشهي بالفاكهة المختلفة الأشكال والأنواع . ولكن يقول « انظروا » ! انظروا إلى الجمال المبثوث في هذه الكائنات الحية ، وتمتعوا بهذا الجمال في تلك اللوحة الطبيعية الحية المتناسقة البهيجة ! فالجمال هنا هدف مغذٍّ للروح ، وهو هنا المقصود أولاً قبل غذاء الأبدان !

« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون »[3] .

وهنا الأنعام ذات فوائد ومنافع يبينها الله للناس ليشكروا نعمته وفضله . ولكنه لا يوجههم إلى الفوائد الحسية وحدها في الأنعام ، بل يوجههم توجيهاً صريحاً إلى « الجمال » في هذه الأنعام . جمال « حين تريحون وحين تسرحون » . فالجمال عنصر أصيل في بنية الكون والأحياء . وعنصر مطلوب . مطلوب ليستمتع به الناس . وموهبة يذكّر الله بها الناس ليشكروه ويعبدوه .

والإشارة إلى الجمال هنا ذات دلالة واضحة لا تخفى بالنسبة للتصور الإسلامي للوجود .

---

(١) « في ظلال القرآن » جـ ٢٢.

(٢) سورة الأنعام [٩٩] .

(٣) سورة النحل [٥ – ٦] .

فعنصر الجمال عميق في هذا الوجود جداً ، يتبدى في كل كائناته « الجامدة » وغير الجامدة . والإنسان – خليفة الله في الأرض – مطالب أن يفتح حسه لهذا الجمال ، ليلتقي أجملُ ما في نفسه – وهو حاسة الجمال – بأجمل ما في الكون ، وينتج من هذا اللقاء ارتقاء الإنسانية صعداً ، حين تشف وتصفو ، وتلتقي بالحقيقة الإلهية على هذا الاتساع الشامل ، الذي يشمل كل مجالي الجمال في الكون والحياة .

وتوجيه نظر الإنسان إلى « الجمال » في الأنعام ذات « المنافع » المتعددة له دلالته كذلك فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في التصور الإسلامي . فهو مخلوق واسع الأفق متعدد الجوانب ، ومن جوانبه الحسي الذي يرى منافع الأشياء ، والمعنوي الذي يدرك من هذه الأشياء ما فيها من جمال وهو مطالب ألا تستغرق حسه المنافع ، وألا يقضي حياته بجانب واحد من نفسه ويهمل بقية الجوانب . فكما أن الحياة فيها منافع وجمال ، فكذلك نفسه فيها القدرة على استيعاب المنفعة والقدرة على التفتح للجمال . فينبغي أن يأخذ الحياة هكذا بكلياتها ، ويتلقاها بنفسه كلها ، عاملاً فيها بجميع طاقاته ، ليصبح جديراً بمكانه الكريم عند الله .

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس »[1] .

هذه الجولة مع النحل التي تتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرش الناس ، ثم تأكل من كل الثمرات مما ينبت طبيعياً ومما يزرع الناس .. ثم يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس ..

إن هذه الجولة تثير في النفس وجدانات شتى .. فهي أولاً تتبع هذا المخلوق الضئيل النشيط المتحرك الدءوب في رحلته الدائبة التي لا تهدأ ، والتي يكاد التعبير بنغمته وموسيقاه يرسمها متموجة كتموج النحلة في حركتها ذات اليمين وذات اليسار ، وإلى أعلى وإلى أسفل ، تهدأ لحظة ثم تنطلق في اتجاه جديد .. ثم يدركها العجب من هذا المخلوق الضئيل الدءوب ، ويدركها الإعجاب فتنشأ بينها وبينه صلة نفسية هي مزيج من المودة والعطف .. ثم هي أخيراً تحس بالصلة المباشرة بينها وبينها ، فهي رائحة غادية على « الناس » وفي النهاية تخرج شراباً « للناس » ! وهكذا تقرب هذه الصلة حتى تمتزج ، وتصبح نوعاً من الزمالة في الحياة !

« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، ما يمسكهن إلا الرحمن . إنه بكل شيء بصير »[2] .

---

(1) سورة النحل [٦٨ – ٦٩] .

(2) سورة الملك [١٩] .

« ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه »[1] .

والتوجيه هنا إلى الطير ، وهي صافات أرجلها وأجنحتها ، وحين تقبضها ، توجيه له عدة أهداف .

فهو توجيه إلى آيات الله في الكون ، وقدرته القادرة المبدعة الخلاقة البصيرة .

وهو توجيه إلى عظمة الله التي يسبح لها كل من في السماوات والأرض – ومن بينها الطير – كل بلغته الخاصة ، وعلى طريقته الخاصة .

تلك أهداف « مباشرة » مذكورة بنصها .

ولكن هناك أهدافاً أخرى يلتفت إليها الحس البصير الذي يعيش في جو القرآن ، والتصور الإسلامي للكون والحياة .. إن كلمة « فوقهم » في الآية الأولى لا تحدد مكان الطير وحده ، ولكنها بالإضافة الموجودة في آخرها « ..هم » تعقد صلة بين الطير والناس ، لم يكن الإنسان ليحسها لو قال : أو لم يروا إلى الطير صافات ويقبضن . أو لو قال : أو لم يروا إلى الطير في السماء صافات ويقبضن ! فكلمة « فوقهم » بما فيها من إضافة قد علقت القلب البشري بالطير ، بعلاقة أوثق من مجرد الرؤية والتأمل . إنها علاقة فيها صلة ما .. صلة يخفق لها القلب مع خفقة الطير .

أما الآية الثانية فهي تعرض صلة أخرى بين الناس والطير وجميع الكائنات . إنها كلها تسبح لله . كل بطريقته .. ولكنها كلها تلتقي على التسبيح ، وتتصل وجداناتها على العبادة ، ويجمعها شعور واحد وثيق !

وهكذا تقوم وشائج القربى بين الكائنات الحية كلها في هذا الكون ، ما تدركه الحواس منها من ناس وطير وحيوان ونبات ، وما لا تدركه الحواس ممن يشملهم لفظ « من في السماوات والأرض » الذين يسبحون كلهم لله ...

ولا تقتصر صلات القربى على هذه الإيحاءات الدقيقة التي يتفتح لها الحس حين يعيش في جو القرآن والإسلام ، فهناك إيحاءات أخرى لها كذلك دلالتها :

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير »[2] .

إن صلة القربى هنا ليست معنوية ووجدانية فحسب . إنها أصرح من ذلك وأقرب . إنها صلة « مادية » محسوسة . إنها الاشتراك الحقيقي – لا المجازي – في « مادة » واحدة

---

(١) سورة النور [٤١] .

(٢) سورة النور [٤٥] .

خلقت منها كل الكائنات ، ثم تعددت أنواعها بعد ذلك وتفرقت أشكالها ، ولكنها جميعاً ترجع إلى هذا الأصل الواحد الذي نبتت منه جميعاً !

إن الإنسان إذن ليس واهماً ولا متخيلاً خيالاً شعرياً حين يحس بالرابطة الوثيقة بينه وبين الكائنات الحية في الوجود من حوله . إنها « حقيقة » . ولكنها حقيقة هائلة تفتح للقلب منافذ شتى يطل منها على الحياة ، فتتسع مساحتها في نفسه وتعمق أصولها في حسه . ويجد فيها الشعر والفن منفذاً يصل بين النفس والكون في أوسع مداه . ولا يفوتنا هنا التعبير بكلمة « من » في الحديث عن الدواب ، بدلاً من « ما » القياسية في الحديث عما لا يعقل . فهو تعبير مقصود ليصل بين وجدان الإنسان ووجدان هذه الكائنات .

وهذه القربى التي ذكرتها الآية السالفة بين الإنسان ودواب الأرض ممن يمشي على بطنه ومن يمشي على أربع ، تذهب بها آية أخرى إلى أبعد من ذلك .. عن طريق الإيحاء على الأقل إن لم يكن باللفظ الصريح : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً[1] .. فبصرف النظر عن المدلول « العلمي » لهذه الآية ونحن لا نعلمه على وجه اليقين[2] ، فإن لها مدلولاً نفسياً ، هو صلة القربى بين هذا الإنسان ونبات الأرض . فكلاهما نابت من الأرض . وكلاهما نبات !

أي صلة عميقة وثيقة تربط الإنسان بالحياة في الكون ! وأي سعة يحسها الإنسان في نفسه وفي الكون ، حين يتعمق في حسه الشعور بالوشائج الحية التي تربطه بالأحياء ؟

لا عجب إذن حين نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يمسك بنبتة صغيرة فيقبلها ، وحين يقول : « ليتني شجرة تُعضَد » (أي تقلّم) . فهو يتكلم بهذا وقد فاضت في روحه العظيمة مشاعر الاتصال الوثيق بالحياة في جميع الأحياء !

* * *

ثم يجيء دور الإنسان في التصور الإسلامي .

الإنسان خليفة الله في الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[3] .

وهو كريم عند الله منذ خلقه : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[4] .

---

(١) سورة نوح [١٧] .

(٢) دون تعلق بنظرية التطور التي تقول إن الحياة النباتية قد أدت إلى الحياة الحيوانية ثم إلى الإنسان !

(٣) سورة البقرة [٣٠] .

(٤) سورة الإسراء [٧٠] .

وقد خلقه في أحسن صورة : « وصوركم فأحسن صوركم »[1] .

ووهب له مواهب جمة : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة »[2] .

وأعطاه مكانة عالية في الكون : « وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه »[3] « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »[4] .

ومكانة إيجابية في أحداث الحياة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[5] فإرادة الله نافذة عن طريق إرادة الإنسان .

وهكذا يتحدد دوره في الحياة . فقد خلقه الله في أحسن صورة ، ووهب له هذه المواهب كلها في نفسه وفي الكون من حوله ، وأعطاه مكانه في أحداث الحياة ، ليقوم بدور الخلافة في الأرض ، من عمارتها وترقيتها ، واستخراج كنوزها وأرزاقها ، والتعرف على أسرارها ، وأسرار ما في السماوات والأرض من طاقات مسخرة له ، بإذن الله . ولينشئ بكل ذلك حياة إنسانية صالحة رشيدة مهتدية بهدي الله . « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[6] . حياة فاضلة نظيفة مترفعة . حياة تليق « بالإنسان » الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق ، فلا تهبط عما يليق بالتكريم والتفضيل ، ولا ترتكس إلى مستوى الحيوان .

وفي الفصل القادم تفصيل للحياة الإنسانية في نظر الإسلام .

---

(١) سورة التغابن [٣] .
(٢) سورة الملك [٢٣] .
(٣) سورة الجاثية [١٣] .
(٤) سورة الملك [١٥] .
(٥) سورة الرعد [١١] .
(٦) سورة البقرة [٣٨] .

الإنسان في التصوّر الإسلامي

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »[1] .

الإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان ، مترابطين ممتزجين في كيان واحد .

قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله .

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية : الأوكسيجين والإيدروجين والكربون والكلسيوم والفوسفور.. إلخ . وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض .

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية وقوة الوعي المدركة وقدرة النفس المريدة .

وهذان معاً يكوّنان الإنسان .

فهو ليس قبضة طين خالصة . تخضع للضرورات القاهرة من طعام وشراب وجنس .. إلخ ، خضوعاً لا تملك نفسها منه ، ولا تختار لنفسها سلوكاً معيناً إزاء هذه الضرورات .

وليس إشراقة روح خالصة ، طليقة من القيود ، ترفرف حيث تشاء ، لا تخضع لضرورة ، ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان ، والوجود والفناء ، وثقلة الجسم المنجذب إلى الطين .

ولكنه مزيج من الضرورة القاهرة والإشراقة الطليقة من القيود .

مزيج قد يغلب عليه في بعض الأحيان أحد عنصريه ، فتظهر الضرورة الغليظة وعتامة الطين ، أو تظهر النورانية الشفيفة وخفة الشعاع . ولكنه أبداً غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات .

وحين ينفصل – لو أمكن ذلك – يخرج عن كيانه الأصيل فلا يصبح هو « الإنسان » .

حين يصبح جسداً خالصاً . حين يصبح متعة حسية منقطعة عن كل إشراق . حين يصبح ضرورة غليظة . حين يصبح جوعة طعام أو شراب أو جنس لا تشبع ولا تهدأ . حين ينحصر

---

(١) سورة ص [٧١ – ٧٢] .

في حدود ما تدركه حواسه لا يجاوزها إلى العالم الفسيح الذي تدركه الروح فيما وراء الوعي .. لا يعود إنساناً وإنما يرتكس إلى عالم الحيوان .

وحين يصبح روحاً خالصة . حين يهمل كيانه المادي وضروراته القاهرة ويترهبن . حين يهمل العالم الذي تدركه حواسه ليعيش فيما وراء المحسوسات .. لا يصبح إنساناً . إنه يحاول أن يكون كائناً أفضل – في نظره – من الإنسان ، ولكنه لا يصل في الحقيقة إلى هذا الفضل . فالسلبية الكاملة التي يتوصل إليها ليست فضلاً ولا مزية ، وإنما هي إهدار لأفضل ما يشتمل عليه الإنسان : الإيجابية الفاعلة التي تحقق كيانها في واقع الحياة .

ولكنه يحقق رسالته في الأرض ، ويحقق أفضل ما يستطيعه ، ويحقق كثيراً من الخير ، حين يكون على طبيعته المزدوجة : قبضة الطين ونفخة الروح .

ومقتضى هذا الامتزاج في مفهوم الإسلام : أن الإنسان يقضي ضروراته الأرضية الحيوانية على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان . ويحقق أشواقه الروحية الملائكية على طريقة الإنسان لا على طريقة الملاك !

يأكل ويشرب ويقضي ضرورة الجنس ... وهي كلها مسائل يشترك فيها مع الحيوان . ومع ذلك يقضيها هو على طريقته .. ولا يكون الفرق الرئيسي في طريقة الأداء الميكانيكية – فهذه قد تتشابه في « بعض » الأحيان – وإنما يكون في الفارق النفسي والشعوري وطريقة « السلوك » .

الطعام والشراب والجنس .. ضرورات يقضيها الحيوان بطريقة مباشرة ، وعلى أسلوب واحد محدد تفرضه « الغريزة » ، ليس له فيه اختيار . لا اختيار في القدر . ولا اختيار في الموعد . ولا اختيار في الانصراف عنه لسبب من الأسباب .

والطعام والشراب والجنس .. ضرورات يقضيها الإنسان . ولكنه يقضيها بطريقة الإنسان . فيجعل لها سلوكاً ، مهمته التهذيب والتجميل ، و « الاختيار » .

فهو لا يهبر هبرة من اللحم النيء ويقضمها بأسنانه أو يمزقها بأنيابه . ولا يخطفها ويجري بها . ولا « يفترسها » افتراساً . وإنما يجعل لكل ذلك آداباً . مهمتها أن تبعد المسافة بين دفعة الغريزة المباشرة وبين الاستجابة لهذه الدفعة . وهو في النهاية يستجيب . نعم ، لا شك . ولكن المرحلة التي يقضيها بين الدفعة والاستجابة ، المسافة التي ينشئ فيها قواعد السلوك وأدب الأداء ، المسافة التي « يتجمل » فيها بمشاعر معينة وأفكار معينة وحركات سلوكية معينة .. هذه المسافة هي ذاتها التي تفرق بين الإنسان والحيوان ، والتي تبين كيف يقضي الإنسان ضرورة الحيوان ولكن على طريقة الإنسان !

والأمر في الجنس كذلك .

ففي عالم الحيوان تهيج الذكور والإناث للإخصاب في موسمها الجنسي . لا اختيار لها في تحديد الموعد . وتهيج جماعاتٍ ، لا اختيار في التميز الشخصي . وتهيج في حركات محددة تصل في نهايتها إلى اللقاء الجنسي . لا اختيار في هذه الحركات .

وأهم من ذلك أن كل أنثى مباحة لكل ذكر . وكل ذكر في اشتياق لكل أنثى . لا يقف دون تحقيق هذه « الشيوعية » الكاملة إلا عراك الذكور واقتتالهم على الإناث ، وهلاك الكثيرين منهم في المعركة واستيلاء من بقي منهم حياً على قطيع الإناث[1] .

وفي عالم الإنسان توجد ضرورة الجنس .

ولكنه – حين يكون إنساناً – يقضيها على غير طريقة الحيوان .

فقد تحرر الإنسان – بادئ ذي بدء – من قيد الموعد المحدد ، وصارت السنة كلها بالنسبة إليه موسماً صالحاً للإخصاب . ولكنه في مقابل ذلك يلتزم – لصالح نفسه قبل كل شيء آخر – بتحديد القدر الذي ينغمس فيه في هذه الضرورة ، وقد زود بالأداة اللازمة لذلك : أداة « الضبط » والتقدير .

وقد تحرر من صورة القطيع في شؤون الجنس – كما هو في كل شأن آخر – فأصبحت له ذاتيته المتفردة ، التي تختار لنفسها سلوكها وطرائقها ومواعيدها وإقبالها وامتناعها .

ولم يعد – في عالم الإنسان – كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وكل ذكر في اشتياق لكل أنثى . لأن الجنس في عالم الإنسان ليس أداء ميكانيكياً لهدف غير واع ، يتحقق من وراء وعي الفرد الحيواني ، ودوره فيه هو مجرد الأداء . وإنما هو – ككل شيء في عالم الإنسان – هدف واعٍ يدركه الفرد الإنساني ، ويؤديه بموجب هذا الإدراك .

وقد اقتضى هذا الإدراك أن يفهم الإنسان أن رسالته في الأرض لا تتحقق إلا بتكوين « مجتمع » و « أسرة » ، وأن من لوازم هذه الأسرة استقرار العواطف وتخصيص أنثى واحدة لكل رجل ، ورجل واحد لكل أنثى[2] ، ليتكون المحضن الصحيح لتربية الأجيال الناشئة في عش هادئ يتمتع بالسلام النفسي والمادي . ولتتكون بين أفراد المجتمع علاقة أخرى غير علاقة التقاتل الوحشي بين الذكور على اصطياد الإناث . ولتتوجه اهتمامات الفرد – بعد قضاء حاجة الجنس في سلام وأمن – إلى أهداف الإنسانية الأخرى التي يشملها كيان الإنسان .

وهو في النهاية يستجيب لدافع الجنس . نعم . لا شك . ولكن المسافة الهائلة التي يقطعها

---

(١) هناك بعض صنوف الحيوان مع ذلك تمارس نظام « الزواج » كالحمام والثعابين ، فيكون الذكر والأنثى إلفين غير منفصلين .

(٢) إلا حين يختل العدد فتزيد نسبة الاناث على نسبة الذكور ، وهو ما يحدث في الطبيعة ، فيباح تعدد الزوجات لملافاة هذا النقص .

بين الدفعة والاستجابة . المسافة التي يكوّن فيها سلوكاً وآداباً للجنس . المسافة التي يضيف فيها إلى الدفعة البيولوجية « مشاعر » إنسانية : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة »[1] . المسافة التي يضيف فيها أفكاراً ذات أهداف.. هذه المسافة هي هي المسافة بين الإنسان والحيوان . وهي التي تبيّن كيف يقضي الإنسان ضرورة الحيوان .. ولكن على طريقة الإنسان .

* * *

تلك هي الصفحة الأولى من التصور الإسلامي للإنسان ، الصفحة التي تعرض صلته بالحيوان . أما الصفحة الثانية التي تعرض صلته بالملاك . فهي تقتضي أن يستجيب الإنسان لأشواقه العليا ولكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الملاك .

فالملاك – كما ترد صورته في الفكرة الإسلامية – مخلوق من نور خالص ، ليس له ثقلة الجسم ولا عتامة الطين . ومن ثم فهو إشراقة خالصة محددة الاتجاه . اتجاهها هو الطاعة المطلقة الدائمة الكاملة : « لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون »[2] . « يسبحون الليل والنهار لا يفترون »[3] « يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »[4] .

وهي صورة جميلة شفافة رائقة .. ولكنها ليست من طبيعة الإنسان المزدوج الطبيعة والاتجاه . ولذلك لا يُقْسَر عليها الإنسان قسراً ، لأنها تفسد طبيعته ، إذ تهمل الجانب الحيوي من كيانه . وتتركه بدداً لا ينفع بشيء . لذلك قال : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »[5] .

وليس معنى ذلك ألا يستجيب الإنسان لما ركب في طبيعته من إشراق وتطلع إلى الخفة والانطلاق من القيد والترفع على الضرورة . بل هو يشجَّع على ذلك تشجيعاً ، ويوجَّه إليه بكل وسيلة . ولكن على ألا ينزع نفسه من الأرض : « ولا تنس نصيبك من الدنيا »[6] .

« عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها ! فقالوا أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني

---

(١) سورة الروم [٢١] .
(٢) سورة التحريم [٦] .
(٣) سورة الأنبياء [٢٠] .
(٤) سورة فصلت [٣٨] .
(٥) سورة الحديد [٢٧] .
(٦) سورة القصص [٧٧] .

لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني »[1] .

وتلك عبقرية الإنسان : أن يسير بجسمه على الأرض وهو متطلع بروحه إلى السماء !

وهي كذلك معجزة الإسلام في مراعاته للفطرة البشرية .

فهو يكوّن نقطة الوسط بين الاتجاهات المتطرفة المنحرفة .

لا يؤمن – كالداروينية – بحيوانية الإنسان .

ولا يؤمن كالهندوكية والبوذية برهبانية الإنسان .

وقد نشأ عن النظرة الداروينية التي تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته اتجاهات شتى في الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس ..

كما نشأ عن النظرة المثالية فلسفات وأفكار .

عن الأولى نشأت الماركسية في عالم الاقتصاد ، والتفسير المادي للتاريخ في عالم الاجتماع ، والتفسير الجنسي للسلوك في عالم النفس .

ونشأت عن الثانية الفلسفة المثالية ، والنظريات التجريدية ، من نظرية المثل لأفلاطون في العصور القديمة إلى فلسفة هيجل في القرن التاسع عشر .

ونشأت عن هذه وهذه فنون .

وسنتكلم عن هذه الفنون بتفصيل أوسع ونحن نتحدث عن « الواقعية في التصور الإسلامي » . ولكنا هنا نثبت ملاحظة عابرة ، هي أن هذه الفنون كلها « منحرفة » بطبيعة انبثاقها من تصور خاطئ للإنسان . وأنها على كل ما فيها من جمال ودقة وبراعة فائقة ، لا ينبغي أن تخدعنا عما فيها من انحراف ، حين نقيسها بهذا المقياس « الإنساني » الكاشف ، الذي يمثل طبيعة الإنسان على حقيقتها الشاملة ، ويأبى أن ينحصر في جانب واحد من جوانب الإنسان

* * *

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك . لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، أبى

---

(١) الشيخان والنسائي .

واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1] .

تلك قصة آدم .. قصة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير .. قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه .

وإن فيها لمجالات واسعة للفن ، سيجيء الكلام عنها في موضعها .. وإنما نحن هنا مشغولون بعرض التصور الإسلامي للإنسان .

وإن الإنسان ليشهد في نفسه صدق هذه القصة في كل لحظة من لحظات حياته على الأرض .

إنه مخلوق ذو مواهب وذو مقدرة وذو نشاط فعال .

ولكن في نفسه نقطة ضعف دائمة : هي حبه للشهوات :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »[2] .

وهو يخضع لهذه الشهوة أحياناً فتركبه ، فلا يملك نفسه منها ، ويُستعبد لها فتستذله وتقوده من خطامه .

وأحياناً يقدر عليها ، فيرتفع على الضرورة ، ويرتفع على نفسه ، ويحقق أرفع ما في كيانه من طاقات واستعدادات .

وأحياناً تلم به لحظة ضعف ولكنه يفيق منها فيتوب .. فيتقبل الله توبته :

« .. والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين »[3] .

وهو في أرفع حالاته حين يقدر على نفسه ويمتنع على الشهوات ، وعندئذ يكون قريباً

---

(١) سورة البقرة [٣٠ – ٣٩] .

(٢) سورة آل عمران [١٤] .

(٣) سورة آل عمران [١٣٤ – ١٣٦] .

من الله . وهو في أخس حالاته حين يترك نفسه لشهوتها ، فتهبط به ، وتظل تستدرجه في طريق الهبوط ، وعندئذ يكون في قبضة الشيطان .

ولكن الله به رحيم . فهو لم يحرّم عليه النعيم وهو على الأرض : «ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين» . وإنما منعه من «الشهوة» . وحدد بين المتاع والشهوة حدوداً بيّنها في دستوره ، الذي طلب منهم اتباعه ليفوزوا بالنعيم المنشود .

* * *

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»[1] .

إن الإنسان في التصور الإسلامي مكرم مفضل عند الله . يحمل هذه الكرامة بين جنبيه طالما هو متصل بالله متبع لهداه .

وقد زوده الله بالطاقات اللازمة لعمارة الأرض : «وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات» .. والطيبات من الرزق معنى واسع وشامل يشمل كل الأرزاق . ليس فقط الطعام والشراب والمتاع .. وإنما هو كل مكنونات البر والبحر ، وكل طاقة في السماوات والأرض :

«وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه»[2] .

فالسماوات والأرض ، بموجوداتها ، بقوانينها ، بنظامها ، بطاقاتها ، بمنتجاتها .. مسخرة من الله للإنسان . يأخذ منها رزقاً طيباً ، يستعين به على الحياة والخلافة عن الله .. يدخل في ذلك شعاع الشمس المنير ودفؤها المحيي ، ومطر السماء المنبت ، وعناصر الهواء المساعدة على الحياة ، والكهربائية والمغنطيسية ، والمد والجزر ، وجاذبية الأجرام السماوية ... و ... و ... وكل ما في الوجود من كائنات وطاقات ... ويدخل فيه الموهبة التي رزقها الله للإنسان : موهبة العلم بهذه الكائنات والطاقات ، والقدرة على تسخيرها لعمارة الأرض وترقية الحياة .

وهو مكلف أن يقيم من ذلك كله «عملاً» صالحاً ..

«إن الذين آمنوا **وعملوا الصالحات** ....»

والعمل الصالح كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله . من عبادة . وزرع . وصناعة وعمارة . واستخراج لكنوز البر والبحر ..

ولا يكون صالحاً حتى يستوفي الشروط التي بينها الله في دستوره .. شروط شاملة تشمل كل حياة الإنسان بالتفصيل . حياته فرداً وجماعة . حياته الروحية والفكرية والاجتماعية

---

(١) سورة الإسراء [٧٠] .

(٢) سورة الجاثية [١٣] .

والاقتصادية والمادية ... ومؤداها أن تقوم في الأرض حياة فاضلة راشدة نظيفة مهتدية ، يتمتع فيها الناس كلهم برزق الله الواسع ، على أخوة ومودة ، في ظل الحق والعدل الأزليين .

الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمادية .. هي في التصور الإسلامي جزء من « العمل الصالح » الذي ينبغي للإنسان أن يقدمه إلى الله .. ومن ثم فهي دائماً مرتبطة بالله .

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين : شقاً أرضياً « يعمل » وشقاً سماوياً « يتعبد » . وإنما العبادة عمل والعمل عبادة . والإنسان بشقيه شيء واحد . لأنه منذ مولده الأول قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ممتزجتين غير منفصلتين . ومن ثم فليس شيء في كيانه منفصلاً عن بقية الكيان .

الروح والعقل والجسم كيان واحد .

والعمل والعبادة كيان واحد .

والدنيا والآخرة كيان واحد .

وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله[1] . وكل لحظة من حياته هي للدنيا والآخرة في آن[2] . ومن هنا لا تنقسم الأعمال إلى قسمين : قسم لقيصر وقسم لله . وإنما تكون كلها لله . ويدخل قيصر في ملكوت الله ، ويخضع لدستور الله ..

ولا تكون هناك نظريات اقتصادية ، ولا نظريات اجتماعية ، ولا تنظيمات أرضية منقطعة عن الله .

لا يقال في شيء من الأشياء هذا تنظيم أرضي فلا دخل لله فيه . ولا يقال لشيء من الأشياء هذا « دين » فلا دخل له بشؤون الأرض !

الأرض بكل من فيها وما فيها خاضعة لله ، وينبغي أن يحكمها هدى الله .

أخلاق الناس وتقاليدهم .. علاقات بعضهم ببعض .. شؤونهم الفردية والجماعية .. سلوكهم الجنسي وسلوكهم الاقتصادي وسلوكهم الاجتماعي .. سلمهم وحربهم .. سياستهم الداخلية والخارجية .. مشمولة كلها بدستور الله ، منظمة بمقتضى ذلك الدستور . ورقابة الله تشملها كلها ، ولا تترك منها شيئاً للأهواء التي تنتاب البشر فتخرجهم عن الصراط .

* * *

وهذه الأمور كلها وحدة مترابطة .

مترابطة في داخل النفس وفي واقع الحياة .

---

(١) انظر فصل « خصائص المنهج الإسلامي » في الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

(٢) انظر فصل « فليغرسها » من كتاب « قبسات من الرسول » .

فليس هناك عمل واحد من أعمال الإنسان مستقل بذاته ، غير مرتبط ببقية الأعمال .

نشاطه الروحي ، ونشاطه العقلي ونشاطه الجسمي كله صادر عن كيانه الموحد ، ومن ثم فكله مترابط ، وكل جانب منه يؤثر على بقية الجوانب .

والأمر كذلك في حياة المجتمع : لا يمكن فصل التنظيم الاقتصادي عن الفكرة الاجتماعية ، عن الفكرة الروحية ، عن الأخلاق .. ولا يمكن أن تتخذ أيٌّ من هذه طريقها مستقلة عن الأخرى ، أو غير متأثرة بها ومؤثرة فيها في الوقت ذاته .

لا يقوم الاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية والقيم الخلقية .

ولا تقوم الأخلاق بمعزل عن الاقتصاد ...

ولا يقال للناس : أنتم أحرار في سلوككم « الشخصي » ، فكيّفوا سلوككم الجنسي وقيمكم الروحية كما تشاءون ، ولكن اخضعوا لتنظيمات « الدولة » في السياسة والاقتصاد !

ولا يقال لهم التزموا الأخلاق « الرسمية » فلا تفسقوا ولا تشربوا الخمر وأدّوا العبادات المفروضة .. ثم تصرفوا في اقتصادياتكم كما تشاءون ، فاستغلوا الناس واستعبدوهم وكلوا حقوقهم !

فالترابط الموجود في كيان النفس وكيان المجتمع ، يقتضي أن يكون التنظيم والتهذيب شاملاً لكل هؤلاء .

* * *

وملاك الأمر في هذه الشؤون كلها هو التوازن .. وهو صفة تكتسبها النفس من السير على منهج الله[1] .

التوازن سمة بارزة في هذا الكون .

فأجرام السماء متوازنة .. آية توازنها ذلك النظام الدقيق المضبوط الذي لا يختل قيد شعرة ، ولا يفترق عن موعده ثانية ولا ثالثة ولا متراً من سرعة الشعاع !

وهو سمة واضحة في المجموعة الشمسية التي نحن جزء منها ، وفي الأرض التي نعيش عليها بصفة خاصة ، وفي الحياة على الأرض بصفة أخص .

والعلم يقول في هذا التوازن مقالات شتى . ليس هنا مجال تفصيلها . ولكن البصيرة الملهمة قد أدركت ذلك التوازن حتى قبل أن يصل إليه العلم . أدركته في ومضات مشرقة من ومضات الروح .

والحياة الإنسانية ينبغي أن تسير على الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة كلها .. فتتوازن بكل ما فيها من طاقات .

---

(١) انظر بالتفصيل الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

تتوازن الأشواق الطائرة والضرورات القاهرة .

تتوازن النزعة الفردية والنزعة الجماعية .

تتوازن النزعة المادية والنزعة الروحية .

تتوازن طاقة الواقع وطاقة الخيال .

يتوازن الحب والكره .

يتوازن العمل والعبادة .

تتوازن مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

تتوازن مصلحة الجيل ومصلحة الأجيال .

يتوازن كل شيء في هذه الحياة !

* * *

والناس إخوة في البشرية ، بحكم نشأتهم من نفس واحدة ، واشتراكهم في المنشأ والمصير .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام »[1] .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] .

وهذه الأخوة ليست قضية نظرية جميلة يُحتفظ بها في عالم المثل والأحلام . بل هي حقيقة عميقة في حياة البشرية ، تصاغ على أساسها النظم والتشريعات والتوجيهات .

فالمال يشارك في الانتفاع به الجميع : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[3] .

والأمن والسلام ملك للجميع : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله »[4] وليس المسلم فقط ، وإنما هي قضية عامة : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »[5] .

« والأخلاق » قضية إنسانية ، ناشئة من أخوة الناس جميعاً .

فالذي يفسق في الأرض ويرتكب الفاحشة يعتدي على عرض أخ من إخوته وعرض أخت .

والذي يلمز الناس أو يغتابهم أو يتجسس عليهم .. أو يغشهم ويكذب عليهم .. أو

---

(١) سورة النساء [١] .

(٢) سورة الحجرات [١٣] .

(٣) سورة الحشر [٧] .

(٤) رواه الشيخان .

(٥) سورة المائدة [٣٢] .

يسرقهم ويغتصبهم .. إلخ ، يعتدي على قانون الأخوة الذي يقتضي أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويعامله بما يحب أن يعامله به . ومن ثم تقام الحدود التي تلزم الناس برعاية هذه الأخوة ، وتردهم بالحزم والشدة حين يخرجون عليها ، إلى جانب التوجيهات التي تبث هذه الروح في كل عمل وكل شعور .

ويصير هذا جزءاً من دستور الحياة الإنسانية ، ناشئاً من الواقع العميق في بنية هذه الحياة .

* * *

والإسلام بعد يتصور الإنسان في واقعه الفعلي لا في عالم النظريات .

ولكن نظرته إلى « الواقع » ليست ضيقة محصورة الحدود[1] .

إنه يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه . لا يهمل شيئاً من طاقاته ، ولا يفرض عليه ما ليس من طبيعته .

الإنسان بدوافعه كلها ، بنوازعه كلها ، بحالاته كلها ، معترف به ، ومقبول على ما هو عليه . كل ما في الأمر أن الإسلام يسعى إلى تنظيفه وتهذيبه . ولكنه لا يكبته ولا يحارب فطرته .

طاقة الجنس نظيفة ، معترف بها في وضح النور : «وإن في بضع أحدكم لأجراً ! قالوا : يا رسول الله أإن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟! قال : أرأيت لو وضعها في حرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذ وضعها في حلال فله فيها أجر ! »[2] .

ورغبة الملك نظيفة . وحب الإنسان لنفسه نظيف . وطاقة القتال نظيفة . وطاقة الكره نظيفة ... وكذلك كل طاقاته واستعداداته . معترَف بها . بل مطلوبة لذاتها ، وفي مكانها الصحيح .

ولكنه لا يريدها أن تتجاوز الحدود .. فعندئذ تنقلب إلى « فاحشة » فالفحش هو تجاوز الحدود . ومن ثم يضع لها « الضوابط » التي تضبط مُنْصَرَفَها ويضع لها التوجيهات التي تنظفها . ويربطها بالله لكي تَنْظُفَ وتستقيم[3] .

وهو في ذلك يعتمد على أداة بشرية ، كامنة في كيان النفس ، موهوبة للإنسان من عند الله :

---

(١) انظر الفصل التالي : «الواقعية في التصور الإسلامي» .

(٢) رواه مسلم .

(٣) انظر فصل « نظرة الإسلام » في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

«ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[1] .

ومع ذلك كله فهو يعلم أن للطين ثقلته وعتامته . وللواقع ضغطه وقوته . وأن الإنسان خلق ضعيفاً فيخفف عنه : « يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً »[2] .

يخفف عنه في التكاليف : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج »[3] . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[4] ويطالبه بما يقع في حدود استطاعته : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا »[5] . وأخيراً يقيل منه عثرته ويقبلها ، ولا يسلط عليه سيف غضبه ما دام لا يصر على فعلته : « .. ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم »[6] . « ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما »[7] . « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون »[8] .

* * *

ذلك هو التصور الإسلامي .

وهو تصور واسع شامل يشمل حياته كلها بجميع دقائقها وتفصيلاتها .

وهو كذلك تصور متوازن ، لا يشتط في تقدير قيمة من القيم الإنسانية على حساب قيمة أخرى ، ولا ينسى أحد جوانبه ليذكر جانباً آخر .

ومن هذا الشمول والتوازن يمكن أن ينبثق فن « إنساني » رفيع . فن يشمل حياة الإنسان كلها ، باطنها وظاهرها ، ويشملها في عالم الضرورة القاهرة وعالم الأشواق المرفرفة . في عالم « الواقع » وعالم « المثال » . في دنيا الفرد وعالم الجماعة . في لحظة الإنتاج المادي ولحظة الإنتاج العقلي ولحظة الإنتاج الروحي . في لحظة هبوطه ولحظة رفعته . ويكون أكبر فن شهده الإنسان .

---

(٢) سورة الشمس [٧ – ١٠] .
(٢) سورة النساء [٢٨] .
(٣) سورة الحج [٧٨] .
(٥) سورة البقرة [٢٨٦] .
(٥) رواه مسلم .
(٦) سورة آل عمران [١٣٥ – ١٣٦] .
(٧) سورة الفرقان [٦٨ – ٧٠] .
(٨) رواه الترمذي .

الواقعية في التصور الإسلامي

هذا التصور الإسلامي للإنسان – وهو أكمل تصور تعرفه البشرية وأشمل تصور – يفترق دون شك في بعض أجزائه وفي مجموعه النهائي عن كثير من التصورات الأرضية التي سادت من قبل أو تسود اليوم في أكثر بقاع الأرض ، ويصطدم اصطداماً مباشراً مع التصور الغربي الحديث ، الذي تنبثق عنه الفنون السائدة في العالم اليوم .

فالاتجاهات «الواقعية» الحديثة ، على اختلاف ما بينها في الجزئيات ، تتفق كلها في استمداد تصورها من النظرة المادية الحيوانية للإنسان ، القائمة بدورها على الداروينية القديمة [1] .

لقد سيطرت على الغرب فترةً من الوقت موجة من «الرومانتيكية» المحلقة في الخيال ، كانت في حقيقتها هروباً من الواقع السيّئ الذي تعيش فيه شعوب أوربا . هروباً يشبه في بعض مظاهره «الحشيش والأفيون» وغيره من «المغيبات» التي تنسي الإنسان الواقع ، وتحلق به في عالم صناعي خالٍ من المشاكل التي تقلق البال ثم تفيق – إذا أفاقت – على حسرة مرة من أجل الأحلام الحلوة التي لا تتحقق في واقع الأرض !

ولكن هذه الموجة انتهت – كما كان لا بد أن يحدث – لأنها حركة غير طبيعية بالنسبة للإنسان ، الذي لا بد أن يجابه الواقع في النهاية مهما تهرب من مواجهته فترة من الزمان .

وكان رد الفعل هو الحركة «الواقعية» التي ولدت في القرن التاسع عشر وما تزال سارية في هذا القرن العشرين .

وكل رد فعل لحركة متطرفة يجنح بدوره إلى التطرف ، ولا يقف عند نقطة التوازن ، لأنه يحاول – في حركة محمومة – أن يزيل آثار الحركة الأولى ويمحوها من الوجود ! يحاول أن يبعد عنها إلى أقصى ما في طاقته من البعد .. فتكون النتيجة أن يبتعد أيضاً عن نقطة الوسط الموزون .

وقد كانت هذه الواقعية اتجاهاً شاملاً لم يقف عند حدود الأدب والفن ، بل لعلها في الأدب والفن كانت صدى للاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية و «العلمية» التي

---

(١) تمييزاً لها من «الداروينية الحديثة» التي تباعد بين الإنسان والحيوان مع التسلم بالأسس العلمية التي قامت عليها نظرية دارون ، وتركز اهتمامها على الجوانب التي يتفرد بها الإنسان . ومن علمائها المعاصرين جوليان هكسلي .

بدأت تسيطر على الفكر الأوربي منذ القرن التاسع عشر ، وما زالت مسيطرة حتى اليوم .

كان كل شيء يتجه إلى «الواقع» !

كانت هناك حركة انسلاخ كامل من «المُثل» الجوفاء التي كانت مسيطرة من قبل ، والتي كانت تعيش في أبراجها العاجية ، في عالم نظري بحت ، تاركة الواقع البشري المنتن ينغل فيه الدود ؛ الواقع الذي يسوده الفقر والظلم والطغيان والحرمان ، والمذلة المهينة لكرامة البشرية .. بينما هي تحلم بالمثل العليا والتكامل في عالم غير موجود !

وكان المذهب التجريبي في العلم – وهو المذهب الذي انتقل إلى أوربا عن طريق المسلمين في الأندلس كما تقرر المراجع الأوربية (جب – Modern Trends in Islam وبرويفولت Making of Humanity وغيره كثيرون) – كان هذا المذهب قد تغلغل في الفكر الأوربي كله ، فنقله من التجريد النظري المصيب إلى مقاطعة كل ما هو نظري ، وعدم الإيمان إلا بما تؤيده التجربة وتثبت صحته ! أي أنه لم يقف عند نقطة الوسط الموزونة كما كان عند المسلمين ، وكما ينبغي أن يكون ، بل انتقل من تطرف معيب هنا إلى تطرف معيب هناك !

ونشأ على أنقاض المذاهب والاتجاهات النظرية مذهب مادي بحت ، يقول إنه لا حقيقة إلا حقيقة المادة ، ولا موجود إلا ما تدركه الحواس !

وفي تلك الفترة ، وبسبب من هذا الاتجاه ، ولدت النظرية الداروينية في مبدأ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مقررة – إلى جانب الاتجاه المادي – حيوانية الإنسان !

ومن ثم صار التصور «الواقعي» الجديد للحياة الإنسانية ، قائماً على مادية الإنسان ، وحيوانيته كذلك في ذات الوقت !

مادية الإنسان قائمة على إنكار «الروح» .

ففي عرف المذهب المادي – كما أسلفنا – لا توجد حقيقة إلا ما تستطيع الحواس أن تدركه . وما لا تدركه الحواس فهو غير موجود ، أو على الأقل شيء ساقط من الحساب . وإذ كانت الروح شيئاً غير ملموس ، لا تستطيع الحواس أن تدركه ، فلا ضرورة لأن يتعب الإنسان نفسه في الإيمان بها ، وليسقطها من حسابه جملة ، أو فليبقها للتندر بها بين الحين والحين !

وحيوانية الإنسان قائمة – في النظرية الداروينية – على التشابه بين تركيب جسم الإنسان وجسم الحيوان ، ذلك التشابه الذي أوحى لدارون يومئذ بأن الإنسان حلقة من حلقات التطور الحيواني ولا زيادة . وأنه حيوان أصيل في الحيوانية ، لولا «الظروف» و «المصادفات» ما استقام عوده ولا مشى على رجلين اثنتين ، ولا كبر مخه وتعلم الكلام !

والتقت النظرتان على إنكار الجانب الروحي من الإنسان ، الجانب العلوي الذي كان

قائماً على تفرد الإنسان في الخلقة ، ونفخة الله فيه من روحه ، واختصاصه إياه بالعناية ، وتمييزه على غيره من الكائنات .

والتقت النظرتان كذلك على الهبوط بالإنسان من آفاقه العليا إلى آفاق الضرورة الحيوانية المقيدة المحصورة النطاق . بعد أن أزيل عن الإنسان جانبه العلوي الذي كان يصله بالله ، وكان من ثم «يرفعه» عن الحيوان .

وقامت على مادية الإنسان وحيوانيته جملة مذاهب في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وعلم النفس .

قام ماركس وإنجلز يطبقان النظرية الداروينية في الاجتماع والاقتصاد على أساس أن «المادة» هي العنصر المسيطر على الحياة والإنسان . وأن التطور – الاقتصادي والاجتماعي – قوة حتمية لا يد للإنسان فيها ولا حرية له إزاءها . وأن موقف الإنسان من التطور الجبري موقف سلبي . وأن مشاعر الإنسان وأفكاره ومعتقداته لا تساوي شيئاً ، ولا تؤثر في خط سير البشرية لأنها ليست «واقعاً» حقيقياً . إنما الواقع هو المادة والاقتصاد .

يقول ماركس : «في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها **وهي مستقلة عن إرادتهم** .. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة . **ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم** ، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم» .

ويقول فردريك إنجلز : «تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي : وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية **لا يجوز البحث عنها في عقول الناس أو في بحثهم عن الحق والعدل الأزليين** ، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» .

هذا التفسير المادي للتاريخ كان امتداداً ولا شك للتفسير المادي الحيواني للإنسان .

فليس يسعى الإنسان إلى الحق والعدل الأزليين . وإنْ سَعَى إليهما فلا قيمة لذلك ولا عبرة به . وإنما يسعى الإنسان إلى الطعام . وإلى الإنتاج المادي . وأسلوب الإنتاج هو الذي يحدد له وجوده ومشاعره وأفكاره ومُثُله ونظمه وعقائده .. ولا شيء من ذلك كله ثابت ، لأنه لا وجود لقيم ثابتة . وإنما كل شيء «متطور» تبعاً لتطور وسائل الإنتاج ..

وقام فرويد يطبق النظرية الداروينية في علم النفس ، فيقرر حيوانية الإنسان كاملة في التفسير الجنسي للسلوك البشري . «جسم» الإنسان هو حقيقته . والطاقة الجنسية – في نظر فرويد – هي أعظم طاقات الجسم ، ومن ثم فهي المسيطرة على كيان النفس ، وهي المحرك الأول لكيان البشرية .

الجنس هو كل شيء في حياة الإنسان .

الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية . ويحرك عضلاته بلذة جنسية . ويرتبط بأمه بشعور جنسي .. وحين يصطدم هذا الشعور الجنسي نحو الأم بوجود الأب وسيطرته ، يحدث الكبت . تحدث عقدة أوديب . وينشأ معها « الضمير » أو الذات العليا . كما تنشأ القيم العليا كلها . وهي قيم كلها مزيفة ، لأنها تغطية مصطنعة لشعور الجنس المكبوت نحو الأم ! !

وفي السياسة راح قوم من المفكرين يشجعون الاستعمار والسيطرة والتوسع على أساس فكرة الصراع الداروينية وبقاء الأصلح (Survival of the Fittest) قائلين بوجوب سيادة الجنس الأبيض لأنه أصلح للبقاء . كما أخذ اليساريون فكرة الصراع هذه فرسموا على أساسها نظريتهم في الصراع الطبقي ، الذي يؤدي في النهاية إلى سيادة طبقة معينة – هي طبقة البروليتاريا – ومحقها لجميع الطبقات .

وهكذا اتسعت النظرية الداروينية – القائمة على مادية الإنسان وحيوانيته – حتى شملت في الواقع كل اتجاهات الفكر الأوربي وكل مناحي الحياة[1] .

* * *

وكان لا بد أن تصل هذه العدوى إلى الفن في أثناء الطريق .

فالفن – كما قلنا من قبل – هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود ، أو من تصورهم لحقائق الوجود .

وإذ كان هذا هو الإيقاع الذي تلقاه الناس في حسهم في القرن التاسع عشر والعشرين – حيوانية الإنسان وماديته ، وانحصار عالمه في هذه الأرض ، وانقطاع صلته بخالقه ، ونفي النفخة العلوية عنه ، ونفي التفرد والتميز عن عالم الحيوان ، وسلبيته إزاء قوة المادة والاقتصاد الجبريتين ، وعدم جدوى ما يؤمن به من حق وعدل أزليين ، وتبعيته الحتمية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية « المستقلة عن إرادته » ، وعدم ثبات قيمة من القيم التي يؤمن بها ، وسيطرة الدوافع الحيوانية عامة والجنسية خاصة على سلوكه – إذ كان هذا هو الإيقاع الذي تلقاه الناس في حسهم ، فقد كان فنهم بالضرورة هو محاولة التعبير عن هذه الإيقاعات ، ومن ثم كانت « الواقعية » الفنية في القرن التاسع عشر والعشرين !

قامت هذه الواقعية تزعم أنها ستصور الإنسان على « حقيقته » !

لقد سئمت من الصورة المزيفة التي كان يرسمها الفن القديم للإنسان . صورة البطولة الخارقة التي تتمثل فيها الفضائل المثالية التي لا وجود لها في الواقع !

---

(١) انظر بالتفصيل فصل «جولة مع التاريخ» في كتاب «معركة التقاليد» .

أما الواقع فهو هذا « الحيوان » !

الحيوان الذي اكتشفه دارون ، وفسره فرويد والتفسير المادي التاريخ !

الحيوان الذي تحكمه غرائزه – أو دوافعه الفطرية بتعبير علم النفس الحديث – والذي يخفي وراء القشرة المزيفة المصنوعة من النفاق والرياء ، حقيقة قذرة دنيئة خسيسة ، هي جوهره الحقيقي .

أو الحيوان الذي تحكمه أوضاع اجتماعية واقتصادية لا يد له فيها ولا سيطرة له عليها ، وهي التي ترسم له مثله وأفكاره وأخلاقه وتقاليده وطرائق سلوكه وواقع حياته . وهو لا يملك من أمرها شيئاً ، وإنما هو منها كالفرد في القطيع .

أو هذان الحيوانان معاً .. ممتزجين في كيان !

* * *

وانطلقت هذه الواقعية في حماسة محمومة تعمل على تشويه صورة الإنسان وتحطيم بطولته .

البطولة خرافة « إقطاعية » أو خرافة بدائية .. كانت تَفْرِزُ شخصاً معيناً فتبرزه من الصفوف « العادية » وترسم له صورة غير حقيقية من الفضائل الوهمية . لأن ذلك كان عصر « الفرد » الذي لا يحترم كيان « المجموع » ، ويؤمن بأن هذا الفرد كائن قائم بذاته ، غير مستمد كيانه من ذلك المجموع .

والفضيلة المثالية خرافة إقطاعية أو خرافة بدائية .. كانت متأثرة كذلك بنظرية الفرد الممتاز الذي لا وجود له في واقع الحياة .. أو كانت متأثرة بخرافة أخرى اسمها الدين .

وينبغي تحطيم هذه وتلك ..

ينبغي تحطيم البطولة الفذة لأنها إهانة للفرد العادي ! وهذا الفرد العادي بنقائصه وفضائله ، هو البطل الحقيقي الذي يجب أن تسلط عليه الأنوار .

وينبغي تحطيم الفضيلة الفذة لأنها اتهام للفرد العادي بأنه غير فاضل ! أو أنه غير فاضل بما فيه الكفاية ! والفرد العادي – بنقائصه وفضائله – هو المقياس . وهو شخص – في أغلب حالاته – نفعي انتهازي منافق مخادع ضعيف ملتوٍ غير مستقيم . ومن ثم تكون هذه هي فضائل الحياة التي يتصف بها البطل الذي تسلط عليه الأنوار ! [1]

وجن جنون هذه الواقعية المحمومة من صور أبطال التاريخ .. فقامت تحطمها وتشوهها .

الأنبياء والرسل خرافة ! لأنهم يعرضون صوراً نقية بيضاء . والبشرية ينبغي أن تكون ملوثه شائهة !

أو إذا لم يكونوا هم أنفسهم خرافة فلتكن نظافتهم هي الخرافة ! فلنبحث لكل واحد

---

(١) تلك نظرية المذهب «الطبيعي» وهو أحد المذاهب «الواقعية» الحديثة .

منهم عن سقطة أو سقطات . ولنجعلها هي موضع العناية والإبراز ، ونسلط عليها وحدها الأنوار !

وعظماء الأمم خرافة ، لأنهم صور خارقة للمستوى «العادي» للبشر . أو إذا لم نقل إنهم خرافة ، فلنبحث على الأقل عن حياتهم «الخفية» لنستخرج منها شيئاً من القاذورات نثبت به «آدميتهم» .. أي حيوانيتهم !

و «الإنسان» في ذاته خرافة !

لا ينبغي أن يخدعنا بما يدعيه لنفسه من مثل وسبادئ ، واستعلاء وترفع .. فلنهبط معه إلى «أصوله» الحقيقية . إلى دوافعه الفطرية التي تحركه سواء رغب أم لم يرغب ، وشعر أو لم يشعر .. فلنترك الثمار الجنية والأزهار الأريجة والفروع الباسقة والأوراق النضرة .. فذلك كله مظهر زائف . ولنبحث عن الأصل . إنه هناك .. في البذرة الغارقة في الطين !

* * *

البطل في القصة الحديثة هو الشخص العادي – لا الشخص المتميز .

وهو الشخص العادي لا في حالات ارتفاعه ، ولا في جميع حالاته مع التسوية «النزيهة» في إبراز مكامن الضعف ومكامن القوة .. وإنما هو الشخص العادي معروضاً – في الغالب – من نقطة الضعف المسيطرة عليه ، ومرسومة لوحاته من هذه الزاوية وحدها أو بصفة غالبة . مع الحرص على إبراز معنى معين : هو أن ساعات الارتفاع قليلة وعديمة الأثر في واقع الحياة ، وأن الذي يؤثر في خط الحياة فعلاً هو لحظات الضعف الكثيرة المتجمعة في مجموع الأفراد . وأن الشخص الذي يشذ عن هذا الخط – لخلل في نفسه يجعله يؤثر الارتفاع ! – سرعان ما يتحطم ويندم على ما كان منه من شذوذ وغفلة ... ويسير مع القطيع ! أو .. ينتحر !

وهذا كله غير الأدب الجنسي . الذي يصور الحياة كلها شهوة جنس عارمة تبحث عن المتاع المسعور ، والذي تخصص له أدباء كاملون ، من أمثال د. هـ. لورنس ، وهبوا كل طاقتهم الإنتاجية لهذا اللون الدنس من المتاع .. زاعمين أنهم كتاب «واقعيون» ، وأن هذا هو الواقع الحقيقي للإنسان !

* * *

تلك صورة «الواقعية» الحديثة في الفن الغربي والفكر الغربي كله .

وأياً ما كانت الدوافع التي أدت إلى هذا التصور لحقيقة الإنسان والحياة الإنسانية ، فما لا شك فيه أنه تصور منحرف ، لجيل من البشرية مصاب بشتى أنواع الشذوذ النفسي والفكري والروحي ، وشتى أنواع الاختلال في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والاضطراب العنيف في القيم والمعايير .

تَصَوَّرٌ جيل كفّره الواقع السيئ الذي عاش فيه بضعة قرون ، بالقيم والمبادئ العليا كلها ، كما كفره بالله والعقيدة .

جيل علمه هذا الواقع السيئ أن الحياة ضربٌ عشوائي ذات اليمين وذات الشمال ، كل بقدر ما يستطيع أن يضرب ، وكل بقدر ما يستطيع أن ينتهب في زحمة الصراع .

جيل شارد آبق مذهول مصروع .. يسير مختل الخطى وينظر زائغ البصر وتختلط في رأسه الأشياء .

جيل خارج من عبوديات شتى ، فيحس أن « التحرر » من العبودية هو التحطيم الشامل لكل شيء وكل قيمة .. لأن كل شيء وكل قيمة تذكره بقيد العبودية البغيض .. وينتهي – لأنه لم يتحرر حقيقة بعد – إلى أن يستعبد نفسه من جديد .. يستعبد نفسه على الأقل لشهوة الإباق والتحطيم .

وهو فوق ذلك كله جيل مغرور .. فتنته الكشوف العلمية التي وصل إليها ، فظن أنه قد ملك قياد نفسه ، وأنه – ما دام يخترع ويكشف – فلا بد أن يكون كل تفكيره حقيقة ، وكل ما يخطر في باله فهو صواب .

وقد يكون هذا الجيل معذور أو غير معذور .. ولكن تصوراته المنحرفة لا ينبغي أن تكون دستوراً للفكر والحياة البشرية ، كما أن هذيان المحموم – مع العطف عليه – لا ينبغي أن يؤخذ على أنه تفكير سليم .

* * *

والتصور الإسلامي للإنسان والحياة البشرية لا يمكن بحال أن يجاري هذا الانحراف .

إن الإسلام لا ينظر في واقع فرد ، ولا واقع جماعة ، ولا واقع جيل من أجيال البشرية . ولكنه يجعل في حسابه واقع كل فرد وكل جماعة وكل جيل ... ومن ثم لا يأخذ واقع جيل منحرف على أنه واقع البشرية .

والإسلام لا يأخذ واقع فرد ولا واقع جماعة ولا واقع جيل من أجيال البشرية على أنه حقيقة « حتمية » الوقوع ما دامت قد وقعت بالفعل ، ولا على أنه حقيقة « صحيحة » الوجود لمجرد أنها موجودة بالفعل !

إن « الأمر الواقع » لا يفرض نفسه على الإسلام أبداً . فالأمر الواقع قد يكون خطأ من أوله إلى آخره ، فلا يعطيه وقوعهُ « حجّيّةً » ولا أحقيةً في أن يوجد . ويظل مخطئاً ولو بقي ألف عام ! إن مجرد « الوجود » ليس مزية في ذاته بالنسبة للإنسان . وإلا فالذباب موجود . والعناكب السامة موجودة ! وإنما المزية هي الوجود على صواب .. الوجود على مستوى « الإنسان » . وكل « واقع » ينحرف عن مستوى الإنسان فهو خاطئ ، ولا يمكن أن يكون صواباً لمجرد أنه هو الموجود !

والذين يؤمنون بأن ما وقع بالفعل هو الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يقع – لا على أساس المفهوم الديني الذي يقول إنه لا يقع في الوجود إلا ما قدّره الله ، وإنما على أساس حتمية التطور ، التي تجعل الأطوار الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والخلقية أموراً حتمية في طريقة وقوعها وفي أشكالها وقوالبها وترتيبها – أولئك لا يؤمنون في الحقيقة «بالإنسان» وإن تشدقوا بالإنسان وتقدم الإنسان ومكانة الإنسان وإرادة الإنسان وسيطرة الإنسان !

إنهم – أرادوا أم لم يريدوا ، وفطنوا أم لم يفطنوا – يؤمنون بسلبية الإنسان المطلقة إزاء قوى المادة والاقتصاد ، وما يسمونه حتمية التطور .. سلبية لا تملك إلا أن تتعلق في «تروس» الآلة الضخمة الدائرة – آلة الحياة – دون أن يكون لها أن تبطئ حركتها أو تسرعها أو تغير اتجاه الدوران .

إنهم يتبجحون بدعوى «الإنسان» ريثما يخرجونه فقط من كنف الله – سبحانه ! – ثم يلقون به بعد ذلك في طين الأرض تدوسه الأقدام .. أقدام الاقتصاد والمادة والإنتاج المادي .. أو أقدام «الدولة» على أحسن الفروض !

والإنسان في عرف الإسلام خاضع لقدر الله .. نعم . ولا يقع في الكون إلا ما قدره .. نعم [1] . ولكن الإنسان مع سلبيته الكاملة إزاء الله ، إيجابي إزاء كل قوى الكون ، وكل قوى المادة ، وكل قوى الاقتصاد . بل إنه من هذه السلبية ذاتها يستمد إيجابيته إزاء كل القوى المحيطة به ، لأن الله ، الذي هو سلبي إزاءه ، قد سخّر له كل ما في السماوات والأرض : «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه» [2] وجعله عنصراً إيجابياً في الحياة يغير الأمور عن طريقة : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [3] . وعنصراً فعالاً يؤثر فعله في صورة الحياة على وجه الأرض في الشر والخير : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» [4] «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» [5] . وذلك كله لون من «التكريم» الذي عناه الله حين قال : «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ،

---

(١) انظر بعد ذلك «القدر في التصور الإسلامي» .

(٢) سورة الجاثية [١٣] انظر «السلبية والإيجابية» في الجزء الأول من كتاب «منهج التربية الإسلامية» فصل «خطوط متقابلة في النفس البشرية» .

(٣) سورة الرعد [١١] .

(٤) سورة الروم [٤١] .

(٥) سورة البقرة [٢٥١] .

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] .

والمخلوق البشري الذي يعيش في الغرب اليوم لا يريد أن يؤمن بالله . أدركته شقوة تصوراته الوثنية الإغريقية التي تصور الحياة صراعاً بين البشر والآلهة ، هدفه خروج البشر من حكم الآلهة واستقلالهم عنهم في أمور الحياة . وأراد – كالطفل الصغير ، أو كالعبد الآبق – أن يحقق كيانه بأن يبعد عنه اليد التي تسنده ، لأنه يرى هذا السند إهداراً لكيانه الخاص ! يريد أن يقف وحده ويسير وحده ، دون أن يحس بأن أحداً يمنحه القوة ويسنده . يريد أن يقول إن السماوات والأرض ليست مسخرة لأن الله هو الذي سخرها ، ولكن لأنه هو – الإنسان – قد سخرها بعلمه « الذاتي » وقوته الذاتية ...

نعم .. ولكنه لا يخطو خطوة واحدة حتى يقع !

إنه يخطو منتفشاً متبجحاً حتى يخرُجَ – في وهم نفسه – من سلطان الله ونفوذه ومعونته وسنده ووصايته .. ثم .. إذا هو فريسة « لحتميات » لا أول لها ولا آخر ، تحيط به كالأخطبوط ، وتضرب وجهه ضرباً في الرغام ، كلما أراد أن يرفع رأسه عادت تمرغه في الوحل من جديد .

الجبرية الاقتصادية ..

الجبرية المادية ..

الجبرية التاريخية ...

الجبرية الاجتماعية أو « الجماعية » ..

الجبرية النفسية ..

الجبرية السلوكية ..

كلها جبريات يخضع « لقَدَرِها » صاغراً بينما ينتفش انتفاشاً مضحكاً أمام قدر الله !

وتروح « المذاهب » و « العلوم » تعدد ألوان هذا الخضوع المذل للقوى التي تُخْضِعُ الإنسان بحتميتها ، بحيث لا يملك نفسه إزاءها ، حتى يصبح هذا الإنسان هملاً لا كيان له ولا وزن في خط سير الحياة .. ومع ذلك تظل تتبجح هذه المذاهب والعلوم بدعوى الإنسان ! !

ألا أنه مسخ مشوه لا يرضى عنه « إنسان » له كيان !

* * *

والواقعية الإسلامية تختلف عن هذه الواقعية البائسة في نقطتين أساسيتين .

أولاً : طبيعة تصورها للإنسان ، وموقفه من الله والكون والحياة وأخيه الإنسان .

وثانياً : طريقة تسجيلها « للّقطات » البشرية التي تختارها للتعبير الفني .

---

(١) سورة الإسراء [٧٠]

فأما طبيعة تصورها للإنسان فقد تحدثنا عنها فيما سلف بما فيه الكفاية ، ولكننا نلخصها هنا مرة أخرى :

فالإنسان في نظر الإسلام إنسان . لا هو بالحيوان ولا هو بالملاك .

وهو يشتمل على شيء من طبيعة الحيوان ، ولكنه يتصرف فيه بطريقة الإنسان . كما يشتمل على شيء من طبيعة الملاك ، ولكنه يتصرف فيه كذلك بطريقة الإنسان .

مخلوق ليس شراً خالصاً ولا خيراً خالصاً . وإنما فيه الاستعداد للخير والشر ، وفيه القابلية لأن يسير في هذا الطريق أو ذاك : «ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» [1] .

مخلوق هو قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهذه القبضة من طين الأرض تخضعه لضروراتها . ضرورات الطعام والشراب والجنس .. الضرورات الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية ؛ ولكن النفخة من روح الله ترفعه من الخضوع الكامل لهذه الضرورات ، والسلبية المزرية إزاءها ، فتجعله «يتصرف» في هذه الضرورات تصرف المالك لأمره ، الفعال ذي القوة الموجِّه المريد .. وكلها من صفات الله سبحانه التي أودع شيئاً منها في قبضة الطين ، حين نفخ فيها من روحه العلية .

ومن ثم فالتصور الإسلامي – والفن الإسلامي – يصور الإنسان على هذه الصورة المزدوجة التي هي طبيعته الحقيقية . يصوره في لحظات ضعفه ولحظات قوته ، لحظات هبوطه ولحظات رفعته ، اللحظات التي يلصق فيها بطين الأرض ، واللحظات التي يشرق فيها بنور الله .

ولكن ...

وهنا النقطة الثانية التي تختلف فيها واقعية الإسلام عن واقعية الغرب ..

ولكن .. إذا كانت العدسة المصورة الإسلامية تلتقط اللقطات من هنا ومن هناك في أمانة ودقة و «واقعية» : فهي تختلف بعد ذلك في طريقة التوجيه ...

إنها حين تلتقط لحظة الهبوط ، تلتقطها على أنها كذلك .. على أنها لحظة هبوط ! لا على أنها لحظة بطولة تستحق التصفيق والإعجاب !

إن الواقعية الغربية المنحرفة ، الثائرة على المثاليات الفارغة التي كانت سائدة من قبل ، والمحمومة بالرغبة في الانتقام من تلك الصورة الزائفة ، لتتجمع وتحتشد لتبحث عن نقطة الضعف البشري ، وتسلط عليها الأضواء بشدة ، وتسجلها بالتفصيل وكأنها تقول : ها نحن أولاء قد انتصرنا على الزيف السابق . ها نحن أولاء قد انتقمنا من الصورة النظيفة البيضاء ،

---

(١) سورة الشمس [٧ – ١٠] .

التي كان مجرد وجودها اتهاماً لنا بالنقص ، واتهاماً لنا بالهبوط عما يجب أن نكون عليه .. فلنحطم هذه الصورة الزائفة . فلنثبت لأنفسنا أننا – بكل ما نشتمل عليه من هبوط وضعف وخسة – طبيعيون جداً وعاديون جداً وأسوياء جداً .. ها نحن أولاء قد أثبتنا ذلك بالفعل ، بما صورناه من صور الهبوط .. ألا فلنعلن انتصارنا .. فلنعلن انتصار ما نشتمل عليه من سوءات ، بأن نضفي عليه صفة الشرعية . وصفة البطولة !

هذا هو « اللاشعور » الذي يوجه الفن الغربي والواقعية المنحرفة .

إنه يضفي صفة البطولة على لحظة الضعف البشري – المزرية جداً في بعض الأحيان – ليضلل نفسه عن حقيقة هبوطه المزرية . فبدلاً من أن يتهم نفسه أو يتهمه أحد بالنقص ، ويطالب نفسه أو يطالبه أحد بالارتفاع ، وهو لا يريد الارتفاع أو لا يقدر عليه ، لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه .. بدلاً من ذلك يقول إن الارتفاع خرافة والهبوط هو الحقيقة الواقعة السوية التي يقال عنها : « ليس في الإمكان أبدع مما كان ! » .

أما الواقعية الإسلامية فهي لا تنكر أن حالات الهبوط هذه حقيقة واقعة .. ومع ذلك لا تمجدها ولا تسلط عليها الأضواء ، لأنها في حقيقتها لحظات هبوط .

إن الواقعية الإسلامية لا تحب أن ترسم صورة مزورة للبشرية . صورة بيضاء من كل سوء ، نقية من كل شائبة ، سليمة من كل انحراف ! كلا ! فما هكذا يقول القرآن ذاته الذي يدعو للرفعة الدائمة والمحاولة الدائبة للتغلب على الضعف ! إنما يقول : « وخلق الإنسان ضعيفاً [(١)] » ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث [(٢)] » ويقول : « خلق الإنسان من عجل [(٣)] » « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا .. إلا المصلين [(٤)] » « إن الإنسان لظلوم كفار [(٥)] » « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً [(٦)] » « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه [(٧)] » « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات [(٨)] » « ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولا [(٩)] » « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا [(١٠)] »

---

(١) سورة النساء [٢٨] .
(٢) سورة آل عمران [١٤] .
(٣) سورة الأنبياء [٣٧] .
(٤) سورة المعارج [١٩ – ٢٢] .
(٥) سورة إبراهيم [٣٤] .
(٦) سورة الإسراء [٨٣] .
(٧) سورة يونس [١٢] .
(٨) سورة هود [٩ – ١١] .
(٩) سورة الإسراء [١١] .
(١٠) سورة الكهف [٥٤] .

« كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [1] » .

وهي كلها آيات تصور « نقائص » الإنسان تصويراً صادقاً بارعاً عميقاً ، واقعياً إلى أقصى حدود الواقعية ... ولكنها تصورها على وضعها الطبيعي الحقيقي ، وهي أنها نقائص ينبغي أن يرتفع عليها الإنسان . وهنا مفرق الطريق ..

إن الواقعية الإسلامية لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر . ولا تَزْوَرّ عن تصوير هذا الشر في أي تصرف من تصرفات الإنسان . ولكنها تقول عنه إنه شر . وتصوره على أنه خطأ لا ينبغي أن يكون .

ثم مرة أخرى ... لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر . وإنما تعرف أنه خليط من هذا الاستعداد وذاك . وترسمه في هذه اللحظة وتلك . ولكنها لا تسلط الأضواء على لحظة الهبوط ، وإنما على لحظة الإفاقة من ذلك الهبوط ! «والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين [2] » .

* * *

الواقع الإسلامي هو الواقع الكبير .. لا الواقع المحدود الصغير ..

واقع الضرورة القاهرة وواقع الأشواق الطائرة .

كلاهما واقع في حقيقة الإنسان ، فلماذا نجسّم الواقع الهابط ونغفل الواقع الرفيع ؟

هل نأخذ المسألة بالكم ؟ أن ذلك هو الغالب وهذا هو القليل ؟

«الواقع حقيقة ما في ذلك شك .

«ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك .. إنه حقيقة « الإنسانية » ..

«وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة ، ولا تبرر إغفالها من « واقع » الحياة . فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها والإشادة بها ، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور .

«هل كل يوم يزهر النبات ؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح فيها الزهور ؟ ولكن من يقول إن ندرة تلك اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذا العذب والمنظر البهيج ؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات ، ولا تستمتع بذلك

---

(١) سورة العلق [٦ – ٧] .

(٢) سورة آل عمران [١٣٤ – ١٣٦] .

الجمال المتاح ؟ وكم تكسب وهي ترقب الزهور المتفتحة ، وتتطلع إليها في لهفة ، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات ؟

«ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تتلبث ، ولا يتضوع شذاها غير لحظات ؟

«كذلك «زهرات» المشاعر و «ثمرات» النفوس . قليلة . نعم . ولكنها في قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل !

«... وجاء ماركس وصفيّه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد : «إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته» «إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم ، وليست مشاعرهم هي التي تحدد وجودهم .. إن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد الصفة النهائية للمجتمع ، وهي التي تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم» .

«وذلك واقع .. ولكنه واقع صغير !

«والواقع الأكبر الذي أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر في الطعام والكساء والجنس – وهي المطالب الأساسية كما سماها – ولا يمكن أن تنحصر في نطاق المادة . وأن كل ما أنتجته البشرية في تاريخها الطويل ، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد ، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة ، وتعبير عن الواقع البشري الكبير . وأن الاقتصاد قد يكون «أساس» الحياة البشرية ، ولكن الأساس شيء والبنيان شيء آخر . فضلاً عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية في «أساسها» وإنما هي سيكلوجية أو روحية أو فكرية ، لا تقل توجيهاً للناس في حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد .

«أما فرويد وعلم النفس التحليلي كله فيتتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل . ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة في الطين . ثم يقول لك : أنظر ! أليس هذا هو «الواقع» ؟ ألست ترى معي البذرة الغارقة في الطين ؟

«نعم هذه البذرة حقيقة . ولكن من يقول إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان ؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهج الألوان ؟ هل كل ذلك ليس حقيقة ، والحقيقة الواحدة هي البذرة والطين ؟

«... وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة ، ولا إن الفن ينبغي أن يصورهم ملائكة . ولكن الواقعية الحقة ينبغي أن تشمل الواقع الكبير ، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة ، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض ؛ وإنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال ، والكمال .

«صراع الجسد حقيقة . غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة . ضعف

الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة . ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان . والفن ينبغي أن يشمل الواقع كله بلا تمييز .. الواقع الأكبر والأصدق في التصوير .

«ونحن نعني حين ندعو إلى «تطهير» الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط ، أو نلغي تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب . أو نصور الإنسان ملكاً بلا خطايا ولا أخطاء . كلا ! وإنما نعني أن يكون الضوء مركزاً على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة .

« قصة همزات الشياطين لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول . إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة . وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج . ولكنها رويداً رويداً تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة ، تصرعها وتكتم أنفاسها . ويظل المؤلف يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب ، حتى يقع في الخطيئة ويرتكب الفاحشة .. ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة ! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير . إنه يرسم لك لحظة الإفاقة . إنه ينهي القصة بمنظر التوبة . منظر الفتى وهو يتلمس في ظلمة نفسه أضواء المغفرة . ثم يفتح الباب ليدخل منه النور : «كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون» . ثم يتركك والنور مسلط هناك ! »[1] .

* * *

ذلك موقف الواقعية الإسلامية من تصوير «الأبيض» و «الأسود» في النفس الإنسانية . تصوير لحظة القوة ولحظة الضعف .. لحظة الارتفاع على الضرورة ولحظة الوقوع في الضرورة .

أما موقفها من تصوير الصراع الاجتماعي والاقتصادي و «الطبقي» وموقف «الإنسان» من هذه القوى المتصارعة .. فإنه يهتدي بالروح ذاتها التي اهتدى بها في تصوير الأبيض والأسود في نفس الإنسان .

إن التفسير المادي للتاريخ ، بما يضخم من القوى المادية والاقتصادية ويصغر من قوى الإنسان إزاءها ، وبما يصغر من قيمة العقيدة ، وقيمة الأفكار والمثل ، والقيم الخلقية الروحية .. إنه كله حقيقة ! ولكنه حقيقة على المستوى الصغير المحدود ، وليس حقيقة على المستوى الكبير للإنسان !

إنه حقيقةُ هذا الجيل من البشرية في الغرب .. وحقيقة كل جيل يقطع نفسه من سند القوة الكبرى ، فينقذف في التيار ، يسير به إلى مصيره «المحتوم» دون إرادة منه ولا اختيار .

---

(١) من كتاب «في النفس والمجتمع» فصل «فوق الواقع» .

كل جيل من البشرية – وكل فرد – لا يؤمن بالله والعقيدة ، ليس له إلا مصير واحد . هو التضاؤل أمام كل القوى التي لا يعصم منها إلا الإيمان بالله ، ولا يجعلها مسخرة للإنسان بدل أن يكون هو مسخراً لها إلا الإيمان بالله . حين ينقطع الإنسان عن سند القوة الكبرى تأكله الغيلان في الأرض . غيلان الاقتصاد والمادة والمجتمع والدولة .. والآلة .. والقيم المعكوسة .. وحين يرتبط بهذه القوة الكبرى ويستمد قوته منها ، يقف لهذه الغيلان الطاغية فلا يجعلها تنال منه ، أو على الأقل يكون عنصراً إيجابياً في الصراع معها ، ولا يكون ضعيفاً مسلوب الإرادة مقضياً عليه بالخضوع المطلق والتسليم .

وهذا الجيل من البشرية في الغرب قد قطع صلته بالله والعقيدة . لم تعد العقيدة في الله تحكم شيئاً من حياته الواقعة . لا تنظيماته الاقتصادية ولا الاجتماعية ولا السياسية .. ولا سلوكه الفردي ولا الجماعي .. ولا قيمه الخلقية ولا الفكرية .. ومن ثم وقع فريسة للغيلان .

وهو لم يقع فريسة لها لأن هذه هي «حتمية» التطور .. ولكن لأنه وقف يواجهها بلا سلاح . فأخذت ترتطم به وتختبط ، حتى وصّلته إلى ما هو فيه اليوم .. من رأسمالية فردية عاتية في الغرب ، وجماعية طاغية في الشرق . وهو في كلتيهما مستعبد لهذه القوة أو تلك ، لا يملك في نفسه كيان «الإنسان» .

ولكن البشرية لم تكن هكذا أبد الدهر ! على النحو الذي يريد أن يفرضه هواة التفسير المادي للتاريخ على جميع التاريخ !

وإلا فما شأن الإسلام ؟!

أية حتمية هي التي أخرجت الإسلام في الجزيرة العربية في ذلك الوقت من التاريخ وأخرجت الأمة الإسلامية إلى الوجود ؟

شعور العرب بضرورة تجمعهم في أمة ، واحتشاد القوى لهذا التجمع المنشود ؟

فليكن ذلك ..

كم أمة في التاريخ تجمعت .. ثم لم تخرج للإنسانية مثلاً ولا مبادئ ولا عقائد ولا أفكاراً متحققة في عالم الواقع لا في عالم المثال ؟

لقد تجمعت أمم كثيرة في التاريخ من قبل ومن بعد ، واحتشدت طاقاتها لهذا التجمع . فأيها قدم للبشرية من تجمعه ذلك دستور حياة شامل كالذي قدمه الإسلام ؟

وأهم من ذلك .. أين كانت الضرورة «الحتمية» التي أخرجت هذا النظام على صورته تلك ، الفريدة في تاريخ البشرية كله ؟

أين كانت الحتمية في القرن السابع الميلادي ، التي تؤدي إلى ظهور نظام «عالمي» يتحدث إلى الإنسانية كلها ، ويدعوها لمبادئه ومثله ؟ في أي مكان على الأرض ، فضلاً عن شبه الجزيرة الصحراوية البدوية في ذلك الحين ؟

أين كانت الحتمية في القرن السابع الميلادي التي تؤدي إلى توزيع المال بين الناس «كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» ؟ في أي مكان في الأرض فضلاً عن الجزيرة العربية ؟

أين كانت الحتمية في تحرير «الإنسان» من كل عبودية على الأرض ، ليعبد الله وحده ، متحرراً ضميره من الخضوع لأي ثقل مادي أو معنوي يعوّق تحقيق كيانه الأسمى ، وينقص من قيمته كإنسان ؟

أين كانت الحتمية في تحرير المرأة من ظلم الجاهلية وعدوانها وافتئاتها على كيانها ، لتعطيها كياناً إنسانياً يتصل مباشرة بالله ، ويمارس في واقع الأرض حرية الملك وحرية التصرف المباشر والأهلية الكاملة في كل نشاط حيوي نظيف ، وحرية الزواج ، وحرية الشعور بعواطف الإنسان ؟

أين كانت الحتمية في تحرير الرقيق من وضعه السيئ ومنحه كرامة الإنسان ؟ وجعل قانونه الذي يتحاكم إليه هو شريعة الله لا إرادة السيد كما كان الحال مع كل رقيق الأرض في ذلك الزمان .. شأنه شأن الأحرار سواء ؟

أين الحتمية في كل ذلك ، والإسلام هو الذي أعطى هذه الكرامات كلها متطوعاً دون قهر ، ودون أن يطلب أحداً من أصحاب هذه الحقوق حقوقهم ، أو يثور لها ، أو يصطدم بـ «المالكين» لاستخلاصها من أيديهم ؟

وما التغير الذي حدث في وسائل الإنتاج في الجزيرة العربية بل في العالم كله في ذلك الوقت ، فأدى بطريقة حتمية – على رأي ماركس وإنجلز – إلى تلك الثورة التحريرية الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ ؟

كلا ! لا حتميات هناك ، ولا تفسير مادياً للتاريخ !

إنما هو الله – سبحانه – المنعم الوهاب ، وهب للناس هذه الدفعة التحريرية الكبرى ، تفضلاً منه ومنة ، لا عن قهر ولا اضطرار .

وحين وهبها لهم ، وأمدهم بدستورهم الذي يسيرون عليه ، قاموا – بموجب إيمانهم بالله ودستوره – ينشئون هم نظمهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لا مقهورين عليها ، وإنما منشئين لها من واقع إيمانهم ؛ فتنتقل الفكرة الإيمانية من وجدان القلب إلى واقع الأرض ، وتصبح حقيقة واقعة في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، والسلوك الفردي والجماعي ، والسلوك الخلقي ، طليقة من القهر والحتمية ؛ ويصبح الإنسان قوة فاعلة موجهة مريدة ، تنشئ هي الأوضاع ولا تخضع للأوضاع ؛ تضع تفسيرها هي للتاريخ والحياة ، وتلازم بينهما التاريخ والحياة ، ويصبح الإنسان هو قدر الله الذي يفعل في الأرض ما يشاؤه الله .

تلك حقيقة قد حدثت بالفعل ..

حقيقة لا يستطيع أن يفسرها التفسير المادي للتاريخ ، الذي يفسر التاريخ بمعزل عن الله والعقيدة ، و بمعزل عن عالم الروح .

ومن أجل ذلك لا تنفي الفكرة الإسلامية الله من واقع البشرية ، ولا تنفي واقع الروح .

* * *

ومع ذلك فهي لا تصور واقع البشر بعين الخيال الحالم الغافل عن واقع الأشياء .

لا تتصور الناس أبطالاً كلهم يصارعون قوى المادة وقوى الاقتصاد وقوى «التطور» ، فيصرعونها بعصا سحرية اسمها العقيدة .

كلا ! فالإسلام يعرف جيداً واقع الحياة البشرية .

يعرف أن الناس يضعفون عن الصراع لأنه مهمة شاقة ثقيلة عظيمة التكاليف في النفس والمال والمتاع : «لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك . ولكن بعدت عليهم المشقة»[1] «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»[2] «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»[3] .

وليس كل الناس يصبر على هذا البلاء ... كثير منهم يؤثرون السلامة فيخضعون . يخضعون للقوى المسيطرة في المجتمع ، فيلغون كيان أنفسهم ، ويتنازلون عن وجودهم ، ويصبحون هملاً من القطيع .

وحين ذلك يصدق التفسير المادي للتاريخ !

ولكنه — رغم ذلك — لا يصبح ضرورة حتمية !

فليس من الحتم الضروري أن يضعف الناس عن الصراع في كل مرة وفي كل جيل !

والذي يحدث عملياً أنهم يهبّون بين الحين والحين حين يستيقظ في كيانهم كيان «الإنسان» ، ويرتفعون على واقعهم الصغير بكل حتمياته وجبرياته .. ويحققون إنسانيتهم على درجات متفاوتة من الارتفاع .

ثم هم حين يضعفون تكون الحقيقة أنهم هم قد ضعفوا ! ولا تكون الحقيقة أن حتمية التطور قد أنشأت أوضاعاً — على رأي ماركس وإنجلز — مستقلة عن إرادة الإنسان !

إن «الناس» موجودون دائماً في كل حالة .. موجودون على مستواهم الأعلى فينشئون هم أوضاعهم بموجب ما يؤمنون به من عقائد ومثل . أو موجودون على مستواهم الأدنى فتغلبهم الأوضاع وتجرفهم الطريق . ولكن لا يحدث في أية حالة أن يقوم تطور مستقلاً عن

---

(١) سورة التوبة [٤٢] .

(٢) سورة البقرة [١٥٥] .

(٣) سورة محمد [٣١] .

كيان الناس – أين يقوم إذن ؟! – ثم يفرض نفسه فرضاً على الناس بحكم حتميته وجبريته المستقلة عن إرادة الناس ! !

وهذا هو التصوير «الواقعي» لحياة البشرية ..

التصوير الواقعي لكل ما يحدث في حياة البشر من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية . تصوير لا يُغْفِلُ مكان الفرد في حياة البشرية ولا يغفل واقع الجماعة . ولا يَغْفَلُ عن نقط الضعف ونقط القوة في حياة الإنسان ، ولكنه يصورها من منبعها الحقيقي ، من داخل النفس الإنسانية المتفاعلة مع الكون والحياة ، لا مما يسمى «الواقع المادي» الذي يفرض نفسه على الإنسان والحياة .

وهذا هو التكريم الحقيقي للإنسان ، حتى وهو في لحظات ضعفه وعجزه وهبوطه وانجرافه مع التيار . لأنه يصور الواقع من خلال وجوده الإنساني ، ويظلل هذا الواقع بما يعتمل في نفسه من ألوان المشاعر والأفكار .

وهذا هو الخليق بخليفة الله .. التفسير «الإنساني» لحياة الإنسان !

* * *

كلا ! لا يرسم الفن الإسلامي صورة مزورة للبشرية . بل صورة واقعية عميقة الواقعية . صورة تشمل الإنسان كله في جميع حالاته وجميع آفاقه .

ولكنها لا تسلط النور على الشر وتجعل منه فضيلة .

ولا تسلط النور على الضعف وتجعل منه بطولة .

ولا تغفل الجوانب العليا من كيان الإنسان .

ثم هي لا تأخذ واقع جيل معين ، مليء بالشذوذ والانحراف ، جيل طحنته الصراعات الاقتصادية والاجتماعية فأيأسته من نفسه ، وحولته عن الإيمان بما يشتمل عليه من عناصر الرفعة ، ومرغته في الوحل ، وأخضعته لكل ضرورة مذلة .. ثم تقول إن هذا واقع البشرية !

كلا ! إنه واقع جيل معين من أجيال البشرية .

والواقعية الإسلامية على استعداد لأن ترسمه بأمانة كاملة ، بكل ما فيه من نقائص وضعف وخسة وهبوط .. ولكن على هذا الشرط : على أنها نقائص وضعف وخسة وهبوط . لا على أنها الأمر الواقع الذي لا مفر منه ولا أمل في الارتفاع عليه !

إن أمانة الإسلام للبشرية في مجموعها ، بجميع أجيالها ، لهي التي تفرض عليه هذا الموقف إزاء هذا الجيل المنحرف وكل جيل ..

إنها تصور الواقع الحادث .. ولكنها تصوره مقيساً إلى ما ينبغي أن يكون عليه البشر في حياتهم السوية .

و «ما ينبغي» أن يكون عليه البشر ليس صورة خيالية مزورة . فهي تحمل في أطوائها

عناصر ضعفها بجانب عناصر قوتها .. ولكن المهم أنها تحمل عناصر القوة ، وتسلط النور على هذه العناصر ، لأنها هي الحقيقة بالإشادة والتسجيل .

والإسلام يحمل في فكرته وقائعه التي حدثت بالفعل في واقع الأرض .. يحمل صورة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وصورة أبي بكر وعمر وخالد وعلي وعمر بن عبد العزيز .. وصلاح الدين .. وكثيرين غيرهم من « وقائع » التاريخ الإسلامي وبطولاته . يحملهم معه صوراً للواقع الذي يمكن أن يصل إليه البشر بالتوجيه الصحيح .. ويقيس إليهم واقع أي جيل ، ليعطيه وزنه الحق في ميزان القيم البشرية . وبهذا الوزن ذاته يضع الناس في لوحته الفنية .. بحسب ما يستحقون .. بحسب ما يحققون من كيانهم الإنساني ، وما يجاهدون لإثبات رفعة الإنسان وإشراقه ، وإيجابيته الفعالة في هذه الحياة .

وليس معنى الإيجابية الفعالة في التصور الإسلامي أن تنتصر الفضيلة في كل صراع : سواء الفضيلة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الخلقية .. أو ينتصر أصحاب العقيدة المنافحون عنها .. أو ينتصر الخير في أية صورة من صوره .

كلا ! فما هكذا يصور الإسلام الواقع .

فقد ينهزم الخير مرة ومرة ومرة .. ويكون هناك سبب وحكمة في كل مرة .

قد تكون هناك فتنة جائحة تجتاح الحق والباطل : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »(١) .

وقد يكون الله يريد أن يفتن الطغاة البغاة ، فييسر لهم النصر على الحق : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة »(٢) .

وقد يكون الله يريد أن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمكن واستعداد : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »(٣) .

وقد يكون غير ذلك من الأسباب ما يكون .. ولكن التصور الإسلامي يؤمن بأن سنة الله في نصر الحق وأصحابه سنة ماضية لا تتبدل . وإنما أعمار الأفراد ليست هي المقياس . والجولة العارضة ليست هي الجولة الأخيرة .. وواجب « الإنسان » أن يؤدي دوره المطلوب منه في عمره المحدود ، ثم تسير السنة الماضية في طريقها ، ويتحقق النصر في موعده الموعود ، وتظل القلوب في كل جيل معلقة بهذا الوعد لا تيأس من روح الله .

---

(١) سورة الأنفال [٢٥] .

(٢) سورة النحل [٢٥] .

(٣) سورة آل عمران [١٣٩ – ١٤١] .

وهكذا يشمل التصور الإسلامي صفحة البشرية كلها ، في جميع حلقاتها وأجيالها ، مترابطة متشابكة متداخلة في اللوحة الكبيرة ، حية متحركة هادفة صحيحة الدلالة في جميع الحالات .

ومن ثم لا يكون مجاوزاً للواقع وهو يرسم صوره الفنية ، ولا يكون متخذاً مقاييس خيالية يقيس بها الناس والأوضاع والأشياء .

العَواطِف البشَـريّة في التصَوّر الإسْلامي

الجانب الوجداني من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب في موضوع الفنون .

فعنصر «التأثير» هو العنصر البارز في الفن . وأقرب وسائل التأثير هو تصوير الوجدانات البشرية في صورة جميلة موحية تؤثر في الوجدان .

ومع أن الفنون – وخاصة في موجتها «الواقعية» الحاضرة – تتخذ من كل شيء موضوعاً للتعبير الفني ، إلا أن وجدانات البشر ما تزال رغم ذلك هي الموضوع الغالب على الفن في كل لغة وفي كل جيل . وهذا أمر طبيعي بالنسبة للفن . وإلا انقلب علماً أو فلسفة أو أي لون آخر من ألوان التعبير الخارجة عن نطاق الفنون .

ليس الموضوع في ذاته هو الذي يحدد نوع العمل إن كان فنياً أو غير فني ، وإنما الذي يحدده هو طريقة تناول الموضوع . فحين يتناوله الكاتب ببرود الذهن – مهما يكن الذهن صافياً ومشرقاً ولماحاً – فإنه لا يكون فناً – ولو كان موضوعاً متعلقاً بالعاطفة – لأنه يخاطب الذهن وحده ولا يصل إلى الوجدان . وعلى العكس من ذلك يمكن أن يدخل الموضوع في دائرة الفن – ولو كان عن مادة جامدة مغرقة في الجمود – إذا استطاع الكاتب أن ينفعل هو به أولاً ، ثم ينقل ذلك الانفعال بصورة مؤثرة تصل إلى وجدان الآخرين .

والذي ينبغي أن ينقله إلينا الفن في كل موضوع يتناوله هو ذلك الجانب الوجداني الحيّ المنفعل المؤثر .. لا غيره من جوانب الموضوع . ويدع للعلم والفلسفة والبحث الذهني كل جانب تجريدي ، وكل جانب تسجيلي أو إخباري بحت ، لا تدخل فيه «النفس» التي انفعلت به ثم رغبت في نقل انفعالها للآخرين .

ومن ثم فإن المذاهب التي تنحو نحواً علمياً خالصاً في الفن ، فتسجل «الواقع» كما تراه العين الذهنية الباردة ، أو كما تراه «الكاميرا» التي لا يعنيها ما تنقل من الصور ، ولا تنفعل بما تلتقط من الأضواء والظلال ، أو كما يراه المحلل النفساني في المعمل .. حالة تُدْرَسُ لا تجربة شعورية تُعاش وتفرز لها النفس إفرازات شتى وهي تهضمها وتمثلها .. هذه المذاهب تنتج فناً رديئاً مهما يكن فيه من دقة وبراعة وجهد مبذول ، لأنها تنقص العنصر الأول من عناصر الفن : وهو حرارة الوجدان .

وقد كانت مثل هذه المذاهب «الواقعية» و «الطبيعية» وغيرها نكسة في عالم الفن متمشية

مع النكسة الروحية والنفسية الشاملة التي أصابت أوربا في القرنين السابقين ، بسبب نفرتها المحمومة من كل شيء يحلق في الخيال ويتخذ طابع الانفعال لغير المنظور (فيما وراء الطبيعة) ورغبتها المحمومة كذلك في أن تلمس « الواقع » كما « هو » بغير تزويق أو أضواء أو ظلال !

وهي نكسة .. لأنها تلغي واقع « النفس » كله لتثبت فقط واقع « المادة » . الواقع الذي لا تدخل النفس البشرية في تقديره ولا تقويمه ، وإنما تسجله وتقدره « الآلات » العلمية والأدوات ، وتُحَوَّلُ العين البشرية من ثم إلى مجرد آلة علمية للالتقاط والتسجيل ، لا لتبدي رأيها أو تدخل بذاتها في عملية الالتقاط والتسجيل !

وهي نكسة كذلك لأنها تلغي قيمة « الإنسان » وتصغره إلى جانب المادة .. متأثرة بالنظرة المادية الحيوانية للإنسان ، التي لا تجعل له قيمة أعلى من قيمة المادة ، بل بالعكس قيمة أقل ، لأن المادة تؤثر في الإنسان تأثيراً « حتمياً » يخضع له أراد أو لم يرد ، في حين لا يؤثر هو في المادة إلا برضاها ورغبتها ! وحسب قوانينها الذاتية ذات الطابع الحتمي والجبروت !

والفن « الإنساني » ينبغي أن يفيق من هذه النكسة .. ينبغي أن يرد للنفس الإنسانية اعتبارها .. اعتبارها الذاتي بوصفها قيمة كونية كبرى . واعتبارها إزاء المادة بوصفها شيئاً مسخَّراً للإنسان لا مسخِّراً له !!

وحين يُرَدُّ للنفس الإنسانية اعتبارها فإن « القيم » تعود فتتخذ وزنها من خلال النفس . ولا يكون لها واقع إلا واقعها في داخل النفس ..

وهذه حقيقة .. حقيقة ينبغي أن تكون مقررة في الأذهان كالحقائق « العلمية » التي يتعبدها الناس في هذا الزمان . فليس شيء موجوداً أصلاً – بالنسبة للإنسان – إلا إذا وجد في النفس وانفعلت به وتحركت مستجيبة له .

خذ هذا المنظر « الجميل » .. إنك تقول عنه إنه جميل حين ينفعل به حسك ويتحرك له وجدانك . حين « تحس » أنت بوجوده في داخل نفسك . وإلا فهو غير جميل ، أو غير موجود على الإطلاق في عالمك النفسي .

وفي الجانب الآخر ، خذ هذه الفكرة التي تملأ مشاعرك وتحرك وجدانك . إنها « واقع » نفسي ضخم بالنسبة إليك ، تعيشه وتتفاعل معه وتنفعل به . ويؤثر في شعورك وسلوكك وعملك . ومن ثم فهو هو « الواقع » بالنسبة إليك ، ولو لم يبصره أحد غيرك ولم يكن له عند غيرك وجود .

والمسألة – بعد – ليست فوضى ! فلن نعود إلى الفلسفة المثالية الجوفاء التي تنكر الوجود الذاتي للعالم المادي المحسوس ... وإنما هو مجرد رد الاعتبار للنفس الإنسانية ، ورؤية العالم المادي المحسوس – الذي لا شك في وجوده الذاتي – من خلال هذه النفس ، لأنه – في الواقع – لا يؤثر في حياة الناس إلا من خلال تأثرهم النفسي به وتأثرهم الوجداني .. ورد

الاعتبار كذلك للوجدان البشري ، لأن الواقع أنه لا يحدث تغيّر في حياة الناس المادية إلا من خلال الوجود الإنساني الشامل ، بما فيه من طاقات ، وما فيه من رغبات .

* * *

وإذ قررنا قيمة الوجدان البشري في الحياة الإنسانية عامة وفي عالم الفنون خاصة .. نعود إلى الحديث عن الوجدانات البشرية المختلفة ، والمساحة التي تشغلها في رقعة الفن .

إن التناسق في لوحة الحياة البشرية يقتضي أن تكون الوجدانات التي يصورها الفن شاملة لكل العواطف البشرية ، في مختلف حالاتها ومجالاتها ، لا مقصورة على لون معين من ألوان الوجدان . وذلك هو الذي يليق بالواقعية الحقة التي ينبغي أن يمارسها الفن في تصويره للحياة [1] .

ولكن الذي يطلع على الإنتاج العالمي في الفن ، وخاصة الحديث منه ، ويطلع على الأدب العربي المزور الذي يعيش في هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولا قواعد ولا ذاتية مستقلة ولا منهج مرسوم ، يرى أن لوناً واحداً من العواطف البشرية هو الغالب على هذه الفنون كلها .. وهو عواطف الجنس .

وما من شك في أن عواطف الجنس أصيلة عميقة في الكيان البشري ، وأنها طاقة من أكبر الطاقات الموجِّهة لمشاعر الناس وسلوكهم .. ولكن .. من يقول إنها الدافع الأوحد المتفرد بالتأثير والتوجيه ؟

* * *

الجنس – بجميع أحواله وجميع مستوياته – حقيقة عميقة في حياة البشر ، بل في كل كيان الحياة : « سبحان الذي خلق **الأزواج** كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » [2] .

فالأزواج .. الذكر والأنثى .. ليست حقيقة بشرية فقط ، بل هي موجودة أيضاً في عالم الحيوان وعالم النبات . بل يقول العلم الحديث إنها موجودة كذلك في عالم « المادة » في بناء الذرة من بروتون وإلكترون ، متقابلين في الخلقة ، متجاذبين على الدوام ، ليحفظا بناء الخلية « الجامدة » وتوازنها ، كما يحفظ الجنسان توازن الحياة في عالم النبات والحيوان والإنسان .

بل يقول العلم أغرب من ذلك وأعجب : إن في ذرة كل عنصر من العناصر نواة ثابتة في مركزها وعدداً من الإلكترونات يدور حولها في حلقات متوالية الأبعاد بالنسبة لمركز النواة ، وإن الحلقة الأخيرة من هذه الحلقات تكون دائماً ناقصة . فإذا كانت كل حلقة مكونة

---

(١) انظر الكلام عن التناسق في الفصل التالي : « الجمال في التصور الإسلامي » .

(٢) سورة يس [٣٦] .

من ثمانية إلكترونات مثلاً . فقد تكون الحلقة الأخيرة إلكترونين اثنين أو ثلاثة ، وإن أي عنصر لا يتحد كيميائياً إلا مع العنصر الذي يكمل له حلقته الأخيرة الناقصة بحلقته هو الناقصة .. تماماً كما يفعل الأزواج في عالم الأحياء ! !

دقة معجزة في الجامد والحيّ على السواء !

ومع ذلك فالجنس – على كل عمقه في كيان الحياة – ليس هو الحقيقة الوحيدة ولا الحقيقة الغالبة في البناء !

فينبغي أولاً أن نسأل : هل هو وسيلة في كيان الحياة أو غاية ؟ وما مساحته الحقيقية في ذلك الكيان ؟

كل حقائق الحياة تشير إلى أنه وسيلة لا غاية .

فهو في بناء الذرة وسيلة للتماسك . والتماسك هو الغاية . أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر ، هي تكوين الكون كله بما فيه من طاقات وكائنات .

وهو في النبات والحيوان وسيلة لحفظ النوع وحفظ النوع هو الغاية ، أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر ، وهي تنويع الحياة في الكون ، وتحقيق القدرة الخلاقة القادرة .

وهو في الإنسان كذلك وسيلة لحفظ النوع وترقيته ، وليس غاية في ذاته .

كل ما في الأمر أن الإنسان وُهب قوة واعية مدركة ، تجعله يعيش كل أهدافه ووسائله بوعيه ووجدانه جميعاً ، فتتسع مساحتها في نفسه وتتعمق ، وتصبح أكبر من مثيلاتها في عالم الجماد والنبات والحيوان .

ومن ثم يأخذ الجنس مساحة واسعة في النفس الإنسانية لا يأخذها – مثلاً – في عالم لحيوان .

فبينما ينحصر في عالم الحيوان في العملية الجنسية ذاتها ، بمقدمات بسيطة ، عنيفة في غالب الأحيان وفظة ، وينتهي عند الأنثى بالاخصاب والحمل ، وعند الذكر بالصيام الكامل عن كل نشاط جنسي حتى يحل الموسم الجديد .. إذا هو في عالم الإنسان مشاعر كثيرة وعواطف ، وفنون من الغزل ، وألوان من المشاغل .. يدخل فيه شوق الجنس ، ومودة الإلف ، ورغبة القرب ، والتفكير في وسائل الجذب ، والإحساس بالجمال .. كما يدخل فيه التفكير في نتائج اللقاء .. التفكير في الأسرة والأبناء والأعباء .. وتنظيم المجتمع الناشئ من هذه العلاقة ، تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، ووضع القواعد النظرية والوسائل العلمية لهذا التنظيم .

نعم .. يأخذ مساحة واسعة في النفس البشرية . ولكنه في أية حالة من حالاته لا ينقلب – في النفس السوية – عن وضعه الطبيعي . لا ينقلب من كونه وسيلة إلى أن يكون غاية !

ثم إنه – في النفس السوية – لا يأخذ مساحته الواسعة لأنه يطغى على مساحات أخرى

مخصصة لغيره من المشاعر ، ولكن لأن النفس الإنسانية هي هكذا واسعة شاملة فسيحة ، ومن ثم تتسع لكل المشاعر على نطاق واسع ، دون أن يطغى شيء منها على شيء ، ودون أن يختل تناسقها الأخير في صفحة النفس .

ثم إنه – مرة أخرى – حين يأخذ مساحة واسعة في النفس – السوية – لا يفسد تكوينها الطبيعي المترابط . لا ينفصل بذاته عن بقية المشاعر . لا يتحدد ولا يتحيز بوصفه جنساً خالصاً لا علاقة له ببقية النفس . فذلك مستحيل في النفس السوية المترابطة ، التي يلتقي كل جزء فيها بكل جزء وكل هدف ببقية الأهداف . لا تنفصل الروح عن الجسم عن العقل في باطن النفس ، ولا تنفصل الأهداف الاجتماعية عن الأهداف الاقتصادية عن الأهداف الفكرية والروحية والسيكلوجية في واقع الحياة . ومن ثم لا يكون هناك جنس خالص في أية لحظة من لحظات الحياة[1] .

ذلك هو الوضع الحقيقي لمشاعر الجنس .

الوضع الذي لا تفرضه « الأخلاق » ولا يفرضه « الدين » . ولكن تفرضه الحقيقة الواقعة المجردة من كل اعتبار .

و « الواقعية » الصادقة ينبغي أن تعالج الأمر على حقيقته . فهي ليست مأذونة أن تخدع الناس عن الواقع ، أو تتخيله كما يتراءى لها وتصوره على هواها .

نعم : توجد حقيقةٌ « واقعة » في حياة البشر : إنهم كثيراً ما ينحرفون عن طبيعتهم السوية ، فيضخمون جانباً من جوانب وجودهم على حساب بقية العناصر المكونة لهذا الوجود . يضخمون مثلاً جانب الجنس ، حتى يبدو كأنه هدف في ذاته ، وكأنه الشغل الشاغل والهم المقعد المقيم .

نعم . هذه حقيقة . ولكنها حقيقة **منحرفة** . والواقعية الصادقة ينبغي أن تصورها . ولكن تصورها على حقيقتها . على أنها انحراف !

ومع ذلك ففي داخل إطار الجنس ذاته – بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى كلها – لا يكون الجنس لوناً واحداً ولا درجة واحدة .

« هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظامئة ، والعيون التي تطل منها الرغبة المجنونة .

« وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة ، التي تعد العدة في ترتيب وأناة ، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال .

« وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد ، ولكنها تمر في طريقها على القلب ،

---

(١) انظر الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصول « تربية الروح » و« تربية العقل » و« تربية الجسم » .

فيصفيها من بعض ما بها من «العكار» ويعطيها قسطاً من «العاطفة» تمتزج بصيحة الجسد الملهوف .

«وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب ، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد ، فيعطيها بعض لهيبه المحرق ، وقد يخلط بها بعض العكار ، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء .

«وهناك إشراقة الروح الحالمة ، قد صفّيت من العكار كله ، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد ، وإشعاعة لا تعرف القيود . تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه !

«وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ ، ولا يقدر عليها التعبير !

«وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس ، تشترك في الأصل ، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف»[1] .

فأي مبرر من عالم الواقع ، يبرر تصوير مشاعر الجنس كلها على أنها نهم حيواني مسعور ، كذلك الذي يطفح به القصص الحديث في العالم كله ، والقصص العربي الممسوخ المدخول ؟

* * *

والجنس في نظر الإسلام حقيقة مهمة عميقة أصيلة .

وقد مرت بنا الإشارة القرآنية إلى «الأزواج» المكونة لبنية الكون «مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون» . وفي القرآن إشارات أخرى كثيرة تتعلق بحقيقة الجنس : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة»[2] .

وهذا النص يستحق وقفة عند قوله تعالى : «لتسكنوا إليها» وقوله : «مودة ورحمة» .

السكن – بكل ما يوحيه من هدوء وسكون وطمأنينة واستقرار وراحة – هو الهدف من خلق «الأزواج» في عالم الإنسان . إنه ليس مشغلة الفكر والبال . ليس التعب والعذاب والقلق والاضطراب . ليس اللهفة الدائمة التي لا ترتوي والظمأ الذي لا يهدأ . ليس التطلع الدائم الذي يستنفد الطاقة ويورث الخبال . وإنما هو السكَن .. هو الهدوء والراحة .. هو الاستقرار الذي يمكّن الإنسان من تحقيق أهداف حياته ، ويقوّي على أداء هذه الأهداف .

والعلاقة بين الجنسين هي المودة والرحمة .. الرحمة الندية والأنس اللطيف الودود .. في هذا الجو الراضي المشرق الذي يكوّن شِقَّي النفس الواحدة المتوادين المتراحمين : «خلق لكم **من أنفسكم** أزواجاً» .

---

(١) من كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» .

(٢) سورة الروم [٢١] .

وفي نص آخر لون من العلاقة مكمل لذاك : «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»[1] .

«ففي هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن . فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان . وهو الستر الذي يستتر به ، وهو في الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد . والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض : يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تعرف لهما حدود . وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه .

«ثم هما ستر ، كل واحد للآخر . فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة . وهما على الدوام ستر روحي ونفسي . فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنهبه الأفواه والعيون . وهما كذلك وقاية تغني كلاً منهما عن الفاحشة وأعمال السوء ، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير .

«وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد . يلبسه صاحبه فيستريح إليه ، ويتحرك نشيطاً في محيطه ، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين . فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق»[2] .

وفي نص ثالث جانب آخر من هذه العلاقة : «نساؤكم حرث لكم»[3] .

وهنا يذكر الغاية من التزاوج وهي النسل . ويستعير له من عالم النبات صورة الحرث والإنبات ، فهي كلها حياة ذات وشائج قربى بعضها من بعض !

ومن ذلك تكتمل صورة العلاقة بين الزوجين ، الذكر والأنثى ، في تصور الإسلام .

* * *

ولا يغفل الإسلام عما يحدثه التجاذب الفطري بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك . ولكنه يقيسها بمقياسه الدائم الذي يقيس به كل شيء : فما سار مع الناموس ، ناموس الحياة والكون ، فهو صالح وهو صواب . وما خالف هذا الناموس فهو خطأ وهو عمل غير صالح .

إنه لا ينكر الجنس ، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار . لأن منهجه الذي يسير عليه في معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها ، نظيفة وفي معرض النور ، لا مستقذرة ولا مختلسة في الظلام .

---

(١) سورة البقرة [١٨٧] .

(٢) من كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» .

(٣) سورة البقرة [٢٢٣] .

إن الله هو خالق الفطرة ، بكل ما تشتمل عليه من ميول ودوافع وطاقات ، وقد خلقها لحكمة وغاية ، لتؤدي دورها المرسوم لها في بنية الكون ونظامه ، لا لتُكبت ويقطع عليها الطريق .

ولكن الله في الوقت ذاته يطلب من هذه الفطرة أن ترتفع وتتهذب ، لأن هدف الوجود كله – كما يعبّر عنه الإسلام وكما تقرره كل حقائق الوجود – ليس مجرد استمرار الحياة ، ولكن رفعها وتجميلها ، والوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال .

ذلك ناموس الكون الأكبر . وهو كذلك الناموس الذي يقيس به الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان .

فكل شعور صاعد ، وعمل صاعد ، وفكرة صاعدة ... فهي سائرة مع الإسلام في طريقه .

وكل شعور هابط ، وعمل هابط ، وفكرة هابطة .. فهي منحرفة ضالة عن الطريق .

ومشاعر الجنس ككل شيء آخر في الناموس الكبير .

فكل ما يؤدي منها إلى الصعود والرفعة . كل ما يؤدي إلى القوة والتماسك . كل ما يؤدي إلى التوازن . كل ما يؤدي إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس وطلاقة الأرواح .. فهو جميل ، ومباح ، ومطلوب .

وكل ما يؤدي إلى الهبوط والنكسة إلى عالم الحيوان ، والضعف والانحلال والتفكك ، والانحراف الذي يُفقِدُ التوازن ، وغلظ المشاعر وعرامة الشهوة التي تخنق طلاقة الروح .. فهو قبيح ، ومنكر ، وحرام .

وليس ذلك حكماً «خلقياً» بالمعنى الضيق المحدود المتعارف عليه في حدود الأرض وما عليها من الناس . فالأخلاق في الإسلام لا تنحصر في هذه الحدود . وإنما هي أوسع من ذلك جداً وأعمق في بنية الكون . إنها جزء من الناموس الكبير الذي يحكم الكون والحياة ، وليست شيئاً منفصلاً عنه ، ولا مفصلاً على قد الإنسان وحده . فالإنسان ذاته جزء من بنية الكون ، يسير معه على ناموسه الشامل المحيط .

ليست الأخلاق صناعة «محلية» في الأرض ، تحدد الأرض قيمها ومواصفاتها . ولا صناعة «بشرية» تتقلب مقاييسها بتقلب أهواء البشر وأحوالهم وتطور أفكارهم . وإنما هي صناعة كونية فطرها فاطر الكون والحياة والإنسان . وهي تلتقي مع الكون في فطرته الشاملة : فطرة التناسق والتوازن والجمال[1] .

---

(١) انظر الفصل التالي «الجمال في التصور الإسلامي» .

ومشاعر الجنس – ككل شيء في حياة الإنسان – تحكمها الأخلاق الإسلامية بهذا المفهوم الشامل ، المستمد من ناموس الوجود .

فالإسلام لا يسير على نهج خاص في المسائل الجنسية ، وعلى نهج غيره في بقية الأمور . وإنما يسير في المسائل كلها على أساس نظرته الموحدة المتمشية مع الناموس الأكبر .

« إن الله كتب الإحسان **على كل شيء** .. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »(1) !

والإحسان المقصود هنا هو جعل الشيء حسناً ... أي الجمال ... جمال الأداء وجمال الإحساس وجمال الفكير .. الجمال **في كل شيء** ، حتى في ذبح الذبيحة وقتل القتيل(2) .

والإحسان في أمور الجنس ليس إلا واحداً من نواحي الإحسان الكثيرة التي يطلبها الإسلام في القول والفعل والشعور .

وهو حين يشترط النظافة في أمور الجنس ، فكما يشترطها في التعامل المالي ، والتعامل الاجتماعي ، والتعامل السياسي ، والتعامل الدولي ، وتعامل الإنسان مع ربه وتعامله مع نفسه :

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون – إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون – والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون »(3) .

قاعدة واحدة ، تشمل كل شؤون الحياة . النظافة في الفكر والعمل والشعور . نظافة في الصلاة ونظافة في اللسان . ونظافة في المال . ونظافة في الجنس . ونظافة في التعامل مع الناس في رعاية الأمانة وحفظ العهد .. وما نظافة الجنس إلا واحدة من صنوف النظافة التي يجب أن يعيش في جوها المسلم المؤمن الذي يتعامل في حسه مع الله .

* * *

وليس مؤدى ذلك كله تحريم مشاعر الجنس . فهي ليست قذرة في ذاتها حتى تستبعد في مجال النظافات ، وقد مرت بنا الشواهد الكثيرة من الآيات والأحاديث عن نظافة الجنس في حس الإسلام .

وليس مؤداه كذلك ألا يتحدث الإنسان عن الجنس أو يحس به إلا في داخل علاقة

---

(1) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(2) اقرأ فصل «وليرح ذبيحته» في كتاب « قبسات من الرسول » .

(3) سورة المؤمنون [1 – 11] .

الزواج . فالناس لا يولدون متزوجين . وإنما تسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له الطريق .

وهذه «العواطف» ليست حراماً في نظر الإسلام .

عواطف الإعجاب والحب ، وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك .

وإنما الحكم عليها هو الحكم على كل عمل آخر وكل شعور .. الحكم المستمد من الناموس :

هل تؤدي الدور الذي يتفق مع فطرة الكون ؟ أم تنحرف عن الطريق ؟

فأما إن كانت هذه العواطف – وهي فطرية في صميم الخلقة – تهدف إلى تحقيق هدف الحياة ؛ تهدف إلى ارتباط شقّي الإنسانية في علاقة نظيفة مثمرة منتجة ؛ تهدف إلى تقوية كيان كل من الشقين ودفعه في طريق الصعود ... فهي طبيعية ، متمشية مع الناموس . والحديث عنها ووصفها وإبرازها في صورة فنية جميلة موحية ، جزء من مهمة الفن الإسلامي الأصيل .

وأما إن كانت عبثاً .. لا يسعى إلى غايته الطبيعية ، بل يجعل من نفسه غاية مستقلة منفصلة عن كيان الحياة .. فهي ليست جزءاً من مهمة الفن ، لأنها ليست جزءاً من ناموس الحياة .

وناموس الحياة في مسائل الجنس أنه ليس «ضرورة بيولوجية» تقضي على أي وضع ، حتى في عالم النبات والحيوان !

وإلا ففيم كان الجمال ؟

«الجمال فطرة «الطبيعة» . فطرة الحياة التي خلقها الله .

«والحياة لا تكتفي بقضاء الضرورة ، ولكنها تهدف دائماً إلى الإحسان في الأداء .

«أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان ؟

«أتظن أن ذلك «ضرورة» ؟

«قالوا : لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس ! وتساعد كذلك في تلقيح النبات !

«فهل تظن ذلك ؟ هل من «الضرورة» بالقياس إلى النحل أن يكون في الزهرة كل هذا الجمال ؟

«كلا والله ! فالنحل خَلْقٌ متواضع ، وإنه ليحط على الزهرة الأريجة الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال .

«فليس جمال الزهرة إذن ضرورة ! وكل الأهداف «البيولوجية» يمكن أن تتم في أبسط زهرة كما تتم في أجمل الأزهار .

«ورأيت هذه الطبيعة ؟

«رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد ؟

«رأيت روعة الجمال التي تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟

«والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه في الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف .. أو الأشباح ؟

«والليلة القمراء .. هل ذقتها ؟ وذقت طعم السحر في ضوئها ، وظلها ، وأطيافها الساربة وحديثها المهموس ؟

«هل تظن ذلك ضرورة ؟

«وأينت هي الضرورة في ذلك كله ، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال ؟

«ورأيت هذا الوجه ...؟

«هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار .. تلك التقاطيع المنسقة .. هذا المعنى المعبر .. تلك «الروح» التي تطل من وراء القسمات ؟

«تظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟

«أليست كل العمليات «البيولوجية» من طعام وشراب وتنفس تتم في أقبح وجه وأجمل وجه على السواء ؟

«بل .. نداء الجنس ذاته . أليس يتحقق في كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال ؟

«كلا . إنه ليس «ضرورة» وإنما هو «جمال» .

«هو إحسان في الأداء لا مجرد الأداء»[1] .

ومن ثم لا يقبل الإسلام تلك الفكرة المنحرفة التي تقوم عليها «الواقعية» الغربية الحديثة ، فكرة أن الجنس عملية بيولوجية خالصة ، وهدف يتحقق في ذاته بصرف النظر عن أية علاقة وأي ارتباط .

تلك فكرة قائمة على أساس حيوانية الإنسان وماديته .

أما فكرة الإسلام ، فهي آصل في فطرة الكون وأعمق في فطرة الحياة .

* * *

والفن الإسلامي يستطيع أن يتحدث عن المشاعر التي تربط بين الجنسين في هذه الحدود النظيفة .

وتلك قصة موسى مع ابنة الشيخ الصالح مثل لذلك الحديث :

---

(١) من كتاب «قبسات من الرسول» فصل «وليرح ذبيحته» .

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير .. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين . قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ... »[1] .

فهنا عرض لعواطف أنثى نظيفة تجاه رجل . عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته .. ثم أمانته المتمثلة في محافظته عليها وعلى عرضها وهي معه – وحدهما – في الطريق إلى الدار . والفتاة تعبر عن هذه العواطف – على طريقة الأنثى الحيية الخجول – ويفهم أبوها عنها . ويقرها ويزوجها للرجل الذي أعجبت به وعبرت – بطريقتها – عما أحست نحوه من إعجاب . ثم يجيء القرآن فيقر هذه العواطف وهذا السلوك ، فيرويه رواية تقرير وصراحة وإثبات .

وعلى هذا النسق يستطيع الفن الإسلامي أن يتحدث عن كل علاقة حب نظيفة ، لا تنحرف ولا تسف ، وعن أثرها في نفس صاحبيها ، وما تدفع كل واحد منهما إلى إبراز أجمل ما عنده من مشاعر وأعمال ، وما تقوي من عزيمة كليهما وتعينه على تحديد هدفه في الحياة . وما تربطه بالله .

كما يتحدث – في مجال الفن الواسع – عن تقلبات تلك العاطفة بين الشد والجذب ، والإقبال والفتور ، والهدوء والجيشان .. ما دام ذلك كله في حدوده النظيفة الجميلة المضيئة المشرقة .. الجارية على ناموس الحياة .

* * *

ولكنه يستطيع كذلك أن يتحدث عن مجالات الجنس الهابطة المنحرفة عن السبيل .

فـ « الواقعية » تقتضي عرض الأبيض والأسود من باطن النفس وواقع الحياة .

وتلك قصة يوسف :

« ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلّقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال : معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب . وقدت قميصه من دبر . وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ، إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟

---

(١) سورة القصص [٢٣ – ٢٧] .

قال : هي راودتني عن نفسي . وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً . إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : أخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه ، وقطّعن أيديهن . وقلن : حاش لله ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم . قالت : فذلكن الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكوناً من الصاغرين. قال : رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن ، وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم »[1] .

قصة كاملة من قصص الهبوط الجنسي . ودفعة من دفعات العرامة الحسية التي تنسى في ساعة الشهوة الغليظة كل اعتبار .

وصراحة في الوصف والتعبير : وراودته التي هو في بيتها عن نفسه .. وغلّقت الأبواب .. وقالت هيت لك .. ولقد همت به .. قال هي راودتني عن نفسي .. وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. قد شغفها حباً .. فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن .. ولقد رَاوَدْتُه عن نفسه ... ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن .. وإلا تصرف عني كيدهن أصْبُ إليهن ..

ما بقي شيء من الصورة لم يرتسم في الخيال من خلال الألفاظ .

ومع ذلك .

فكيف تجد طعم «الجنس» في هذه القصة التي تتحدث عن هبوط الجنس ؟

هل تجد فيها ذلك العرض الذي يهدف إلى إثارة التلذذ بالجنس والإعجاب بلحظة الهبوط والمتعة بالمشاعر المنحرفة والفطرة الموكوسة ؟

أم تحس — مع جمال العرض ودقته وأمانته وصراحته — بالنفور من تلك الفطرة المنحرفة والتقزز من ذلك الهبوط ؟

ذلك طريق التعبير عن مشاعر الجنس المنحرفة حين يراد التعبير عنها بطريقة الإسلام .

أمانة في الوصف ، بلا إثارة جنسية ولا تلذيذ ولا إفساد .

* * *

وذلك في محيط الجنس المتخصص ..

---

(١) سورة يوسف [٢٢ ـ ٣٤] .

ولكن كم يشمل الجنس من مساحة الوجدان ومساحة الحياة ؟

كم قدره في حقيقة الواقع ، لنقيس مساحته في رقعة الفنون ؟

هل يعيش الإنسان حياته في عالم الجنس وحده ، لا تصطرع في نفسه الدوافع ، ولا تتداخل الانفعالات ، ولا تتعدد الهموم ؟

حتى الفارغون التافهون الذين فرغت حياتهم من الاهتمامات الجادة والأهداف الكبيرة .. حتى هؤلاء لا يقضون حياتهم في مشاعر الجنس وحده ، وإنما تشتجر في نفوسهم رغبات شتى - تافهة نعم ، ولكنها أوسع من عالم الجنس على أي حال !

والإنسان السوي لا يستطيع أن يعيش الحياة بعنصر واحد من نفسه - أياً تكن ضخامته في حسه - ويغفل عناصر وجوده الأخرى ، التي لا بد أن تحقق وجودها في مشاعر نفسه وواقع حياته ما دام يعيش .

فطاقة « الحب » وحدها في النفس - وهي إحدى طاقاتها فحسب - ميدان واسع شامل يفيض بأحاسيس شتى ، كلها معجِب ، وكلها مؤثر ، وكلها جميل .

الحب هو بنية النفس الحية السوية التي تعيش متجاوبة مع حقيقة الوجود .

ولكنه حب شامل .. يشمل كل الوجود .

يشمل علاقة الإنسان بربه . وعلاقته بالكون والحياة .. وعلاقته بكل البشرية ..

والحب الإلهي وحده - وهو أحد ألوان الحب - يمكن أن يستوعب فناً قائماً بذاته ، متكاملاً مستوفياً كل عناصر الفن ، باقياً في صفحة الحياة ما شاء الله له البقاء ..

هذا الحب ، بما يفيض على النفس من أنوار شفافة رائقة ، وبما يوسع من آفاقها حتى تشمل الوجود كله ، وبما يرفع من كيانها حتى تصبح وكأنها نور خالص مشرق متلألئ ، لا تدخله عتامة الجسد ولا ثقلة الطين .. إنه عجيبة من عجائب الأحاسيس البشرية .. وإنه لفي القمة من هذه الأحاسيس .

ومضة واحدة من هذا النور الإلهي تشرق على قلب البشر .. ومضة واحدة في لحظة خاطفة .. تفعل في النفس ما لا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس و« الثقافات » والاطلاعات التي توسع مدارك النفس وتعمق صلاتها بالكون والحياة .

ومضة خاطفة كومضة البرق .. تضيء صفحة الكون كله في باطن النفس .. وتصل الإنسان بكل عمقه واتساعه وشموله ، الذي لا يعيه في أحواله العادية ولا يدرك حقيقة مداه .. تصله بالحقيقة الكبرى الخالدة ، صلة تصل إلى أعماقه ، وتنفذ إلى أبعد ذرات وجوده ، وتمتزج بكل وشيجة حية في النفس ، فإذا هي والنفس شيء واحد ممتزج الكيـان ..

هذه الومضة .. هذه الارتعاشة الوجدانية الواصلة .. هذه الصلة العميقة بحقيقة الوجود .. هذه الانتفاضة المشرقة التي تشع من خلال الطين المعتم فيتلألأ وينير .. هذه الإشراقة الرائقة

التي تضيء للإنسان طريقه بين الأشواك ، أشواك الشر والباطل والظلام .. أو ليست تعبيراً من تعبيرات الحب التي يمارسها الإنسان السوي ، ولو مرة واحدة في حياته المليئة بشتى المشاعر والانفعالات ؟

أو ليست فناً من أروع الفنون . لأنها لحظة من أروع اللحظات ؟

لقد امتلأت نفوس المتصوفة بهذه المشاعر الجميلة الرائقة الشفافة الواصلة .. وهي في صميمها ذخيرة للفن وذخيرة للحياة .. وإن كان قد فات كثيراً من المتصوفة قدرة الأداء الفني عن هذه المشاعر العالية ، لأن الطبائع الفنية لم تتوفر فيهم على المستوى المطلوب للتعبير عن هذا الفن الكبير . ولكنه فن قائم في انتظار الطبائع الموهوبة ، التي تطيق الصعود إلى هذا المرتقى السامق ، وتجيد التعبير عنه في عالم الفنون .

وحب الكون . المتمثل في «الطبيعة» بجبالها وأنهارها ووديانها ، وأرضها وسماواتها ، ونجومها وكواكبها أليس لوناً من ألوان الحب يخطر في نفس الإنسان السوي ويمثل جزءاً من «واقعه» الحي الذي يعيشه في الحياة ؟

وحب الكائنات الحية .. الحب الذي يجد نشوته في التطلع إلى النبتة الصغيرة تشق طريقها من الطين ، والورقة النابتة من البرعم ، والزهرة النابتة من الكمّ ، والثمرة اليانعة .. والتطلع إلى الحيوان الوليد يتبع أمه وأمه تدلله وتحنو عليه ، والحيوان الرشيق يجري مختالاً مزهواً برشاقته ، والحيوان القوي الكاسر الجسور .. والتطلع إلى الطير صافات ويقبضن ، بما لها من ألوان زاهية وحركات رشيقة .. أليس لوناً من ألوان الحب يخطر في النفس ويشغل شيئاً من فراغها ؟

وحب البشرية .. الحب الذي لا يتجه إلى صديق معين ولا صاحب ولا منفعة .. وإنما يشمل الناس جميعاً بمودة لطيفة ، تحب لهم الخير ، وتحس نحوهم بوشائج القربى والأخوة الودود .. أليس لوناً بل ألواناً من الحب ، تفيض بها النفس السوية أحياناً على الأقل ، ولا نقول كل الأحيان ولا غالب الأحيان ؟

أليس هذا الحب كله جديراً بالتسجيل الفني ، وهو واقع له وزنه في الحياة ، بل واقع يستحق التسجيل والإشادة ، لأنه هو الذي يبني الإنسانية على أصولها الصحيحة ، ويعينها على تحقيق كيانها الأسمى المذخور في فطرتها ؟

هل الحب الجنسي وحده – وهو واحد فقط من ألوان الحب – هو الحقيقة الوحيدة في عالم النفس ، والحقيقة الوحيدة الجديرة بالتسجيل ؟!

من يقول ذلك إلا التافهون الفارغون ، الذين لا تتسع نفوسهم لغير مشاعر الحيوان .. وحتى هؤلاء لا تنحصر حياتهم في مشاعر الجنس ؟!

إنه مسخ مشوه هذا الأدب الجنسي الذي تمارسه الفنون الأوربية ، والأدب العربي المزور

الذي يعيش في هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولا طريق مرسوم !

لقد كان الأدب الإغريقي يفسح مجالاً واسعاً لمشاعر الجنس .. وذلك جانب من جوانب اختلالاته الكثيرة – رغم روعته الفائقة وعلو مكانه في المقاييس الفنية – وكانت أوربا وريثة التراث الإغريقي تحافظ على سعة هذا المجال الجنسي في فنونها . ولكنها مع ذلك كانت « معقولة » ، موزونة إلى حد .. حتى ظهر فرويد ، يطبق في عالم النفس النظرة المادية الحيوانية للإنسان ، ويفسر السلوك البشري كله من خلال الجنس . وعندئذ انطلقت الحيوانات المسعورة تلطخ صفحة الفن بحركات السعار الجنسي المنهومة الطائشة ، وتعري الإنسان من كل « ملابسه » الحسية والمعنوية ، لترسمه في لحظة الجنس وحدها ، وترسمه عريان .

ثم يجيء الأدباء المزوَّرون في الإنتاج العربي ، فيقلدون هذا السفه الفنّي الملوّث ، ويملأون إنتاجهم بالسعار المحموم الذي يستعفف عنه الحيوان !

* * *

وهل الحب وحده – بمجالاته الصاعدة والهابطة – هو الوجدان الوحيد الذي تجيش به النفس الإنسانية ؟

ألا تجيش فيها مشاعر الكره .. ومشاعر الصراع ؟

الكره طاقة بشرية مساوية وموازية للحب في الفطرة[1] ، ولها مجالات واسعة في النفس والحياة .

والكره – كالحب – يصعد ويهبط . ويكون خيّراً مرة وشريراً مرة ، بحسب ما يتوجه إليه .

فالكره الذي يتوجه به الإنسان نحو الفساد في الأرض ، نحو الشر المنبث في الأحياء ، نحو الظلم والطغيان والانحراف ، هو كره نبيل كالحب النبيل ، وواسع شامل يشمل كل أمور الحياة .

والكره الذي يتحول في نفس صاحبه إلى كراهية الخير للناس ، والحقد عليهم ، وكراهية كل شيء جميل ، وكراهية الاستقامة والنظافة والصعود والترفع .. هو كره هابط منحرف شائه مريض .

والحياة تعرف في واقعها ألواناً من هذا الكره ومن ذاك . وأياً تكن نسبة أحدهما الغالبة ، فالكره وجدان له وزنه وثقله في واقع النفوس وواقع الحياة . والتعبير الواقعي الصادق عن الحياة لا بد أن يفسح مجالاً لتصوير مشاعر الكره ، واشتباكاتها في النفوس ، وتأثيرها في أعمال الناس وسلوكهم ومشاعرهم . وإلا فهو تعبير ناقص مبتور .

* * *

---

(١) انظر فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » في الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

والصراع ...

إن الصراع يكاد يشمل كل الحياة البشرية !

يصارع الإنسان في داخل نفسه نوازعه ودوافعه المتداخلة المتعارضة التي لا يمكن الاستجابة لها كلها في وقت واحد ، إلا أن تُضبط وتنظم ، وتحدد «أولويتها» في المرور !

ويصارع غيره في الحياة .. يصارع الناس والأشياء .. والتنظيمات والنظم .. والقيم والقوى والتيارات !

ولا يمكن أن تخلو حياته لحظة واحدة من الصراع !

والصراع – كالحب والكره – يهبط ويصعد ، ويكون في سبيل الخير كما يكون في سبيل الشر .

الصراع الخيّر يقاوم في داخل النفس رغباتها المنحرفة ، وميلها إلى الشر ، وسعيها إلى الفساد . والنفس لا بد لها من توجيه دائم وتقويم ، وإلا فإنها إن تركت وشأنها هبطت بها ثقلة الطين ، وانفصلت عن إشراقه الروح . « إن النفس لأمارة بالسوء »[1] بالجانب الأدنى من فطرتها ، ما لم يتدخل الجانب الأرفع من هذه الفطرة ليردها عن ذلك السوء ويأمرها في طريق الخير .

ويقاوم في المجتمع مختلف أنواع الشرور .

يقاوم الظلم بجميع أنواعه وألوانه ، الظلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي والظلم السياسي يقاوم تفريق الناس إلى سادة وعبيد .. سادة يملكون كل شيء وعبيد لا يملكون إلا الذل والهوان والحرمان .

ويقاوم القيم الفاسدة التي تستعبد الناس وتغلّهم عن تحقيق كيانهم الإنساني الصحيح . يقاوم العبودية للمال أو الجاه أو السلطان .. أو الشهوات . فكلها عبوديات يرسف الإنسان في أغلالها فلا ينطلق إلى آفاقه العليا الجديرة بكيان الإنسان .

ويقاوم التصورات الفاسدة التي تقلب نظرة الإنسان لنفسه ونظرته للحياة والكون ونظرته إلى الله ..

تقلب نظرته إلى نفسه فلا يراها في محيطها الشامل ولا يقدر طاقاتها حق قدرها ، فينحصر بها في نطاق ضيق ، ويبرز بعض جوانبها ليحجب بها البعض الآخر ، ويغفل عن تكاملها وشمولها وارتباطها بعضها ببعض .

وتقلب نظرته للحياة والكون فلا يتوجه لهما بالحب ، أو لا يحس لهما وجوداً على الإطلاق ، فتنحصر نفسه في حدود وجوده الضيق المغلق المنقطع عن الأحياء ، ويورثه

---

(١) سورة يوسف [٥٣] .

ذلك – فوق ضيق الأفق – أنانية مريضة متعفنة يشمئز منها الكيان السليم .

ويقلب نظرته إلى الله ، فلا يحس نحوه بالحب ، ولا يتوجه له بالعبودية المحبة الخاشعة المتطلعة ، المطمئنة إلى قدره ، المسلمة كيانها له ، المستمدة من هذا التسليم قوة وإيجابية في واقع الحياة . ولا تدرك « الحق » المتمثل في الله سبحانه وفي كل ما خلق من الأشياء ، والمتمثل في وجود الناس في الحياة الدنيا ووجودهم في الآخرة في دار الجزاء ..

والصراع الشرير يتوجه إلى العكس .

يكبت في داخل النفس نوازع الخير الفطرية ويسكت صيحة الضمير .

ويقاوم في المجتمع كل نزعة إلى الخير .

يقاوم الحق والعدل الأزليين . ويحارب الله ورسوله ويسعى بالفساد في الأرض .

ويؤيد الباطل ويمكّن له .

يؤيد الظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . يؤيد تفريق الناس إلى سادة وعبيد .

ويؤيد القيم الفاسدة ويفسح لها المجال .

وينشئ التصورات الفاسدة وينشرها بين الناس .

ويشيع الفاحشة ويدعو لها ويحببها للراغبين .

ويفسد علاقة الناس بالله والكون والحياة .

وهذا الصراع في اتجاهاته هذه وتلك واقع من أكبر الوقائع في الحياة البشرية .

ولحكمة عليا أوجده الله في الأرض : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1] .

فلولا الشر الموجود في الأرض ، ومصارعة الخير له ، لركد الخير وأسن وتعفن ، أو ترهل وضعف ولم تعد له إيجابية حقيقية في الحياة وهذا الدفع الذي يدفع الله به الناس بعضهم ببعض ، هو الذي يحيي الخير ويقويه وينشطه ويدفعه إلى العمل الإيجابي المنتج ، فلا تفسد الأرض .

وإدراك هذه الحكمة العليا قمين بأن يفتح بصيرة الإنسان على مساحة واسعة من الحياة والكون ، ويجعلها تدرك ارتباطات أكبر وأعمق وأشمل من جزئيات الحياة الصغيرة المتناثرة ، التي قد تسجلها « العين الآلية » التي تستخدمها بعض الفنون الواقعية والطبيعية مكتفية بها عن جمال تلك الارتباطات وتناسقها وتوازنها ، وحكمتها البعيدة العميقة التي تمنح الحياة حركة وجمالاً وتكاملاً ، تفقدها ولا شك الصورة الجزئية المفرَّقة ، مهما كان فيها من جمال العرض أو دقة التصوير أو براعة الأداء .

---

(١) سورة البقرة [٢٥١] .

وهذا الصراع كله بجميع ألوانه ، سواء في باطن النفس أو واقع المجتمع ، أو واقع الحياة كلها بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد .. مجال واسع للتعبير الفني ، ذو مساحة واسعة تتضاءل بجانبها الفنون الجنسية كلها وتنزوي في ركن من الصورة صغير !

وقد اتجهت بعض المذاهب الحديثة في الفن إلى هذا الصراع فتخصصت فيه وحده .. بل قصرته على جانب واحد منه هو الصراع الطبقي أو الصراع الاقتصادي على أي حال .

وذلك اختلال في الصورة من جانب آخر .

فليس معنى اهتمامنا بتصوير حقيقة الصراع أن نلغي بجانبها ما يعتمل في النفس من وجدانات أخرى أهمها وجدان الحب الواسع الشامل العميق . وهذا فضلاً عن حصر مجال الصراع في هذا النطاق الضيق الذي يخنق الأنفاس !

كله اختلال !

لماذا لا نصور حقيقة الواقع إن كنا نريد أن نكون واقعيين ؟

لقد كان التفسير المادي للتاريخ محنة الفكر الأوربي في العصر الحديث !

وقد ظل هذا التفسير يهبط بالحياة الإنسانية ويضيّق مجالاتها حتى حصرها في نطاق الاقتصاد والمادة ، ثم حصرها في الصراع الطبقي ، ثم حصرها في « الحتمية » الاقتصادية التي تلغي وجود الإنسان !

وكانت النتيجة أن الفنون التي التزمت بهذا التفسير ، أصبحت خالية من الوجود الحقيقي للإنسان !

لا عواطفه ولا انفعالاته ولا اهتماماته ولا سبحات روحه ولا تأملات فكره ولا حتى نوازع جسده وأشواقه لها حساب في ذلك الفن .. فيما عدا الصراع الطبقي الاقتصادي الدائر في دائرة حتمية « مستقلة عن إرادة الإنسان » !

عالم كريه يتقزز منه الكيان السليم للإنسان .

وما بنا من اعتراض على تصوير الصراع الاقتصادي والصراع الطبقي . فهو حقيقة من حقائق البشرية في هذا الجيل أو في أي جيل .. ولكننا نقول فيه شبيهاً بما قلنا من قبل عن فنون الجنس .

نقول فيه إنه ينبغي أن يأخذ مكانه الحق ولا زيادة .. ولا يطغى على الصورة فيلونها بلونه المحدود .

ونقول فيه إنه ينبغي أن يؤخذ على مستوى « الإنسان » لا على مستوى الحيوان ولا مستوى الآلات !

وحين يلتزم هذه الشروط يصبح فناً « إنسانياً » جميلاً خليقاً بأن يأخذ مكانه الحق في لوحة الفنون .

* * *

والفن الإسلامي المنبثق من تصور الإسلام الواسع الشامل للكون والحياة والإنسان ، يفسح المجال للوجدانات البشرية كلها من محبة وكراهية وصراع . ويفسح المجال لمشاعر الجنس ، وصور الصراع الاقتصادي والاجتماعي ، ولكنه يضعهما في موضعهما من الصورة ، ليرسم في بقية اللوحة مشاعر الحب الكبرى ومجالات الصراع الأكبر . فيكون أكثر واقعية من تلك الفنون الواقعية الصغيرة المحدودة ، ويكون أصدق تعبيراً عن حقيقة الحياة العميقة الشاملة ، وأجمل تصويراً للحياة من سائر الفنون .

الجمال في التصوّر الإسلامي

الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود .. إن لم تكن أبرز سماته .

والحس البصير المتفتح يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء ..

كيف يدركه ؟ كيف يحس به ويقدره ؟

هل ثمت « جهاز » في داخل النفس ، يحسب المقاييس والأبعاد ، والأضواء والظلال ، والخطوط والألوان ... ثم يخرج من حسبته بأ ٠ هذا جميل وذاك خاوٍ من الجمال ؟

لا شك أن هناك حاسة في باطن النفس تمطن للجمال وتحسه وتستجيب له . ولكنها لا تَحْسِبُ ولا تقدر . وإنما تدركه بداهة بغير تفكير .. على طريقة الروح في الإدراك لا على طريقة الذهن ذي الأبعاد والمقاييس .

وقد يتدخل الذهن في « تقويم » الجمال ، ووضع شروط له ومقاييس . ولكنه ليس هو الذي يقدّر في الحقيقة . فهو حين يقوم بوضع الشروط والمقاييس يستمدها في الحقيقة من البداهة الطليقة التي تدرك الجمال لأول وهلة ودون تفكير .

وتلك من عجائب الله المعجزة في خلقة هذا الكائن البشري .. أن يهب له هذه الموهبة الفذة ؛ التي تتجاوب مع روح الكون العميقة تجاوباً مباشراً ، كما تخفق العين للضوء ، وتخفق الأذن للأصوات !

لمحة .. مجرد لمحة .. فإذا الجمال منطبع في الحس ، وإذا النفس تتحرك لاستقباله في فرح وسرور . وكأن روح الإنسان وروح الكون شقيقان متعارفان ، حيثما تلاقيا هش كل منهما للآخر ، والتقيا في عناق طويل !

« فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

وإذ كانت البديهة هي الموكلة بالجمال – لا الذهن – فمن العسير أن توضع له القواعد الحاسمة وترسم له الحدود القاطعة ، كالقضايا الذهنية أو الفلسفية الخالصة . وحين يتعرض الذهن للجمال ، فهو – كما قلنا – يستمد مقاييسه من البداهة ، فلا تجيء هذه المقاييس ذهنية خالصة ، ولا تجيء قاطعة حاسمة كالحقائق الرياضية ؛ ومع ذلك فمن الممكن – في

---

(١) سورة المؤمنون [١٤] .

العموميات على الأقل – أن نصدر أحكاماً شاملة ونضع قواعد عامة ، تيسر لنا الحكم في قضايا الجمال ، وإن كانت لا تكفي – وحدها – للحكم على كل حالة مفردة ، حيث لا بد من استخدام البداهة التي تتذوق الجمال !

وعلى أي حال فما دمنا « نتحدث » عن الجمال ، ونَصِفُهُ – وهو أمر غير الإحساس المباشر به – فلا مناص لنا من استخدام لغة الذهن وبعض مقاييسه ، لكي « نتفاهم » على أوصاف هذا الجمال .

* * *

وأول ما يلفت الحس في الجمال أنه ليس « ضرورة » .. وإنما هو عنصر زائد عن الضرورة .

والكون الواسع الذي لا يدرك الحس البشري أوله وآخره ، مهما أتيح له من وسائل الرؤية ووسائل النفاذ إلى الأبعاد .. الكون الذي تبعد بعض نجومه عنا بملايين السنين الضوئية .. أي ملايين الملايين من الأميال .. وهو مع ذلك « معنا » في وجود واحد ! .. الكون الذي يشمل من العجائب والموافقات ما لا يحلم به خيال بشر ولو رصد خياله لتصور العجائب والموافقات ..

هذا الكون لا يعلم سره سوى خالقه . لم خلق ؟ كيف خلق ؟ متى خلق ؟ كم يظل قائماً ؟ كيف يصير حاله غداً بعد آماد متطاولة من الزمان ؟

لا يعلم البشر شيئاً من ذلك وإن عرفوا – فيما تكشف لهم العلوم عنه – بعض أسرار تركيب الكون وبعض أسرار طاقاته .

ولكن شيئاً ما ، في بنية هذا الكون ، يلفت الحس حين يتوجه إليه مستطلعاً متفتحاً لما وراء المواد والأشكال : أنه طليق من الضرورة .

فما الضرورة في خلق هذا الكون الواسع العريض ؟!

« إن الله لغني عن العالمين »[1] وليس في « حاجة » إلى هذا الخلق كله من جوامد وأحياء .

إنما الكون صادر عن إرادة الله الحرة الطليقة التي لا تخضع للحاجة ولا الضرورة ولا القيود.

وهو خاضع لناموس ينظم حركته ودورانه ، وينسق عناصره وطاقاته . ولكن ذلك الناموس « نظام » وليس « ضرورة » ! .. وإلا فليس هو النظام الوحيد الذي كان يمكن أن يكون عليه الكون . وثمت موافقات « رياضية » شتى ؛ ملايين الملايين من الموافقات ؛ كان يمكن أن تكون نظاماً لهذا الكون لو أرادها الله الخالق المبدع المريد ، الفعال لما يريد .

فهو قد خلقه من غير ضرورة قاهرة .

---

(١) سورة العنكبوت [٦] .

وأعطاه نظامه عن غير ضرورة مقيِّدة لحريته سبحانه .

وهذا « النظام » الذي ليس « ضرورة » عنصر ولا شك من عناصر الجمال في الكون ، إن لم يكن هو ذاته الجمال .

والإنسان خليفة الله في الأرض .. الخليفة الذي كرمه الله وفضله ، ووعّاه وعلمه ، وزوده بمختلف الطاقات .

وهو بهذه الخلافة وهذا التكريم ، أجدر مخلوقات الله أن يدرك الجمال في حقيقته الجوهريّة التي خلقه بها الله .

وقد لا يدرك الإنسان بذهنه كل أسرار الكون ، ولا يصل إلى حقيقة جوهره لو أخذ يدرسه من الظاهر ، ويتابع حركته الظاهرة للحس . ولكنه حين تتصل روحه بالله ، قمين بأن يصل .. وهو الذرة الفانية الزائلة .. إلى حقيقة الوجود كله .. حقيقة الأزل والأبد التي ليست لها نهاية ولا بدء ، ولا زمان ولا مكان . ذلك حين يرى الله .

والله يدعو خلقه أن يبحثوا عنه في صفحة الكون الواسع .. وأن يتصلوا به ويجدوه ..

« إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »[1] .

* * *

وأول ما يلفت الحس في الجمال كما أسلفنا أنه « نظام » ولكنه ليس « ضرورة » ..

ولهذا النظام – كما يبدو في صفحة الكون – مظاهر متعددة ، منها الدقة . والتناسق . والتوازن . والترابط . وخفة الحركة رغم ثقلة الأوزان .

الدقة العجيبة المذهلة التي لا تختل قيد شعرة في هذا الفضاء العريض .. الدقة المضبوطة لا باليوم ولا بالساعة ، ولا بالدقيقة ، ولا بالثانية ، ولا بالثالثة .. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع ! الذي ينطلق بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية !

فهذا الكون الذي يشتمل على بلايين البلايين من النجوم ، كلها متحركة لا تفتر عن الحركة لحظة واحدة منذ الأزل السحيق الذي لا يدرك عقل البشرية مداه .. هذا الكون لا يصطدم فيه نجم واحد بنجم ، ولا يحدث الخطأ في مدارٍ واحد من مداراته التي تعد بالبلايين .

وتلك دقة معجزة لا يقدر عليها غير مبدع الكون ، الواحد المفرد الذي ليس له شريك .

وهي دقة جميلة بلا شك .. تبده الحس وتهزه من الأعماق .

---

(١) سورة البقرة [١٦٤] .

والتناسق الذي يبدو جانب صغير منه في مجموعتنا الشمسية بتركيبها الدقيق ، والذي ينشأ عنه في أرضنا نهار وليل ، وضوء وظل ، وشتاء وصيف ، وخريف وربيع ، وحر وزمهرير ، ومد وجزر ... ويبدو جانب منه أكبر في منظر السماوات بما تشتمل عليه من نجوم ذات أبعاد مختلفة وأحجام ، وذات درجات مختلفة من الإشراق واللمعان ، وذات مجموعات متآلفة تتحرك بكامل أفرادها في الفضاء العريض .

والتوازن .. الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض – إلا بإذنه .. هذه الأجرام المذهلة الجرم والوزن ، التي يعجز العقل عن تصور وزن أبسطها وأصغرها ، إلا أرقاماً على الأوراق .. معلقة في الفضاء بغير عمد ، موزونة الحركة ، تدور في مدارها المرسوم ، لا تهتز عنه ولا تخرج على نظامه .. ولو خرجت قيد أنملة لاختل توازنها وانساحت في الفضاء المذهل الرهيب .

والترابط .. الذي يمسك تلك الأجرام بعضها ببعض ، برباط وثيق يقول العلم إنه الجاذبية ، ويقول الحس إنه قدرة الله في أي ثوب من أثوابها وأي شكل من الأشكال . ترابط فإذا كلها – وهي البلايين التي يعجز عنها الحصر ، في فضاء يعجز عنه التصور – أسرة واحدة متكافلة ، فيها الصغير والكبير ، والشباب والشيوخ ، والخامد والمشتعل .. يجذب بعضهم البعض ويحمل بعضهم البعض ، في تناسق وتوافق ، فلا يقع منهم أحد ، سواء الطفل الصغير والشيخ الكبير ، وإنما يدورون دورتهم الهائلة متماسكين بأيدٍ خفية لا تبين ، يوصوص بعضهم إلى بعض كما تخفق عيون الأحبة بالمحبة والحنين .

وخفة الحركة .. التي تبدو في تلك الأجرام الهائلة التي يعجز الخيال نفسه عن تصور كتلتها وثقلها لو قيس بمقاييس الأرض ، تتحرك منطلقة في الفضاء بسرعات مذهلة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء » .. وحين استطاع الإنسان أن يطلق قذيفة وزنها أقل من الهباءة المنثورة بالنسبة لتلك الأجرام ، بسرعة من أبسط السرعات الكونية ، أدركته نشوة أخرجته من كيانه وأصابته بالذهول !

وهي حركة تتيحها لهذه الأجرام الثقيلة الماردة أنها في حقيقتها عبارة عن طاقة . طاقة متلبسة في المادة . طاقة متحركة في صميمها . متحركة حتى أعمق أعماقها . في أبسط مكوّناتها المعروفة حتى اليوم . في الذرة الضئيلة التي لا يدركها الحس إلا حين يفرغ ما فيها من الطاقة فإذا هو مذهل عظيم .

* * *

تلك سمات الجمال في الكون .. وهي ذاتها سمات الجمال في هذه الأرض وفي حياة الإنسان ! « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » [1] .

---

(١) سورة الملك [٣] .

الأرض بما فيها من جبال ووديان ، ومحيطات وبحار ، وجداول وأنهار .. وما في جوها من أبخرة وسحب وأمطار .. وما عليها من نبات وحيوان وطير وإنسان .. جميلة كلها بديعة الجمال .

هذه النقطة من الطل المتلألئة في ضوء الشمس ..

هذا البرعم المتفتح تنطلق منه الحياة ..

هذه الورقة النابتة كالطفلة الوديعة تهتز للنسمة الخافقة كما تهتز الطفلة بكل تجربة جديدة في الحياة ..

هذه الريشة البديعة في جناح الطائر ، منسقة الألوان دقيقة التركيب ..

هذا الفرخ الناقف من البيضة ، جميلاً في ضعفه ، لطيفاً في سذاجته ..

هذه الأضواء والظلال تقصر وتمتد في حركة دءوب ..

هذا الجدول الرقراق .. والنهر المتدفق .. والبحر المتلاطم .. والخضم الموّار .

هذه الهدأة في الليل الساكن الغافي النعسان ..

والصبح إذا تنفس من هدأته ، وتنفست معه الأحياء ..

كلها .. كلها جميلة بديعة الجمال ..

وكلها جارية على ناموس الجمال في الكون الكبير ..

الدقة . والتناسق . والتوازن . والترابط . والحركة والانطلاق ..

الدقة التي تبدو في كل شيء .. في مطلع الصبح ومغرب الشمس – بالنسبة للأرض – في موعد مضبوط شديد الانضباط ، يحسب بأدق آلات الحساب البشرية فيفوقها في دقة الميعاد . كما تبدو في لون الزهرة الصغيرة المتعددة الألوان التي تعجز الريشة الدقيقة عن محاكاتها بهذه الدقة المعجزة ، بينما تنبت هي في سهولة ويسر ، حاملة ألوانها على «السليقة» بلا كد ولا إرهاق . كما تبدو في ريشة الطائر البديعة التي تحمل المئات من الريش المفرد بل الألوف ، كل في مكانه على وجه الدقة ، مرتب كأنما رتبته يد ماهرة ، وكل يحمل نصيبه من اللون الذي يتكامل في الريشة الكاملة بمنظر بهيج . كما تبدو في الخلية التي لا تكاد ترى ، وهي جهاز حيّ متحرك يحمل كل مقومات وجوده ؛ وفي عدد الكروموسومات التي تحملها – بعدد مضبوط لا يخطئ – وعدد الجينات حاملات الصفات الوراثية ، الدقيقة إلى أبعد حدود الوصف . كما تبدو في عدد كرات الدم وعدد خفقات القلب وعدد مرات التنفس وعدد درجات الحرارة الخاصة بكل مخلوق على هذه الأرض .. الخ .. الخ ...

والتناسق الذي يبدو في توزيع الألوان والظلال والأضواء والكائنات في رقعة البسيطة .. بصورة تلفت الحس وتستريح لها العين وتهش لها النفس وتهدأ لها الأعصاب .

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد

بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك »[١] .

« أ تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً »[٢] .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »[٣] .

« أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون »[٤] .

الخ .. الخ ..

والتوازن الذي يبدو في اتزان حركة الأرض وثباتها ، وفي عدم طغيان ما عليها من الخلائق بعضها على بعض ، كلٌّ له قدره الموزون الذي يكفيه لأداء دوره على الأرض كما أراده خالقه :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون »[٥] .

والإشارة إلى الوزن – أو التوازن – هنا إشارة عجيبة ، تثير في الحس اليقظة لهذه الصفة التي يتسم بها خلق الأرض كلها وما عليها ، كما تصل الحس المتفتح بالله مباشرة ، خالق هذا « الكل شيء » الموزون .

« خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم »[٦] .

« وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها »[٧] .

الخ .. الخ ..

والترابط .. الذي يبدو في اجتماع هذه الخلائق على أصل واحد ، ومصير واحد ، واشتراكها في نشاط واحد يربط بينها جميعاً .

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير »[٨] .

فهنا ارتباط في المنشأ ، وارتباط في صفة الحياة التي تجمعهم فيها كلمة « مَنْ » تربط بين العاقل وغير العاقل ، ومن يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع .

« ولله ميراث السماوات والأرض »[٩] .

---

(١) سورة فاطر [٢٧ – ٢٨] .
(٢) سورة الفرقان [٤٥] .
(٣) سورة النحل [٨١] .
(٤) سورة النحل [٤٨] .
(٥) سورة الحجر [١٩] .
(٦) سورة لقمان [١٠] .
(٧) سورة فصلت [١٠] .
(٨) سورة النور [٤٥] .
(٩) سورة آل عمران [١٨٠] .

«وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون»[1] .

وهنا ارتباط في المصير .

«ولله يسجد **من** في السماوات والأرض»[2] .

«ولله يسجد **ما** في السماوات وما في الأرض»[3] .

فمن في السماوات ومن في الأرض وما في هذه وتلك يشتركون في نشاط واحد هو العبادة لله خالق الجميع . نشاط يشمل الكائنات كلها من جوامد وأحياء .

وذلك فوق الترابط «المحسوس» بين الكائنات ، الذي يعرفه العلم ، من ارتباط الحياة والأحياء على سطح الأرض بوجود الأكسجين والإيدروجين وبقية العناصر بنسب موزونة محددة لو زادت أو نقصت لاختل كل شيء . وارتباط وجود كل حيّ من الأحياء بوجود الآخر زيادة ونقصاً ، وتأثر كل واحد بنشاط الآخر . وما يعرف في العلم باسم «دورة الكربون» في الأرض . يخرج من النبات في صورة غذاء فيتناوله الإنسان والحيوان . ثم يعود هذان فيفرزانه في الهواء فيلتقطه النبات ويعود إلى صياغته غذاء .. وهكذا في دورة رتيبة مضبوطة تربط جميع هذه الكائنات .

الخ .. الخ ..

والحركة الحية .. التي تبدو في كل شيء على سطح الأرض . حركة الأحياء من نبات وحيوان وطير وإنسان . وحركة النهر والبحر والمحيط وحركة الحياة والموت ، وما تنقصان من هنا وتزيدان من هناك . وحركة الأضواء والظلال والنهار والليل . الخ .. الخ .

والقرآن يبرز هذه الحركة إبرازاً حتى يصل إلى دقة مبدعة في التصوير في مثل قوله :

«ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً **وظلالهم** بالغدوّ والآصال»[4] !

فالحركة لا تشمل الأحياء ممن في السماوات والأرض فحسب ، ولكن تشمل ظلالهم أيضاً ، فتحييها ، وتحركها ، حتى لا يصبح شيء في الوجود كله غير حيّ وغير متحرك مع الأحياء !

وكذلك :

«والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس» .

حركة مصورّة تبث الحياة في كل «معنى» من معاني الوجود .

وهذه الحركة جمال فائق فوق كل جمال ...

* * *

---

(١) سورة الحجر [٢٣] .
(٢) سورة الرعد [١٥] .
(٣) سورة النحل [٤٩] .
(٤) سورة الرعد [١٥] .

تلك مجالي الجمال في الأرض ، فإذا انتقلنا إلى الإنسان وجدنا مقاييس الجمال فيه هي ذاتها – أو ينبغي أن تكون – مقاييس الكون كله المتمشية مع ناموس الوجود .

فحياة الإنسان لا تكون جميلة – بادئ ذي بدء – إلا إذا كانت « نظاماً » طليقاً من « الضرورة » .

نظاماً .. فالفوضى المنفلتة من كل قيد ليست جمالاً ، ولا كذلك الحياة في داخل قيود الضرورة .

الفوضى صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون ولا يعترف بها ناموس الوجود . فكل شيء منظم منسق موزون .

والقيد القاهر صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون كذلك ولا يعترف بها ناموس الوجود ، لأنه خالٍ من عنصر الضرورة في خلقه وفي نظامه سواء .

وإنما هو النظام .. النظام الدقيق الذي تتوازن فيه القوى وتتناسق الطاقات ، ويخرج منها كيان مترابط ، حيّ ، متحرك ، طليق .

حين ينفلت الإنسان من كل قيد .. اجتماعي أو اقتصادي . أو إنساني .. وينطلق يستجيب لكل هوى في نفسه وكل نازعة .. فإنه من ناحية لا يعود إنساناً ، لأن الإنسان ذو قوة ضابطة يستخدمها بوعيه وإرادته لتنسيق الحياة الإنسانية وإشاعة التوازن فيها ، ذلك التوازن الذي يقتضي ألا تصطدم أهواء الناس ، ولا يتفكك المجتمع وينحل نتيجة لشرود كل واحد من أفراده على هواه . ومن ناحية أخرى يكون خارجاً على ناموس الكون ، الذي لا تشرد أفلاكه على هواها ، ولا تنفلت مما يربطها بغيرها من الأفلاك من رباط جاذب متين .

وحين يعيش الإنسان حياته في داخل نطاق الضرورة : ضرورة الطعام أو الشراب أو الجنس .. لا يرتفع عنها إلى مستوى « المشاعر النفسية » والعواطف والإدراك والوعي ، فإنه من ناحية لا يعود إنساناً ، لأن الحيوان وحده هو الذي يعيش ضروراته على هذا النحو ، لا يتصرف فيها ، ولا يختار موقفه منها ، ولا يدرك بوعيه أهدافها ، ولا تصاحبها في « نفسه » مشاعر ولا عواطف ولا أفكار . ومن ناحية أخرى يكون خارجاً على ناموس الكون ، الذي لا تتحرك أفلاكه على هذا النحو المعين لضرورة قاهرة ، وإنما عن اختيار من خالقها ، وعن تجاذب حيّ بينها ، يشبه « عواطف » الأحياء .

ومن ثم يتعين الجمال في الحياة الإنسانية بصفة عامة : أنه نظام مطلق من الضرورة .

هذا « النظام » يقتضي موازنة الكيان البشري كله في داخل النفس وفي واقع الحياة .

يقتضي في داخل النفس ألا يصبح الإنسان جسداً وحده أو عقلاً وحده أو روحاً بمفردها . وإنما كياناً واحداً ينظم كل هؤلاء .

فحين تغلب على الإنسان شهوة الجسد الغليظة . أو تأملات العقل المنقطعة عن واقع

الأرض . أو سبحات الروح التي تعزل الإنسان عن الواقع وتحوّله إلى سلبية لا أثر لها في عالم الحس .. فكل ذلك اختلال يفسد ترابط النفس وتوازنها .. ومن ثم فهو غير جميل .

وحين يتسبب الإنسان في إفساد توازن المجتمع الاقتصادي أو السياسي أو الخلقي ، فيشيع الفاحشة الاقتصادية بتركيز الثروة هنا وسلبها من هناك ، أو الفاحشة السياسية بإقامة الطغيان في الأرض وإذلال الضعفاء ، أو الفاحشة الخلقية بنشر الجريمة وتيسيرها والدعوة إليها . فهو في كل حالة من هذه الحالات غير جميل .. لأنه مخالف لناموس الحياة .

والنظرة إلى الجمال في الحياة الإنسانية على هذا المستوى الشامل ، المستمد من حقيقة الكون ، كفيلة بأن توسع مفهومنا الجمالي ولا تحصره في حدوده الصغيرة المعروفة .

جمال «الطبيعة» جميل ، نعم . والإسلام – كما أسلفنا – يوجه إليه النظر ويدعو إلى التمتع بكل ما فيه من جمال .. على ألا يشغل ذلك النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهداف العليا من الحياة .

وجمال الأجساد وجمال الجنس ، نعم ، ما في ذلك شك ..

ولا يقول أحد إنه غير جميل .. !

ولكن بشروط .. هي نفس الشروط .. !

«نظام» طليق من «الضرورة» .

نظام تراعى فيه حقيقة المجتمع وحقيقة النفس المفردة فلا تختل هذه ولا تلك .

لا تختل حقيقة المجتمع بإطلاق الشهوات الباحثة عن جمال الجسد وجمال الجنس ، تفسد روابط الأسر وتحل قيود الأخلاق ، وتنتهي بالأمة في النهاية إلى البوار . ولا تختل حقيقة النفس فتصبح مستعبدة للشهوات .

تلك تجربة التاريخ لا ينبغي أن نغفلها انسياقاً وراء الأهواء :

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»[1] .

كل أمة أطلقت لنفسها شهوة عشق الجمال الجسدي والجمال الجنسي ، كانت نتيجتها واحدة في النهاية : تحطمت وغلب عليها غيرها من الأمم القوية المتماسكة التي لم تفسد بعد . كذلك فعلت اليونان القديمة . وروما القديمة . والعالم الإسلامي حين طغت عليه الشهوات . وكذلك فعلت فرنسا في العصر الحديث . وكذلك تصنع بقية الدول الغربية التي تبدو اليوم قوية متماسكة وهي منحلة من الداخل ينخر في كيانها السوس . نسبة الطلاق في أمريكا ٤٠ ٪ ! لأن «عشق الجمال» يفسد الاستقرار في داخل الأسرة ويجعل الزوج والزوجة هائمين في البحث عن جمال جديد ! وانجلترا ، بدافع الاستمتاع بالجمال الجسدي والجنسي أطول

---

(١) سورة آل عمران [١٣٧] .

فترة ممكنة تؤخر سن الزواج وتحدد النسل ، ومن ثم يتناقص تعدادها تناقصاً مريعاً يهددها بالفناء .. وهكذا .. وهكذا سنة الله في جميع الأمم الخارجة على الناموس !

والطلاقة من الضرورة من جانب آخر تقتضي أن يكون الإحساس بالجمال الجسدي والجمال الجنسي على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان الخاضع لنزوة الضرورة لا يملك التصرف فيها ولا يملك الاختيار .

وفي عالم الحيوان تكون كل أنثى مشاعة لكل ذكر يستطيع أن يحصل عليها ، وكل ذكر في شوق لجميع الإناث .. وهذه ضرورة ..

ولكن في عالم الإنسان توجد الروابط النفسية والروحية بين الذكر والأنثى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً **لتسكنوا إليها** ، وجعل بينكم **مودة ورحمة**»[١] .

ويوجد المدى الواسع في «درجات» الجنس وأنواعه ، التي يملك الإنسان من بينها الاختيار[٢] .

فلكي يحقق الإنسان كيانه – وهو خليفة الله في الأرض – ينبغي أن يكون إحساسه بالجمال الجسدي والجنسي على هذا المستوى الرفيع ، الذي لا يجعل الجنس ضرورة ، وإنما سلوكاً حراً يتميز فيه إنسان عن إنسان .

وفي هذه الدائرة بحدودها المتمثلة في النظام والطلاقة ، يبيح الإسلام الإحساس بجمال الجسد وجمال الجنس .. بنفس الشرط الذي اشترطه في الإحساس بجمال الطبيعة : ألا يشغل النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهداف العليا من الحياة .

يبيح المتعة الجنسية كلها ، في حدودها المشروعة ..

«أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم»[٣] .

والرفث الحركات والأقوال المصاحبة للعمل الجنسي . وعلماء البلاغة يقولون إنه كناية عن العمل . ولكن الحقيقة أوسع من الكناية . فالمقصود ألا يكون العمل الجنسي حركة جسدية خالصة ، لا تتمثل فيها غير ضرورة الجنس . وإنما توسع مساحتها ، حتى تصبح أقوالاً ومداعبات .. وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما روته عائشة رضي الله عنها من حاله معها ، يؤكد هذا المعنى ويحض على أقوال وأعمال تعبر عن عاطفة وشوق ورغبة في الامتزاج ، وهي كلها أمور «إنسانية» ترفع الجنس عن مستوى البهائم المقيد المحدود .

وذلك هو «الإحسان» في أمور الجنس .. أو هو الجمال .

---

(١) سورة الروم [٢١] .

(٢) انظر الفصل السابق «العواطف البشرية في التصور الإسلامي» .

(٣) سورة البقرة [١٨٧] .

والإسلام كذلك لا ينهى أن يحب الإنسان وجهاً جميلاً أو جسماً جميلاً ويقدر ما فيه من الجمال وينجذب إليه .. ولكنه لا يبيح ذلك فوضى .. فالطريق إلى الاستمتاع بهذا الجمال هو الطريق المشروع وحده .. لأنه هكذا يقتضي «النظام» .

ولكن هذه الإباحة – وميدانها واسع ما عدا الفاحشة – لا تنسي الإسلام سمات الجمال الأخرى التي يرسمها ناموس الوجود في نطاقه الكبير .

لا تنسيه التناسق .. وهو شرط من شروط الجمال في ذلك الناموس .

والتناسق يقتضي تناسق الأهداف الإنسانية ونواحي النشاط .

وحين تنقضي الحياة في تذوق جمال الجسد وجمال الجنس .. أو حين يأخذ هذا التذوق مساحة في رقعة الحياة أكثر مما ينبغي له .. فمتى .. متى تتحقق بقية أهداف الحياة وبقية ألوان الجمال ؟

متى يتحقق الجمال الاجتماعي والسياسي والفكري والروحي ؟

أليست هذه كلها صنوفاً من «الجمال» بالقياس إلى الإنسان ؟!

متى تتحقق العدالة الاجتماعية والسياسية والدولية ، التي يتمتع فيها كل فرد بنصيبه المشروع من الرزق ، والكرامة ، والاستقرار ، والاطمئنان ؟ ويتمتع كل إنسان بوفرة من الجهد ومن المشاعر تتيح له أن يخرج من قيود الضرورة ، ويسعى إلى تحقيق أشواقه العليا ، ويحس بما في الحياة من جمال ؟

أو ليس يقتضي كل ذلك كفاحاً وكدحاً ومشغلة بالليل والنهار ؟

فمتى يتحقق ذلك ، وتحقيقه أمر لازم لتنظيم حياة الإنسان ؟

وحين تستغرقنا متع الجمال الحسي ، فماذا يَفْضُلُ لنا من الطاقة وماذا يفضل لنا من الوقت ومن الاهتمام ، نسعى به إلى تحقيق هذا الجمال الأكبر ، الذي يجمّل حياة البشرية عامة ، ويشرك خلفاء الله كلهم في طيبات الرزق وطيبات الحياة ؟

إنه ليس تحريم الجمال الجنسي وجمال الأجساد .. ولكنه التنظيم والتنسيق والموازنة بين شتى أهداف الحياة .

* * *

ومن هنا تصبح الفنون «الجسدية» كلها إسرافاً في التعبير ، وخللاً يفسد الجمال الأكبر في حياة الإنسان . الرقص .. والنحت .. والصور العارية .. والشِّعر المكشوف .. والقصة التي تتحدث عن فورات الجسد .. والموسيقى الصاخبة التي تعبر عن هياج الشوق في الجسد الحيوان .. والسينما العارية التي تعرض خليط من كل هؤلاء .

كلها إسراف من ناحية تجسيمها للجسد ، وعرضه معرض الفتنة أو معرض العبادة والتقديس .

« فاللحن » الإنساني لحن متكامل ، يعبر عن الإنسان بمجموعه ، لا عن جسده وحده ، ولا عن طريق الأجساد .

والرقص – مثلاً – مهما قيل فيه من تنغيم وتوقيع ، لن تعدو حقيقته أنه إبراز لجانب الجسد ، وتعبير عن الحياة عن طريق الجسد .. أي أنه فن يفصل قبضة الطين عن نفخة الروح ويعرض جانباً واحداً من الإنسان .

وبقية الفنون « العارية » غنية عن الكلام !

والفن ينبغي له وهو يعبر عن الحياة الإنسانية أن يراعي التناسق والتكامل والترابط في هذه الحياة .

وحين يبرز الجنس وحده أو جمال الجسد وحده ، فهو مخل ولا شك بكل هذه الشروط .

فأين يكون في لوحة الفن الجنسي تصوير الحب بمعناه الشامل ، الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق : الحب الإلهي ، والحب الكوني ، والحب الإنساني ؟

وأين في هذه اللوحة يكون صراع الخير والشر وتعاقب جولاتهما وتداخلها في واقع الحياة : ينبت الخير من الشر وينبت الشر من الخير : «وتلك الأيام نداولها بين الناس » ؟

وأين يكون موقع « القدر » .. تلك القوة المحركة الكبرى التي تنسق لوحة الحياة بما توزعه على الناس والكائنات من أقدار : موت هنا وحياة هناك . وهزيمة ونصر . وآلام وآمال . وسعادة وشقاء . وحلاوة ومرارة . ومغانم ومغارم . وإقبال وإدبار . وإعطاء وحرمان ؟

وأين يكون موقع الأشواق العليا التي تحس بها البشرية حين تنطلق من القيد .. ممثلة في العقيدة والإيمان بالله والإيمان بالغيب والإيمان باليوم الآخر .. وأثر ذلك كله في واقع الأفراد وواقع الحياة ؟

الجمال الجنسي جميل . نعم . ولكنه لا ينبغي أن يجاوز مكانه المقدور في لوحة البشرية ولوحة الفنون .

والجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون ، هو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الإنسانية الرفيعة ، التي تتجاوب تجاوباً صحيحاً مع حقيقة الوجود .

وذلك هو الجمال الذي يتصوره الإسلام ..

القَـدَر في التصوّر الإسلامي

القدر في حس الإنسان حقيقة هائلة ، رهيبة مخوفة .. مرتقبة ومتّقاة !

ذلك أنها تتصل بالقوة التي تدبر الكون وتصرف الحياة .. القوة التي تمنح وتمنع ، وتسعد وتشقي ، وتُفْرِحُ وتُحْزِنُ ، وتأخذ وتعطي ، وتعذِّب وتُرضِي ، وتَحْرِمُ وتغدق ، وتهب الحياة وتأخذ الحياة !

وتتصل في الوقت ذاته بالمجهول .. بالغيب المحجوب عن الأبصار ..

وتتلفع بالكتمان ! لا تفصح عن سرها قبل أن تقع ، وقد تقع وهي مع ذلك مغلفة بالأسرار !

شيء هائل رهيب .. لا جرم يشعر الإنسان إزاءه بالضآلة والانحسار !

* * *

إن آمال الإنسان لكثيرة . وإن مخاوفه لمتعددة .

يأمل الإنسان أن يعيش أبد الدهر !

فإذا أعجزه الخلود في هذه الأرض ، وتوالت على حسه طرقات الموت تنذره بأن هذا الأمل مستحيل ، راح يلتمس الخلود في وسائل أخرى ، في الامتداد بالنسل تارة ، ومحاولة الامتداد بالذكر تارة ، وتوسيع أفق الحياة تارة لتتسع عَرْضاً إذا استحال اتساعها بالطول .. وبالهروب تارة من واقع الأرض المحسوس كله ، والالتجاء إلى عالم الروح ، الخالد الذي لا يصيبه الفناء ..

ويأمل الإنسان أن يعيش القَدْرَ المقسوم له من الحياة سعيداً ، خالياً من المتاعب والآلام والأحزان ، هادئاً رضي البال ، لا تنوشه المشاغل ولا تفسد هدوءه المنغصات .

ويأمل أن يعيش مطمئناً .. لا تفزعه الأحداث بالأخطار . أخطار الموت والإصابة والمرض والأذى والحرمان .

ويأمل أن يعيش مستمتعاً بالقوة والجاه والسلطان .. « بالبروز » في أية صورة ، أو في جميع الصور على الإطلاق !

وإنه ليخاف ...

يخاف أكبر ما يخاف الموت .. فهو الذي يحرمه رغبته الأولى .. رغبة الحياة .

ويخاف العجز والمرض والضعف والشيخوخة .
ويخاف الفقر .
ويخاف الأذى .
ويخاف الحرمان ...
وترتبط آماله ومخاوفه بالغيب ..
فهو لا يعلم ، ولا يستطيع مهما أوتي من المقدرة أن يعلم ماذا يكسب غداً ولا بأي أرض يموت ! «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت»[1] بل لا يستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة الواقفة على الأبواب ، بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب ! اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن ، ومع ذلك تفصلها عن علمه الآماد والآباد !
فهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً في واقع الأمر . وقد يتظاهر لحظة بالقوة . وقد يتبجح لحظة بالسيطرة . وقد يخيِّل إلى نفسه أحياناً أنه قادر ومدبر ومالك لما يأتي من الأمور .
ولكنه في حقيقة نفسه ، في أعمق أعماقه .. يدرك الحقيقة . يدرك أنه لا يملك القوة ولا يملك التدبير . وأن ضربة من ضربات القدر يمكن أن تأتيه في أية لحظة فلا يبقى شيء مما أمّل ، ولا يقدر على شيء مما يريد ..
ضربة تفسد كل تدبيره ، أو ضربة تخرجه هو من كل تدبيره ، وتسلب منه الحياة !
لذلك يتطلع دائماً إلى القدر .. يرتقبه ... ويتقيه !

* * *

وحقيقة القدر شديدة الضخامة في حس البشرية منذ عهودها السحيقة .. وستظل كذلك إلى آخر العصور !
فالمفاجأة دائماً عنصر مرهوب ..
كل شيء يحدث دون أن يراه الإنسان يتضخم وقعه في حسه ، ولو كان أبسط الأشياء .
قد يحتمل الإنسان قدراً كبيراً من الألم وهو ناظر إليه ، عارف لقدره ، مشاهد لحدوثه ، ثم لا يحتمل شكة الإبرة البسيطة حين تشكه على غير انتظار !
ذلك من صميم الفطرة .. جزء من كيانها أصيل .
انظر إلى الطفل حين تفاجئه من ورائه بصيحة ، أو لمسة لم يكن لها عنده حساب .. كيف يفزع ويضطرب ويخاف !
ثم انظر إلى الشخص البالغ في ذلك الموقف نفسه .. ليس هناك فارق كبير !

---

(١) سورة لقمان [٣٤] .

وهذا الخوف من الأشياء المفاجئة – المتأصل في الفطرة – يؤدي لهذه الفطرة مهمة عظيمة ، هي حفظ الحياة ! فلولا الخوف من الأخطار لم يحافظ الإنسان على حياته ، ولم يحقق من الأهداف ما يحتاج إلى وجوده سليماً موفّر الحياة .

ولكنه – ككل شيء – حين يجاوز قدره المعقول يصبح عنصراً معطلاً عن الحياة !

وأياً كان القَدْرُ الذي يمارسه الإنسان من الخوف ، فالمفاجأة دائماً عنصر مرهوب بالنسبة إليه ، وهو يخشى القدر لأنه دائماً يفجؤه بالأحداث .

* * *

والقدر في حس البشرية دائماً عنيف !

فالبشر لا يحسونه وهو سائر معهم في التيار . وإنما يحسونه وهو معاكس لهم في الطريق !

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوساً »[1] .

« ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ! إنه لفرح فخور ! »[2] .

لا يحسونه وهو يهب لهم أمانيهم ، ويمتعهم ، ويحقق رغباتهم .. كما لا يحس الإنسان بالتيار وهو سابح في اتجاهه ، بنفس سرعته !

ولكنهم يحسونه وهو يحرمهم مما يرغبون . يحسونه وهو يأخذ منهم حياةً عزيزة عليهم . أو يصيبهم في ذات أنفسهم بصنوف مختلفة من الألم والعذاب والحرمان .. سواء ما يصيب الأجسام وما يؤلم النفوس .

ويزيد من وقعه في حسهم أنهم لا يفهمونه ولا يدركون أسراره .

لماذا اختطف الموت تلك الطفلة البريئة التي ليس لها « ذنب » ، والتي كانت وحيدة أبويها ، المتعلقين بها ، تتمثل فيها بالنسبة إليهما كل معاني الحياة ؟

ولماذا اختطف الموت ذلك الرجل وهو العائل الوحيد لأسرته ، لا موئل لهم غيره ، وهم عديد من زوجة وأطفال وأقرباء ؟

لماذا انهزمت الفئة المؤمنة المخلصة التي تقاتل في سبيل الله ، لا تبتغي سوى مرضاته ، وتركت بهزيمتها الميدان للباطل ، ينتفش فيه وحده ، ويعلو في الأرض ، ويتمكن له السلطان ؟

لماذا انتصر الشر على الخير ، فيئس الناس من مصير الخير على الأرض ، وتهاوت نفوسهم ، واندفعوا في طريق هابط ، لا يعملون لنصرة الحق ولا يتورعون عن ارتكاب الآثام ؟

لماذا رزق هذا الرجل الصالح بولد مجرم يعيث فساداً في الأرض ، ويهلك الحرث والنسل ؟

---

(١) سورة الإسراء [٨٣] .

(٢) سورة هود [١٠] .

لماذا غرقت هذه السفينة واحترقت هذه الطائرة ووقع ذلك الزلزال المدمر العنيف ؟
لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه في الحادثة وليس له من يرعاه ؟
لماذا يظل هذا الشيخ حياً وقد هدّه المرض والعجز والشيخوخة ، ويموت ذلك الشاب الصاعد نحو القمة الممتلئ بالحياة ؟

وألوف من الأسئلة وألوف من التعجبات .. لا يدرك البشر كنهها ؛ فتتمثل لهم «قسوة القدر» في تصريف الأمور ، أو يتمثل لهم كأنه يخبط خبط عشواء .

* * *

والفنون البشرية منذ القدم تعالج أمر القدر في الشعر والقصة والأقصوصة والمسرحية .. الخ . وتعالجه – في معظم الأحوال – في ثوبه الفاجع العنيف .

والأدب اليوناني بصفة خاصة يفرد للقدر رقعة فسيحة في لوحته الفنية . لا تخلو مأساة من مآسيه من هذه العقدة التي هي في الواقع عنصر المأساة فيه : وهي موقف البشر العاجز الضعيف أمام القدر . مهما حاولوا تحديه والتغلب عليه ، وعنف ضربات القدر للذين يتحدونه خاصة ، ويريدون أن يتصرفوا على أساس أنهم هم المالكون والمدبرون . حتى الآلهة الأسطورية ليست معفاة من ضربات القدر الجبار !

وعناية الأدب اليوناني بحقيقة القدر في حياة الناس وسير الأحداث هي في ذاتها عناية صائبة . فهي كما قلنا حقيقة ضخمة في حس البشر . بل هي كذلك في صميم بنية الكون . ولكن هذا الأدب مع ذلك لم يستقم في تصويرها .. بل وقع – رغم روعته وضخامته – في أحد الاختلالات الكثيرة التي تسم هذا الفن .

لقد صور العلاقة بين البشر والآلهة – كما ذكرنا من قبل – علاقة مباغضة ومشاحنة وحرب دائمة لا تفتر من هذا الجانب ولا ذاك . وصور هؤلاء الآلهة طغاة بغاة تغلب عليهم شهوة السلطان والسيطرة ، ومحاولة إخضاع البشر لأحكامهم الجائرة ، التي لا معنى لها ولا هدف من ورائها غير هذه الشهوة المتجبرة المحمومة . ثم صور لهؤلاء الآلهة نزوات من الغضب ونزوات من العشق المنحرف ، يتورع عنها الإنسان العادي فضلاً عن «الآلهة» المتصرفين ! ومن ثم جاء «القدر» في آدابهم بهذه الصورة العنيفة القاسية القاصمة ، المتحكمة في الناس بلا منطق ولا ضرورة ولا هدف علوي ، والتي لا تريح القلب البشري في كل حالة إلى عدالة السماء أو حكمة الأقدار . ثم انحرفوا انحرافاً تصورياً آخر ، فصوروا القدر قوة عمياء لا لا تعفي هؤلاء الآلهة المتجبرين أنفسهم من ضرباتها كما يضربون هم البشر ، وهي تضرب البشر والآلهة على السواء .

وعن هذا التصور المنحرف – برغم ما فيه من روعة الأداء وقوة الإيحاء – التصور الذي يصور حقيقة القدر من الظاهر الصغير المكشوف لمدارك البشر ، والذي يصيبون في تصوره

مرة ويخطئون مرات ، ولكنه لا يصوره من حقيقته الكونية العميقة الشاملة .. عن هذا التصور أخذت كثير من الفنون الغربية – وريثة الأدب اليوناني – فصورت هذا «الصراع» بين البشر والقدر .. يبدو فيه البشر – في معظم الأحوال – في الجانب المعقول المفهوم المفسَّر المبرَّر ، ويبدو القدر في الجانب الغاشم الذي لا تفسير له ولا تدبير ، سوى شهوة التحكم وإذلال البشر !

ثم جاء وقت جنحت فيه بعض الآداب الغربية الحديثة عن معالجة القدر المتلفع بالغيب ، المتعلق بإرادة الله – أو الآلهة – واستبدلت به قدراً آخر في صورة محسوسة ملموسة ، تمشياً مع التحول الذي حدث في الفكر الأوربي كله في القرنين السابقين ، في الانتقال من وراء الطبيعة إلى الطبيعة ، ومن المجهول إلى المعلوم ، ومما لا تدركه الحواس إلى ما تدركه الحواس .. استبدلت بفكرة الله والغيب المجهول قوىً أرضية خالصة ، كقوة «الطبيعة» أو قوة «المجتمع» أو قوة «الدولة» أو قوة «الطبقة» .. محاوَلةً منها أن تفسر «الله» في صورة معقولة مفهومة مُحَسَّة ، وأن تصغر من قَدْرِهِ في ذات الوقت إلى جانب قوة الإنسان ، انتقاماً «لبروميثيوس» القديم الذي غلله زيوس في الأغلال ! ! ولكنها مع ذلك ظلت محافظة على طبيعة العلاقة بين البشر وهذه القوى ، على نفس الصورة التي كانت تشكل علاقة البشر بآلهة اليونان .. صورة الصراع والبغضاء .

فصار «البطل» في الأدب الحديث لا يصارع الآلهة ولا القدر المغيَّب في المجهول . وإنما يصارع الطبيعة . أو يصارع المجتمع . أو يصارع الطبقة التي تملك وتحكم .. وكلها صراعات تحكمها البغضاء والشحناء ، ورغبة تلك القوى في سحق البطل وتفتيته .. ثم تكون «المأساة» حين تنجح تلك القوى في التحطيم ، كما كانت تنجح آلهة اليونان في سحق المتمردين على سلطانها المهول ، أو كما كانت تنجح الأقدار في تحطيم الآلهة والناس سواء !

وفي الوقت ذاته أصغرت هذه الآداب – وهذا الاتجاه الفكري كله – من قيمة الإنسان حين أصغرت من قدر الله .. فقد كان الإنسان – رغم سلبيته المطلقة إزاء الله – يقف على مستوى عالٍ من الإرادة والذاتية والتصرف في قوى المادة وقوى المجتمع وخط سير الحياة ، فصار – في المفهوم الحديث – يقف موقف السلبية الخانعة من قوى المادة وقوى الاقتصاد ، وقوة المجتمع ، كلها تفرض عليه سلطانها وإرادتها ، وهو وحده بلا إرادة ولا سلطان !

لقد أرادت هذه المفاهيم أن تلغي الله لترفع الإنسان .. فكانت النتيجة أن ألغت كيان الإنسان حين ألغت إلهه المعبود ! لأنه في الحقيقة يستمد وجوده من ذلك الإله !

وهذا هو الانحراف الذي يسيطر على هذه المفاهيم كلها ، وما ينشأ عنها من آداب ، رغم ما لها من روعة وقدرة فائقة في التأثير .

* * *

والتصور الإسلامي للقدر واسع شامل محيط .

القدر هو إرادة الله .. المسيطرة على الكون والحياة والإنسان . المسيطرة على كل دقيقة من الدقائق ، وكل تفصيلة من التفصيلات .

لا شيء في الوجود يحدث مصادفة . ولا شيء يحدث جزافاً بلا حساب .

ولا شيء يحدث بلا غاية ...

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، **ربنا ما خلقت هذا باطلاً** ، سبحانك .. »[1] .

« **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً** ؟ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ »[2] .

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما **لاعبين** »[3] .

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق »[4] .

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم »[5] .

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »[6] .

ويقول « العلم » الحديث كلاماً كثيراً في خلق الكون . دقته وانضباطه وترابطه وتناسقه .. وأنه لا يمكن أن يحدث كل ما فيه من موافقات دقيقة بغير غاية ولا خالق مدبر مريد .

يقول جيمس جينز ، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحداً شاكاً : « إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله » .

ويقول ا. كريسي موريسون ، رئيس أكاديمية العلوم بنيورك في كتابه «العلم يدعو للإيمان» : « إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الضخمة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .

« إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم في كل وحدة من وحدات العلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون – التي كانت تعتبر أصغر قالب في بناء الكون – إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحياة تبديلاً جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتفتح مجالاً للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة » .

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١] .
(٢) سورة المؤمنون [١١٥] .
(٣) سورة الأنبياء [١٦] .
(٤) سورة الحجر [٨٥] .
(٥) سورة التغابن [٣] .
(٦) سورة الجاثية [٢٢] .

ويعدد هذا العالم وغيره مئات من الموافقات الدقيقة في خلقة الكون ، لو اختل أي واحد منها لما انتظم الكون في دورته المنتظمة الدائمة .. ولما ظهرت الحياة على سطح الأرض ولا ارتقت .. لو زادت نسبة الأكسيجين في الهواء فاحترق كل حي أو قلت فماتت الأحياء أو خملت .. لو زاد الماء على سطح الأرض أو قل .. لو زادت اليابسة أو قلت .. لو اقترب القمر من الأرض فزادت قوة جذبه وارتفع مد المياه على الأرض أو لو بعد .. لو اقتربت الأرض من الشمس فالتهب كل ما على سطحها من الحياة أو بعدت فمات كل حي .. الخ .

وكلها تشهد بهذه الحقيقة التي تدركها الروح بداهة – من قبل ذلك العلم – أن للكون خالقاً مدبراً يخلق بقدر ما يشاء ويدبر الأمر ..

تلك أول بديهية من بديهيات «القَدَر» في خلقة الكون .

ثم الله هو الذي يدبر كل أمر في هذا الوجود كله ، وفي حياة الإنسان :

«بيده ملكوت كل شيء»[(١)] .

«بيده الملك وهو على كل شيء قدير»[(٢)] .

«قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير»[(٣)] .

ثم إنه يدبر الأمور كلها بالحق :

خَلَقُ السماوات والأرض بالحق .

وخلق الإنسان بالحق .

وتصويره في أحسن صورة هو بالحق .

ورجعته إلى الله في اليوم الآخر بالحق ، ومن أجل الحق ..

وهنا مفرق الطريق بين الوثنيات القديمة والحديثة وبين الإسلام ..

كل وثنية تؤمن بأن الكون قد خلق مصادفة بلا خالق ، أو بلا خالق مدبر ..

وكل وثنية تؤمن بأن الإنسان وجد في الأرض مصادفة – بتطور أو بغير تطور ...

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان في الأرض لا يحكمها ضابط ، أو لا يحكمها ضابط عاقل ، أو لا يحكمها ضابط عادل يقدر تصرفاته ويصدرها بالحق ..

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان محصورة في نطاق الأرض الضيق ، محصورة في الحياة الدنيا ، منقطعة عن حقيقة الأزل والأبد ، منتهية بلا رجعة ولا جزاء ..

---

(١) سورة يس [٨٣] .

(٢) سورة الملك [١] .

(٣) سورة آل عمران [٢٦] .

كل هذه الوثنيات ضالة منحرفة ، منقطعة الصلة بناموس الوجود الأكبر ، الذي يحكم الكون والحياة والإنسان ..

إن النظر في هذا الناموس الأكبر يفتح البصيرة على «الحق» الشامل الكامل الذي يصرف الأمور .

وقد سبق من قول «العلم» ما يبين ما في خلق الكون من حق .. وأنه ليس مصادفة بلا مدبر عاقل حكيم .

وليس من طبائع الأشياء أن تكون هذه الدقة العجيبة المتناهية موجودة في خلق السماوات والأرض ، وغائبة بعد ذلك عن حياة الإنسان !

فالحق الذي شمل هذا الكون الواسع الذي يُذْهِلُ الإنسانَ مجردُ تخيله ، لن يتوقف عن السريان بالنسبة لتلك النقطة الصغيرة الضئيلة في هذا الكون ، ولا بالنسبة لكائن واحد من كائنات هذه النقطة السابحة في الفضاء .

حقاً .. إن الله كرم الإنسان وجعله خليفة له في الأرض . ولكن هذا ليس معناه أنه أخرج حياته من الناموس الأكبر الذي شاء سبحانه أن يحكم الوجود كله .. ناموس الحق .

بل كان من التكريم له أن يصله بالناموس الأكبر ، فلا يتركه ضائعاً منقطعاً ، متفرداً وحده بالتيه والضلال في الكون المهتدي كله بهداية الله ..

كان من التكريم له أن يجعل لحياته غاية ، ويجعل حاكمها هو الحق ، ويجعل كل خطوة من خطواتها وكل تفصيل من تفصيلاتها ، مرتبطاً بتلك الغاية ومحكوماً بذلك الحق .

وكان من التكريم له – إذ جعل حياته محكومة بالحق – ألا تنتهي حياته في هذه الأرض ، التي لا تكتمل فيها صورة ، ولا يتبدى فيها الحق – حين تقتطع عن بقيتها المكملة لها – ولا تنتهي الأمور فيها نهايتها العادلة المستفادة من «الحق» .. وإنما جعل هذه الحياة الدنيا اختباراً وبلاء للناس ، وفرصة للعمل من كل لون وصنف ، ليتم الجزاء العادل عن هذا الاختبار في يوم الجزاء .. يوم تكتمل الصورة ويحق الحق :

«الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً»[1] .

«وخلق الله السماوات والأرض بالحق . ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون»[2] .

وبذلك تستقر الأمور على ركيزتها الحقة في حياة الناس ..

إن «القدر» الذي يصرف حياة الناس هو إرادة الله . وهو الحق ، لأنه قدر الله وإرادته . وهو لا يجري بلا غاية . فكل ما في الوجود يجري لغاية .

---

(١) سورة الملك [٢] .

(٢) سورة الجاثية [٢٢] .

وهو لا يجري بالظلم .. فالظلم محال على الله .

وهو لا ينهي الأمور في هذه الأرض ، لأن الأرض ليست نهاية الحياة ؛ واقتطاعها وحدها من الصورة يفسد ما فيها من الحق ، ويخلّ بالنسب والموازين .

وتنفسح الحياة بهذا التصور الشامل فلا تنقطع عند نهاية الحياة الدنيا ، ولا نهاية حياة فرد ولا حياة جيل .. وإنما تمتد من الدنيا للآخرة .. ومن الأرض للسماء .. فسحة للنفس البشرية تعيش فيها على نطاق أوسع ، وفسحة للفنون ..!

* * *

والبشر لا يدركون حقيقة الصورة لأنهم يقطعون رباطاتها ، وينظرون إليها أجزاء وتفاريق .

ينظرون إلى حياة فرد بعينه أو حياة جيل .. ويقفون عند الحادث المفرد كأنه « المقطع » الأخير في الصورة .. أو يقفون عند هذه الأرض .. فلا تتبين لهم الملامح ، ويظنونه خبط عشواء ..

لماذا ماتت الطفلة .. ولماذا عاش الشيخ .. ولماذا وقع الزلزال .. ولماذا هزم الحق وانتصر الطغيان ؟!

والإسلام يرد الناس عن الوقوف عند تلك الحوادث المجزأة المنقطعة ، ويدعوهم إلى لوحة أوسع ، يشاهدون فيها سير الحياة :

«وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشدا ؟ قال : إنك لن تستطيع معيَ صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ! قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا . حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ! قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا ! قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ؟ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاماً فقتله . قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكرا ! قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ؟ قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا . فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً ! قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً . أما

السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك . وما فعلته عن أمري . ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبرا »[1] .

قصة موسى مع عبد الله الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه العلم اللدني الذي يتجاوز الحادثة المفردة واللحظة الحاضرة إلى ما وراءها من الحوادث وما وراءها من الأجيال .. ويربط ذلك كله بعلم الله الشامل وأمره النافذ بالحق .

إنها تفتح للقلب البشري مجال التأمل في اللوحة الواسعة ، فلا يحصر انتباهه في اللحظة الحاضرة يحاول تفسيرها وحدها منقطعة عن ارتباطاتها اللانهائية بالأشياء والأشخاص والأحداث .

وهي لا تقول له – مع ذلك – إن البشر سيدركون في كل حالة حكمة الأحداث ! فعمر الفرد القصير وعلمه القاصر لن يتيحا له الاطلاع على اللوحة بأكملها ، وفيها جانب محجوب عنه في عالم الغيب ، هو الجانب الذي لم يتحقق بعد في واقع الحياة ، والذي يحمل تكملة أحداث اليوم ، وما يترتب عليها من نتائج لا تدخل في الحسبان !

وإنما تقول له فقط **إن هناك حكمة وراء الأحداث** ! إنها ليست اعتباطاً ، بلا غاية ولا ضابط . إنها ليست منفصلة كل منها قائم بذاته لا يترتب عليه شيء . إنها ليست مقطوعة عن علم الله وتدبير الله !

وتقول له : **إن هذه الحكمة حق وعدل لا باطل فيها ولا ظلم** ! فمن وراء علم البشر القاصر علم الله المحيط ، ومن وراء الحادث الذي يبدو ظالماً اليوم – لأنه مقتطع من صورته المتكاملة – يتحقق عدل وخير كثير .

وتقول له : **إن الله هو الملجأ** لأنه هو العالم بما وراء اللحظة الحاضرة ، وبما يمكن أن يترتب على الشر الظاهر من خير حقيقي ، أو يترتب على الخير الظاهر من شر حقيقي : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم »[2] .

ومن ثم يطمئن القلب البشري إلى قدر الله ، ويستسلم له ويرضاه !

* * *

ذلك هو فارق ما بين الإسلام والوثنية في تصور القدر .

وهو فارق عظيم ..

---

(١) سورة الكهف [٦٠ – ٨٢] .

(٢) سورة البقرة [٢١٦] .

ليس أقل ما يترتب عليه تصحيح التصور وتصحيح المقاييس .

فالإنسان – خليفة الله في الأرض – لا ينبغي له أن يعيش في تصور خاطئ وهو يملك أن يرى الصواب . لا ينبغي أن يكون تفكيره وتصوره محصوراً في دائرة ضيقة منقطعة عن ناموس الحياة الأكبر ، وهو يملك طلاقة الفكر وطلاقة التصور والاتصال بالناموس الكبير .

وليس أقل ما يترتب عليه تصحيح المشاعر بعد تصحيح المقاييس .

فحين يستقيم للإنسان تفكيره ؛ حين يجعل تصوره مساوقاً لناموس الحياة لا منقطعاً عنه ولا مصادماً له ؛ حين تنفسح أمامه الصورة فلا يشوهها النظر إلى جزئياتها المتفرقة بلا رابط ؛ حين يرى رقعة الحياة الكبيرة ووجود القصد من ورائها واستقامة الغاية .. حينئذ تستقر نفسه وتنطلق مشاعره سليمة من القلق والاضطراب .

إن القلق العنيف الذي يستولي على النفس حين لا ترى حكمة القدر وغايته ؛ حين تؤمن بأن الوجود بلا غاية والحياة بلا أهداف ؛ حين تؤمن أن الحادث المفرد واللحظة الحاضرة هي القول الأخير في أي أمر ؛ حين تؤمن أن الحياة تنتهي هنا ، بانتهاء هذا الفرد أو بانتهاء هذه الأرض .. هذا القلق مدمر محطم مميت ..

إنه هو الذي يجعل الحياة نهبة تنهب ، وصراعاً وحشياً على لذائذ الحياة ..

وهو الذي يشيع في العالم اليوم ما يشيعه من انحلال وتفكك ، وحيرة وتخبط ، وصراع يوشك أن يصيب العالم بالدمار .

فأما حين تطمئن النفس إلى قدر الله .. والحق الذي خلقت به السماوات والأرض .. والعدل في البلاء والعدل في الجزاء .. فعند ذلك تنطلق من القلق المدمر المشتِّت ، تنطلق تعمل نشيطة في سبيل الخير ، لأنها طليقة طلاقة الناموس الذي يحكم الوجود ، ويربطه بعضه إلى بعض برباط الجاذبية الرخية الودود ، لا برباط التوتر الصارم العنيف !

وذلك موقف المسلم من القدر : التسليم للمغيّب المجهول ، والعمل في نطاق الظاهر المعلوم .

* * *

إن المسلم الذي يؤمن بالتصور الإسلامي على بصيرة ، لا يجزع ولا يقلق ولا يضطرب لما يترقبه من قدر الله ، لأنه قد سلم أمره إلى الله ، واطمأن إلى إرادته فيه ، واطمأن إلى أنه لا يريد له في النهاية إلا الخير . تهديه في ذلك علاقة المودة لله والحب ، والرضى المتبادل من الجانبين «رضي الله عنهم ورضوا عنه»[1] ولا تحكمه قط علاقة البغضاء والشحناء والصراع ، التي لوثت أساطير الإغريق وأفسدت شعورهم بالله .

---

(١) سورة المائدة [١١٩] .

وهو في الوقت ذاته لا يتواكل عليه بحجة أن القدر مكتوب ، ولا ينفذ إلا ما أراده الله ! .

حقاً . لا ينفذ إلا ما أراده الله . ولكن قدر الله مغيب عن الأبصار . وليس يدري أحد مقدماً ما سيكون . ومن ثم ينبغي العمل .. العمل الدائب الذي لا يفتر : «خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن **عملا**»[1] . «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع **عمل عامل منكم**»[2] «وقل : **اعملوا** فسيرى الله **عملكم** ورسوله والمؤمنون»[3] .

العمل الدائم في كل لحظة .. ولكن بلا قلق ولا جزع ولا اضطراب .

* * *

والصراع يحدث في الأرض . ولكنه ليس صراعاً مع القدر !

ليس هناك ما يوجب الصراع مع القدر ، فقد اطمأنت النفس إليه ، ورضيت بحكم الله مطمئنة أنه الخير .. ولو لم يتكشف لصاحبه في حينه ، بل لو لم يتكشف لعدة أجيال !

وإنما يكون الصراع مع الشر الكائن في الأرض .. ويكون من أجل الخير في سبيل الخير : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين»[4] .

يصارع الإنسان قوى «المجتمع» ، وقوى «الطبقة» .. إذا طغت عن حدها ومالت إلى الظلم . ولكنه لا يصارعها وفي حسه أنها «القدر» ! ولا أنها البديل من الله !

وإنما يصارعها وهو مرتبط بالله ، مترقب لقدر الله ، مطمئن إلى حماه .

ولا يستعجل نتيجة الصراع ..

إن الصورة لا تكتمل في حياة الفرد ولا في حياة جيل .. ولا من الحادث المفرد واللحظة الحاضرة .

وقد يستغرق اكتمال الصورة حوادث متعددة وحيوات أفراد متعددة وحيوات أجيال ..

أو قد يستغرق الحياة الدنيا كلها .. ولا يكتمل إلا في الآخرة يوم الجزاء ..

ولكنه يكتمل في كل حالة .. فذلك هو ناموس الكون المتكامل الشامل المحيط ، القائم بالحق في جميع الأحوال .

* * *

وانفساح الحياة على هذا النحو ، وانفساح التصور ، فوق أنه حقيقة واقعة يشهد بها ناموس الوجود كله ، فهو حقيقة «فنية» رائعة حين يراد تصويرها في الفنون .

---

(١) سورة الملك [٢] .

(٢) سورة آل عمران [١٩٥] .

(٣) سورة التوبة [١٠٥] .

(٤) سورة البقرة [٢٥١] .

والأدب اليوناني مثل من الروعة الفنية في تصوير القدر .. ولكنه تصوير ناشئ عن تصور ناقص ومنحرف . تصور يأخذ الصورة من جانب واحد ، غير متكاملة الترابط مع بقية الأجزاء .. ويأخذها من جانب انحراف وثني في تصور العلاقة بين البشر والله .

والتصور الإسلامي المستقيم المتكامل حري بأن ينشئ فناً آخر .. فناً يعرض حياة الأفراد والجماعات ، والحوادث والأحداث ، خلواً من اختلالات الفن اليوناني ، ويعرض الصورة على حقيقتها المتمثلة في كل كيان الوجود .

حقيقة العقيدة في التصور الإسلامي

ما العقيدة ؟

لماذا يؤمن الإنسان بوجود إله .. ثم يتجه له بالعبادة .. ويحبه ويخشاه ؟

لم تقف البشرية لتسأل نفسها هذا السؤال .. سواء وهي تؤمن بالله الإيمان الحق ، أو وهي تعبده على ضلالة .. في صورة وثن أو طوطم[1] .. أو تعبده وتشرك به آلهة أخرى ليقربوهم إلى الله زلفى .

لم تقف لتسأل نفسها هذا السؤال ، لأنه كان في حسها بديهية لا تحتاج إلى سؤال ..

حتى أصابت أوربا النكسة في الحقبة الأخيرة ، فراحت تسأل نفسها منكرة وجود الله ، بل منكرة وجود إله على الإطلاق .. زاعمة أن ذلك كله كان أساطير الأولين !

هذه الحقبة ذاتها التي اضطربت فيها الموازين في أوربا ، واهتزت القيم ، واختلت الأفكار .

الحقبة التي آمنت فيها بحيوانية الإنسان وماديته . وأبت أن تؤمن إلا بما تدركه الحواس .

الحقبة التي أرادت فيها أن «تحرر» الإنسان من عبادة الله .. فأخضعته لجبرية المادة وجبرية الاقتصاد وجبرية التاريخ .. وألغت كيانه الذاتي من الوجود .

* * *

في فترة من الفترات كانت أوربا مسيحية ..

وأياً كانت درجة إيمانها بالمسيحية ، ودرجة تغلغل العقيدة الإلهية في النفوس التي درجت على الوثنية ردحاً طويلاً من الزمن يمتد إلى عشرات القرون .. فقد كانت المسيحية هي الطابع العام للتفكير الأوربي ، وكانت العقيدة في الله هي القاعدة لهذا التفكير .

ثم حدث تطور كان في ظاهره في صالح الدين ، بينما كان عَدُواً للعقيدة في حقيقة الأمر . ذلك هو ازدياد نفوذ الكنيسة ، وامتداد سلطانها ، حتى أصبح هو المسيطر على كل شؤون الحياة .

---

(١) الطوطم (Totem) معبود تعبده القبيلة يكون في الغالب حيواناً معيناً تعتقد القبيلة أن دماءه تجري في كل فرد من أفرادها . وهم يقدسونه فلا يذبحونه إلا في مناسبات دينية خاصة ، وعندئذ يشربون دماءه لتجري في عروقهم من جديد . ولكل قبيلة طوطمها الخاص .

لقد صار للكنيسة سلطة لا في داخل نطاقها الروحي وحده – المستفاد من تصور الكنيسة ذاتها للدين – بل صارت الكنيسة سلطة زمنية إلى جانب السلطة الروحية ، صارت تعزل الملوك وتوليهم ، وتجيّش الجيوش ، وتملك الإقطاعيات كأمراء الإقطاع ، وفوق ذلك كله تتحكم في الناس بالإتاوات الجشعة ، والتهديد بالطرد من ملكوت الله ، والإخضاع المذل لرجال الدين .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل قامت الكنيسة تؤلف نظريات «علمية» عن الكون والأفلاك ، وشكل الأرض وعمرها ، وعمر الإنسان .. الخ . وتلزم الناس بالإيمان بها على أنها جزء من العقيدة من لم يؤمن به فهو كافر وخارج على الله .

فلما قام العلم النظري والتجريبي ، القائم على أساس البحث والاستقراء والتجربة ، والذي ترجع جذوره إلى طرائق العلم الإسلامي ومناهجه في الأندلس كما قال «بريفولت» .. لما قام هذا العلم يثبت خطل هذه النظريات «المقدسة» ، قامت قيامة الكنيسة ، اعتزازاً منها بسلطانها ، وخوفاً على القطيع البشري الذي تحكمه أن يفلت من بين أيديها ، فيذهب عنها نفوذها وهيبتها ، وذَهَبُها وفضتها ، وما تتمتع به من استعباد للناس . وراحت في فظاظة ووحشية تقتّل العلماء وتحرّقهم لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وأنها ليست مركز الكون . ونال كوبرنيكوس وجاليلو على يديها ما يكفي لتكفير الناس من ذلك السلطان .

وظلت الهوة تتسع بين الكنيسة والعلماء من ناحية ، وبين الدين والعلم من ناحية أخرى ، والنفور يزداد ، حتى كان دارون ، الذي يوسم في الفكر الأوربي بالبطولة ، لأنه وجه الضربة القاضية للكنيسة ، فلم يعد وجودها بعد ذلك إلا لوناً من القصور الذاتي ، لا وزن له في حقيقة الأمور [١] .

في هذه الفترة ، وعلى هَدْي ذلك الصراع بين الكنيسة والعلم ، وترنح الكنيسة تحت معاول الهدم التي تتخذ «الحقائق» العلمية سلاحاً لها ضد «أساطير» الكنيسة .. انفلت الناس من السلطان الجائر الذي كان يخضعهم من قبل ويذلهم . وشعروا أنهم «يتحررون» . ولكنهم في ثورتهم الجامحة المنفلتة من القيد ، لم يقفوا ليسألوا أنفسهم : هل الكنيسة هي الخاطئة أم الدين هو المخطئ .. بل أخذوها حسبة واحدة مختلطة الأجزاء ، ورموا الكنيسة والعقيدة في الله معاً من قلوبهم وأفكارهم ، وعادوا إلى وثنيتهم اليونانية الرومانية الأولى .. ولكن مع فارق خطير ..

ففي تلك الوثنية الأولى كانوا يؤمنون بـ «الدين» ثم تنحرف أفكارهم في تصور طبيعة

---

(١) انظر كتاب «معركة التقاليد» فصل «جولة مع التاريخ» .

القوة الخالقة المدبرة ، فيتصورونها آلهة متفرقة ، ثم يتصورون العلاقة بينها وبين البشر علاقة مشاحنة دائمة وبغضاء ..

أما اليوم فهم يقتلعون الدين من أساسه ..

لقد «تقدموا» ! لم تعد تنطلي عليهم الأساطير !

لا حقيقة إلا ما تدركه الحواس !

و «الدين» و «الله» و «العقيدة» أمور لا تدركها الحواس !

* * *

لقد كانت «أزمة ثقة» ..

أزمة أفسدت العلاقة بين الناس وبين كل ما كان يصل إليهم عن طريق الكنيسة ورجالها ، سواء أكان حقيقة منزلة أم كان خرافة ابتدعها رجال الدين .

ولكن هذه الأزمة لم تقف عند حدها المعقول ، ولم يُفِق منها الأوربيون من قريب .

فبدلاً من أن ينظفوا الطريق من الأوحال والقاذورات ، ويسيروا فيه على نظافة لأن السير فيه جزء من طبيعة الحياة ذاتها ، وضرورة لازمة لكيان الإنسان .. بدلاً من ذلك فإنهم أهملوا الطريق كله وجعلوه من وراء ظهورهم ، وراحوا يَزْوُون وجوههم عنه في ضيق وعناد ونفور .

لقد آثروا أن يقطعوا الجناح الذي يرفرفون به في عالم العقيدة ، وعالم الطلاقة ، وعالم الروح .. لأن أثقالاً قد علقت بهذا الجناح ، أو وخزات قد أدمته .. ثم .. جثموا على الأرض لا يستطيعون التحليق بأرواحهم في عالم النور .

آثروا أن يقطعوا صلتهم بالسماء ، لأن بعض المدلسين قد استغفلوهم ردحاً من الزمن باسم السماء .. فلم تعد وجوههم تتطلع إلى أعلى ، وإنما صارت تنظر إلى تحت .. إلى الطين .. إلى الأوحال . ويقولون هذا هو الواقع .. لأنه هو الذي تدركه الحواس !

وانطلق «العلماء»[1] يشْرَعُون أسلحتهم لمهاجمة العقيدة وتشويه صورتها وتسخيفها ورميها بكل منكر من القول غليظ .

فرويد — في حمأة الجنس التي عاش فيها بتصوراته وأفكاره — قال إن العقيدة إفراز جنسي ، ينشأ من عقدة أوديب . من كبت الطفل لرغبته الجنسية نحو أمه ، بسبب وجود الأب الذي يزاحمه ويطرده من الطريق ! (وبهذه المناسبة لم يقل لنا فرويد كيف تنشأ عقدة أوديب في نفوس الأطفال الذين يموت آباؤهم قبل أن يروا النور ؟.. وكيف ينشأ الضمير

(١) وخاصة اليهود — مثل فرويد وماركس — الذين وجدوا في ثورة الناس على الكنيسة فرصة مناسبة لتحطيم المسيحية عليهم القديم .

في نفوس هؤلاء الأطفال وكيف ينشأ الدين ، وهما الإفراز المباشر لتلك العقدة اللعينة التي عذبت ذلك «العالم» العظيم !) .

وماركس — في حمأة الاقتصاد التي عاش فيها بتصوراته وأفكاره — قال إنها إفراز اقتصادي تنشئه طبيعة المجتمع «الطبقي» ، وتستغله الطبقة التي تملك وتحكم ، لإخضاع الطبقة المحكومة ، والتغرير بها لتنسى حقوقها المسلوبة ، تحت تأثير المخدر الذي يمنيها بالتعويض عن حرمان الأرض بحياة أخروية مزعومة (وبهذه المناسبة لم يقل لنا ماركس لماذا وجد الدين في المجتمع «الشيوعي» الأول الذي لم يكن يمارس الملكية الفردية — في ظنه — ولم ينقسم إلى طبقات ؟ وما المهمة التي كان يومئذ يستغل فيها الدين ؟!) .

وقال غيرهما من «العلماء» أشباهاً من هذه الانحرافات ..

وأخذت الفنون الأوربية — والماركسية خاصة — تجند طاقاتها للتشنيع على العقيدة والزراية بها .. أو في قليل تهملها كأنما ليس لها وجود في واقع الحياة ولا خط سير البشرية .. ثم تجيء الفنون المزوّرة التي تعيش في الشرق العربي اليوم بلا غاية ولا هدف ولا أصالة ولا وعي ، فتقلد هذا الأدب المنحرف ، بل تزيد إسفافاً عنه ، فتمثل الحقيقة الإلهية الكبرى في حقيقة بشرية محدودة فانية . وتمثل الملأ الأعلى وساحة الوجود الكبرى في حديقة أرضية . وتمثل حقيقة البشرية الواسعة المديدة في حياة حَارَة . وتمثل حقيقة النبوة والرسالة في شخصية حشاشين ! !

نكسة مخزية في عالم الإنسان وفي عالم الفنون !

* * *

العقيدة حقيقة عميقة في كيان هذا الوجود ..

كل ما في الوجود مهتدٍ إلى الله ، سائر على هداه :

«ربنا الذي أعطى **كل شيء** خلقه . ثم **هدى**»(١) .

وليست هذه «حقيقة روحية» فحسب ، تدركها الروح الواصلة ، المتصلة بضمير الوجود ، الشاعرة بوحدة الاتجاه ووحدة العبادة ، وأن كل شيء يسبح بحمده : «وإن من شيء إلا يسبح بحمده»(٢) «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»(٣) وكل شيء يتجه لعبادته : «سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم»(٤) .

---

(١) سورة طه [٥٠] .

(٢) سورة الإسراء [٤٤] .

(٣) سورة الرعد [١٣] .

(٤) سورة الحديد [١] .

ليست حقيقة روحية فحسب ، تدركها الروح الواصلة ، وإنما هي كذلك «حقيقة علمية» .

فأي شيء في هذا الوجود لا يسير على القانون الذي أراده له الله ؟ أي فلك من الأفلاك يجري على مزاجه الخاص ، غير مُرَاع لناموس الخلق ؟ أي كائن من الكائنات لا يسير على الفطرة التي فطره عليها الله ؟ أي كائن ينشئ له قانوناً خاصاً يضاد قوانين الله ؟

ذلك معنى العبادة .. الطاعة للخالق ، والعمل بمقتضى إرادته ..

إلا الإنسان : المخلوق الذي كرّمه الله وفضله ، ومنحه الإدراك والوعي ، فجعل طاعته لله واعية مُدْرَكَة ، لا كبقية الطاعات التي يتقدم بها الكون لمولاه .. ومنحه حرية الاختيار بعد أن علمه ووعّاه ..

عندئذ اختار فريق من بني الإنسان أن يخرجوا على طاعة الله ، جزاء التكريم الذي كرمهم به الله !

* * *

الكون كله يتوجه إلى الله بالطاعة والعبادة ..

«ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين» [1] .

وما كانت تملك السماء والأرض إلّا الطاعة حين يأمرهما الله . فهو الخالق ، وهو الذي أودع فيهما الناموس الذي تتحركان به وتأتيان به إلى الله .. ولكن التعبير الجميل الكريم ، لا يريد أن يشعر الخلق بالقهر . لا يريد أن يقول : إنهم لا يملكون إلا الطاعة . وإنما يجعل الطاعة منبعثة من كيانهم هم ، فكأنما حين يطيعون يستجيبون لفطرتهم الذاتية لا لقهر ينصب عليهم من خارج الفطرة . وهذه حقيقة وتلك . فإنما عند الله تلتقي الحقائق كلها ، من كل زوايا الوجود !

وكل شيء يسبح بحمده : «وإن من شيء إلا يسبح بحمده . ولكن لا تفقهون تسبيحهم» .

لا تفقهون تسبيحهم إذا حكمتم بظاهر الأشياء . بما تدركه الحواس .. فعندئذ سيبدو لكم الكون صامتاً لا يسبح ، جامداً لا يحس ، ميتاً لا حياة فيه .

ولكن الروح الواصلة تفقه تسبيح كل شيء ، لأنها – ككل شيء – تتصل بالله ، وتتطلع إلى حماه ، فتلتقي بشقيقاتها من أرواح الكون ، على نهج واحد ، واصل إلى هناك .

والروح مزية الإنسان العظمى .. إنها المنحة الكبرى في خلقته . المنحة التي نقلته نقلة بعيدة عن سائر الخلائق في الأرض . فرفعت عالمه أن ينحصر في نطاق المادة ، أو يتقيد

---

(١) سورة فصلت [١١] .

بقيود الحس . وأعطته القدرة على أن ينطلق من كل قيد ، فيتصل بالمجهول . يتصل بضمير الكون . ويتصل بالله .

* * *

والعقيدة غذاء الروح ..

ومن ثم فهي حقيقة بديهية في كيان الإنسان ، بقدر ما هي حقيقة بديهية في كيان الكون والحياة .. مع ذلك الفارق الذي يتميز به الإنسان . وهو «الوعي» بكل ما يجيش بخاطره من فكر أو وجدان .

ولا مناص للإنسان ، حين يواجه الكون من حوله ، وتنفعل به نفسه انفعال الأحياء .. أن يدرك بوعيه كما يدرك بما وراء الوعي أنه لا بد لهذا الوجود من موجد .

ولا مناص له أن يدرك أن هذه الدقة المعجزة التي يتسم بها الكون ، وهذا التناسق ، وهذا الترابط ، وهذا الإبداع ، لا يمكن أن يكون اعتباطاً بغير قصد ، ومصادفة بغير تدبير . وأن الموجد الذي أوجده لا بد أن يكون عاقلاً مدبراً حكيماً ، له غاية من الخلق والإبداع .

ولا مناص له حينئذ أن يدرك أن الموجد هو الله . الواحد الأحد الذي لا خالق غيره ولا شريك .

ذلك حين تستقيم الفطرة .

ولكن فطرة الإنسان تنحرف أحياناً فينحجب عنها النور .

تنحرف فلا ترى هذه البديهيات التي تنطق بها فطرة الوجود .

وتروح تخبط في التيه .. وتتصور تصورات شتى ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد كان أشد هذه التصورات انحرافاً تلك النكسة الحيوانية التي أصابت أوربا في جاهليتها الحديثة ، حين أرادت أن تحصر الإنسان في النطاق الحيواني الضيق ، نطاق ما تدركه الحواس ، وتحجب عنه آفاق الكون الطليقة الفسيحة التي لا تدركها الحواس وحدها وإنما تدركها الروح .

ومع ذلك فـ «العلم» الحديث ذاته ، الذي فتن أوربا حقبة من الزمن عن حقيقة الله ، يأبى اليوم أن يساير الفطرة الأوربية المنحرفة التي تريد أن تنكر الله ، وتنكر من الحقائق ما لا تدركه الحواس !

العلم لم يعد يعرف «المادة» فقد أطلقها التفجير الذري فأصبحت «طاقة» !

وصار العلماء يعرفون اليوم أن الكون ليس مجموعة مواد ، وإنما هو مجموعة طاقات . طاقات متحركة يتجاذب بعضها مع بعض برباط متين . ومن ثم ارتفع ذلك الحاجز البغيض الذي وضعته أوربا بين «الطبيعة» و «ما وراء الطبيعة» في فترة الانحراف والجمود .

وبقي أن تتفتح بصيرة القوم كما تفتحت أبصارهم ، فيعرفوا أن هذه الطاقات حية في حقيقتها ، وأن الرباط الذي يربط بينها هو الحب ، وأنها كلها مهتدية إلى الله ، لأنها تسير وفق الناموس الذي أراده الله .

أما العقيدة فقد أدركت ذلك منذ القدم .. في عهود سحيقة من التاريخ .. قبل أن يصل العلم إلى شيء في هذا السبيل .. لأن الروح المهتدية إلى الله هي أكبر منابع «المعرفة» في هذا الوجود .

* * *

والعقيدة في الله هي أضخم الحقائق في حياة الإنسان ، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود .

إنها هي التي تكشف له حقيقته الجوهرية الفذة .

هي التي تكشف له عمق نفسه واقتدار طاقاته .

هي التي تكشف له عن مهمته الخطيرة في كيان الوجود كله .. مهمة الخلافة عن الله .

وعندئذ تكشف له عن حقيقة صلاته بالله ، وصلاته بالكون والحياة .. وأخيه الإنسان .

* * *

حين تتأصل العقيدة في النفس فإنها تصل بين الإنسان وبين الحقيقة الكبرى — حقيقة الألوهية — بشتى المشاعر ، من الحب والرهبة والخوف والطمع والأمل والرجاء .

وتصل بين الإنسان والكون والحياة بصلات من التعاطف والمودة والقربى .

وتصل بينه وبين أخيه الإنسان برباط من الحب الحيّ المتدفق الفياض .

وتربط كيان النفس ، فتستقيم على المنهج الواصل ، توحد بين طاقاته المتفرقة وأوجه نشاطه المتباينة ، فتجعلها طريقاً واحداً ذا غاية واحدة . وتوحد بين الدنيا والآخرة ، والعمل والعبادة ، والأرض والسماء .

وكل واحد من هذه المشاعر يصلح ميداناً لألوان لا نهاية لها من الفن . هي من الضخامة والشمول والعمق ، بحيث تخاطب «الإنسان» في جميع حالاته وأجياله وبيئاته . لأنها تخاطبه في أعمق أعماقه . تخاطبه من حيث هو «إنسان» لا من حيث هو قطعة من هذا الجيل أو هذه البيئة أو ذلك المكان .

ومن ثم فهي فنون «إنسانية» باقية ما بقيت الحياة .

* * *

وليس من الضروري أن تكون تعبيراً مباشراً عن مشاعر العقيدة وسبحاتها ووجداناتها . وإن كانت هذه بطبيعة الحال فناً أصيلاً رائعاً يصل إلى القمة من عالم الفن ، حين يؤدى بأداء صحيح .

ولكن المهم هو تصوير الحياة من خلال العقيدة ، وإبراز حقيقة العقيدة العميقة في كيان الحياة .

إن العقيدة هي التي قادت خطى البشرية في ظلام القرون ، وأخرجتها من الحس الحيواني الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس ، إلى الحس الإنساني الذي يؤمن بالغيب والمجهول ، ويدرك من التناسق والقصد في هذا الوجود ما يبحث له عن مبدع . وهي التي تربط الكيان البشري بهذا الوجود ، كما تربط بين الإنسانية وبين خالقها الذي انبثقت من إرادته برباط وثيق من الحب والتطلع والرجاء .

هي التي أطلقت الإنسان من إسار جسده الجاثم على الأرض فاستطاع أن يحلق بروحه في السماء .

هي التي وسعت له مجال حياته ومجال مشاعره وأفكاره ، فحررته من حدود هذه الأرض ، وهذه الحياة الدنيا ، ومنحته الاتصال بالكون الأكبر ، والاتصال بالآخرة وهو بعد في دنياه .

والفن الصحيح لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة .

ينبغي أن يصورها من خلال النفوس الحية التي تعيش فيها وتتأثر بإيحاءاتها . يصور كيف تتأثر هذه النفوس بالعقيدة وكيف يصبح سلوكها وكيف تكون تصرفاتها . وكيف يتحدد موقفها من كل حدث وكل إنسان وكل شيء في هذه الحياة .

كما يصورها من خلال النفوس التي تفرغ من العقيدة ، فتنحرف وتضل ، وينحصر تفكيرها وتصورها وشعورها في نطاق صغير محصور ، آسنٍ لأنه محجوب عن الاتصال بالكون المتحرك الكبير .

ويصور البشرية كلها في تاريخها كله على أساس هذه القاعدة الإيمانية وأثرها في واقع الحياة ، في حدود الواقع الصادق الذي لا تكتمل صورته في حياة فرد أو حياة جيل ، وإنما تكتمل على اللوحة العريضة التي تسع الأفراد والأجيال .

المهم أن تحس دائماً بحقيقة العقيدة ، سواء كانت موجودة في النفس ومؤثرة في توجيهها إلى طريق معين وسلوك معين ، أم غائبة عنها ، مؤثرٌ غيابها في توجيه هذه النفس في طريق الضلال والحيرة والاضطراب .

وهنا يفترق الفن الإسلامي عن الفن الغربي الحديث ، والفن العربي المزوّر الذي ينقل عنه نقل القرود ونقل العبيد .

ففي هذا الفن الأخير لا تحس بوجود العقيدة وأثرها في الحياة . لا تحس أن الحياة مرسومة من خلال العقيدة ، سواء من خلال وجودها أو تغيّبها . بل تجد تعمّداً في إغفال

العقيدة وعدم ذكرها في مجال الفن ، ولا التعرض لها .. إلا أن يكون التعرض سخرية بالدين والمتدينين !

وقد يكون هذا «واقعاً» بالنسبة لأوربا ، لأنها تعيش اليوم بمعزل عن العقيدة .

ولكنه واقع صغير منحرف ضال .. واقع جيل من الأجيال شردته الأحداث وأخرجته عن صوابه .

والفن الأصيل ليس مأذوناً أن يصور هذا الواقع الصغير المنحرف على أنه الأمر الواقع فحسب ! وإنما يصوره على حقيقته : على أنه ضلال وانحراف . فالأشياء – كما قلنا من قبل[1] – لا تستمد كيانها من مجرد وجودها ، وإنما تستمده من وجودها الصحيح وإلا فهي خطأ ، ولو بقيت ألف عام .

والفن الأصيل لا يستمد كيانه ولا مقاييسه من الواقع المنحرف لجيل من الأجيال . إنما يستمد كيانه ومقاييسه من حقائق الكون الكبير . ذلك أنه تعبير جميل عن حقيقة الكون وحقيقة وجوده .

ومن ثم ينبغي أن يبرز الفن حقيقة العقيدة بمقدار ما هي حقيقة كونية عميقة شاملة ، وينبغي أن يرسم من خلالها كل حقائق الحياة . سواء كانت موجودة وحية ومستولية على النفوس ، أو غائبة عنها ، تاركة إياها للانحراف والضلال .

وحين يعبر الفن – بوسائله التعبيرية الجمالية الخاصة – عن حقيقة العقيدة في ذلك الإطار الواسع ، فإنه لا يعمل على رفعة البشرية وإطلاقها من إسار الضرورة والقيد والانحسار في النطاق المحدود فحسب ، بل إنه – من الوجهة الفنية البحتة – يكون فناً «كونياً» واسعاً ، لأنه يعبر عن حقيقة الوجود .

---

(١) فصل «الواقعية في التصور الإسلامي» .

الفن الإسلامي
حقيقته ومجالاته

في الفصول السابقة استعرضنا الخطوط العريضة للفن الإسلامي ومجالاته المختلفة ، وصارت لدينا ـ فيما أحسب ـ فكرة عن حقيقة هذا الفن ، والمجالات التي يعمل فيها ، والرقعة التي يطل عليها من صفحة الوجود .

رقعة فسيحة تشمل كل حقائق الوجود .

ولقد تبين لنا من خلال استعراض هذه الخطوط العريضة أن الفن الإسلامي ليس هو الفن الذي يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة في صورة فلسفية ، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات . وإنما هو شيء أشمل من ذلك وأوسع .. إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود ، من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود .

ونريد في هذا الفصل أن نجمّع هذه الخطوط العريضة فنخرج منها بصورة شاملة للفن الإسلامي ، حتى إذا عرضنا نماذج من هذا الفن في الفصل القادم ، عرضناها على ضوء ما ندركه من خصائص هذا الفن ومفاهيمه .

* * *

ليس من الضروري أن يتحدث الفن الإسلامي عن الإسلام : حقائقه ، وعقائده ، وشخصياته ، وأحداثه ، وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات .. ولكنه يتناولها ، كما يتناول الوجود كله ، وكل ما يجري فيه ، من زاوية إسلامية ، ويستشعرها بحس إسلامي .

قد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذي ينبثق من ضمير الحياة .

قد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم .

قد يتحدث عن نبتة وحيدة في الصحراء .

قد يتحدث عن الليلة المقمرة .

قد يتحدث عن طفلة شريدة .

قد يتحدث عن مواجع البشرية .

قد يتحدث عن ضربة من ضربات القدر .

قد يتحدث عن صراع الناس في الأرض .

قد يتحدث عن بطل أسطوري .

قد يتحدث عن ذلك كله فيكون فنه إسلامياً ، إذا تلقاه في حسه بتصور الإسلام الصحيح وعبر عنه بروح ذلك التصور .

وقد يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو عن غزوة من غزواته ، أو عن حقيقة من حقائق العقيدة ، فلا يكون فنه إسلامياً إذا تحدث عنه بغير هذه الروح ، ودون إدراك لحقيقة التصور الإسلامي .

لو حدثنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً ـ على أنه « بطل » من أبطال البشرية . على أنه جماع الخير وممثل الفضائل . على أنه شخصية عبقرية متعددة الجوانب عميقة الغور .. فإلى هنا لا يكون فنه إسلامياً مع أنه يتحدث عن رسول الإسلام ذاته ، ويتحدث عنه بروح الإعجاب والتقدير !

إنه يتصور الحياة البشرية ـ فضلاً عن قمة هذه الحياة المتمثلة في النبوة ـ على أنها حقيقة أرضية منقطعة عن حقائق الكون . ويتصور النبوة على أنها ضخامة بشرية منقطعة عن الحقيقة الكبرى ـ حقيقة الألوهية .

وليس هذا تصور الإسلام .. !

ولكنه حين يصورها على أنها حدث كوني ، يلتقي بناموس الوجود الأكبر المهتدي إلى الله بجميع طاقاته وجميع كائناته .. حين يصورها على أنها نور كوني مشع لأنه قبسة من نور الله .. حين يصورها على أنها إشراقة كونية أشعلت الحياة على وجه الأرض وأنارت لها الطريق لكي تسير على النهج ، وتتوحد في اتجاهها مع اتجاه الكون الكبير .. حين يصورها على أنها حقيقة واصلة بين السماء والأرض ، تسير بقدميها على الأرض وترفرف بروحها في السماء . حين يصورها على أنها الصورة المشرقة للخلافة عن الله في الأرض .. فحين ذلك يكون فناً إسلامياً صادق التصوير لحقائق الإسلام .

وحين يصور غزوة بدر ـ مثلاً ـ على أنها معركة حدثت في الأرض بين جنود الخير وجنود الشر ، وأن جنود الخير على قلتهم قد انتصروا على ضِعْفِ عددهم من الناس لأنهم أصحاب عقيدة أو لأنهم على الحق وأعداؤهم على الباطل .. فربما يكون قد دخل مجرد دخول في عالم الإسلام والفن الإسلامي .. ولكنه لم يَرْقَ فيه صعداً ، ولم يصوره في الرقعة الفسيحة التي يحققها الفن الواصل المنير .

أما حين يوسع رقعتها فيصورها على أنها سنة من سنن الكون : أن النور يطرد الظلمة ، والهدى يطرد الضلال . حين يصورها في ساحة القدر العليا .. كيف تدخل قدر الله فقاد الجماعة المسلمة من حيث أراد المسلمون لأنفسهم ، من معركة صغيرة في سبيل الغلبة المادية على متاع من متاع الأرض ، إلى المعركة الحقيقية الكبرى العميقة في كيان الوجود ، معركة

العقيدة ، معركة الفرقان بين الحق والباطل إلى آخر الزمان[1] فانتصروا من حيث لا يشعرون على معنى الشرك كله ومعنى الضلال كله . وتقررت حقيقة العقيدة في هذه الأرض ناصعة جلية خالدة . وارتفع الإنسان على نفسه . على عالمه المباشر الذي يعيشه بحواسه ، إلى العالم الأكبر الذي يعيشه بروحه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »[2] .. حين ذلك يكون فناً إسلامياً عالياً ، لأنه ينقل الحادث المفرد واللحظة العابرة إلى دلالتهما الكونية في الساحة الخالدة .. فيكون صادق التعبير عن حقائق الوجود وحقائق الإسلام .

وعلى هذا النسق نستطيع أن نتصور حقيقة الفن الإسلامي ومكانه في الفنون .

* * *

ومجالات الفن الإسلامي هي كل مجالات الوجود مرسومة من خلال النفس المؤمنة المتفتحة بالإيمان .

فحين يتحدث عن الكون .. عن « الطبيعة » .. فهو يراها خليقة حية متعاطفة ، ذات روح تسبّح وتخشع ، وتغضب وترضى ، وتصادق وتعادي .. تصادق الحق وتغضب على الباطل .. ويرى في كل كائن نوعاً من الحياة والروح ، من وراء الأشكال التي قد تبدو جامدة أو ميتة . كما يقول القرآن عن السماء والأرض : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين » . وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » .

وحين يتحدث عن الخلائق « الحية » من حيوان وطير ونبات ، فهو يحس نحوها بالتعاطف والمودة ووشائج القربى التي تصل كل الكائنات بعضها ببعض ؛ وتصل بين الأحياء خاصة في هذه الأرض .

وحين يتحدث عن الإنسان فهو يرى فيه خليفة الله في الأرض . فهو ليس إلهاً ولا راغباً في أن يكون إلهاً أو شبه إله . فذلك كله ليس حقيقة . والحقيقة الواحدة أن للكون إلهاً واحداً هو الله . ولا ينبغي أن يكون فيه أكثر من إله ، ولا أشباه إله . والإنسان من جهة أخرى ليس كمية سالبة تتحكم فيها قوى الاقتصاد والمادة ومختلف الجبريات الأرضية . فذلك كله ليس حقيقة . والحقيقة أن الإنسان عنصر إيجابي في هذا الوجود . محسوب

---

(١) يعني التعبير القرآني بتقرير هذه الحقيقة الكبيرة في قوله تعالى : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ويبلغ الفن الإسلامي قمته حين يتناولها من هذه الزاوية التي يشير إليها التعبير القرآني .

(٢) سورة الأنفال [٧ ـ ٨] .

حسابه في تصميم الكون ، ومسخّر له السماوات والأرض من عند الله . والحياة متأثرة بأفعاله سواء في الخير أو الشر . وإرادة الله ماضية عن طريقه ومن خلال وجوده وتصرفاته .

وهو كذلك مخلوق ليس بالملاك ولا بالشيطان .. وإنما هو إنسان !

وهو مشتمل على قدرات وطاقات ترفعه إلى أعلى حين يعرفها ويحسن استخدامها . ولكنه مشتمل كذلك على منافذ للضعف ومنافذ للغزو ، ينفذ منها عدوه الأصيل وهو الشيطان . والمعركة دائرة على أشدها لا تفتر بين الإنسان والشيطان منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والإنسان الأعلى يقضي حياته – رغم ضعفه البشري – يحاول أن يسد في نفسه منافذ الشيطان . وهو إنسان بقدر هذه المحاولة ، وبقدر ما يصطبر عليها أمام شتى المغريات .

وفي ميدان الصراع بين الإنسان والشيطان يجد الفن الإسلامي آفاقاً واسعة وجوانب رائعة ، وحقولاً خصبة للإبداع الفني الأصيل .

والإنسان يصوَّر في لحظة القوة ولحظة الضعف . ولكن يُهتف له دائماً من جانب الصعود . فجانب الهبوط موجود من نفسه لا يحتاج إلى هتاف ! ولحظة الضعف لا تحتاج إلى تسجيل !

لحظة الجنس الطاغية التي تُفْقِدُ الإنسان ضوابطه ، فلا يملك نفسه وينجرف في التيار .. هذه اللحظة بكل ما فيها من انفعالات عنيفة ودفعات دافقة ، لا تستحق أن يقف عندها الفن يصورها تصوير المعجب بها ، المهتز لها ، المتفنن في تسجيل دقائقها ، الحريص على إبراز كل جزئية من جزئياتها ، المستمتع بها ، الذي يريد أن ينقل هذه المتعة للآخرين[1] .

لا تستحق .. لأنها لحظة هبوط وليست لحظة ارتفاع .

لا تستحق أن يقال فيها الشعر وتصفها القصة وتصورها اللوحة المرسومة أو الصور المتحركة . لأنها ليست في سبيل توكيد حقيقة الإنسان . وإنما هي تؤكد الجانب الأرضي المحدود من الإنسان . وهذا ليس في حاجة إلى توكيد ! فهو حقيقة غليظة جاثمة بكل غلظها على الأرض . حقيقة واضحة مقررة يشترك فيها الحيوان والإنسان . ومن ثم لا يختص بها الفن الإنساني . وإنما الفن الإنساني موكل بتسجيل « الإنسان » . تسجيل الخصائص التي تفرد بها هذا الإنسان وتميز بها عن سائر الكائنات في الأرض . فإذا سجل لحظة الوجود « الحيواني » فعلى أنها وجود حيواني ، لا على أنها قمة يرتفع إليها الإنسان !

لقد يخيل للإنسان في ساعة الشهوة الجارفة التي يسميها « الحب » خطأ منه ، أنه يحقق كيانه الأسمى ، ويرتفع على الواقع الصغير واللحظة العابرة فيتصل بآفاق الوجود العليا وحقائق

---

(١) لا يدخل في حسابنا بطبيعة الحال أولئك الذين يريدون أن يفسدوا المجتمع عن عمد ويشيعوا الفاحشة فيه لغرض ملتو خبيث ، وإنما نتحدث عن الذين يظنون – مخلصين – أن ذلك فن من الفنون .

الكون الكبير . وذلك ليس حقيقة .. إلا أن يكون هذا الحب خالياً من الدنس : دنس المخالفة عن نواميس الحياة . وكل ما يحدثه الحب الشهواني – أحياناً – من « تهيؤات » الرفعة والطلاقة ، فهي كتهيؤات المخمورين .. لا تعبر عن الحقيقة . ومن ثم لا تستحق حفاوة الفن ، ولا تستحق حفاوة الإسلام !

ولا يحتاج الأمر إلى جدل بشأن ما تشتمل عليه تلك اللحظات الهابطة من لذة وإمتاع ! فتلك بديهية من بديهيات التجربة البشرية الحسية الأولية : أن الشهوات كلها مغرية ومحببة للإنسان : «زين للناس حب الشهوات .. » ولكن للإنسان طاقات أعلى وآفاقاً أرحب ، يستطيع أن يحس فيها « بجمالٍ » أرفع وأعلى ، هو ضبط هذه الشهوات – رغم ما لها في نفسه من إغراء وتزيين – والاكتفاء منها « بالطيب » النظيف .. ثم هناك درجات أعلى ، قد لا يصل إليها كل إنسان – ولكنها موجودة رغم هذا في عالم الواقع – وذلك حين لا يقف الإنسان عند « ضبط » هذه الشهوة وهو منجذب إليها في داخل نفسه – وتلك في ذاتها مرتبة رفيعة وعالية – بل يستطيع كذلك أن يحس إحساساً حقيقياً بالنفور من كل متعة هابطة ، والتقزز من كل عمل فاحش .. ولا يشعر أنه محروم مع ذلك من المتاع ، بل كاسبٌ متعة الشعور بالنظافة والاستعلاء !

وتلك قمة الإنسانية .. القمة التي تحاول التربية الإسلامية أن تصل إليها . بهديٍ من الله ورسوله ، والتي يرسم الفن الإسلامي لمحات منها ، حين يستطيع الفنان المسلم أن يصل إلى هذا المستوى الرفيع في تجاربه الشعورية الذاتية .

وإنما يعالج الفن الإسلامي موضوع العلاقة بين الجنسين من خلال تصوره لهذه العلاقة .. من خلال تحقيقها لأهداف الحياة العليا .. من خلال رفعها للرجل والمرأة كليهما إلى مستوى الإنسانية .. من خلال حثها كلاً من الرجل والمرأة على إبراز أجمل ما عنده وأرفع ما عنده .. من خلال توسيع دائرة الشوق الجنسي حتى يشمل الأشواق العليا المتصلة بصميم الكون وفطرة الحياة ، والتي لا تقف عند اللحظة العابرة واللقاء العارض بل تمتد حتى تشمل الحياة كلها ، ونظام الحياة المستمد من الحقيقة الكبرى المسيطرة على كل شيء في هذه الحياة .

وقد يعالجها كذلك من زاوية الهبوط والضعف .. حين تصبح هي شاغل الحياة ، ومزلقاً يؤدي إلى الهبوط عن آفاق الحياة العليا . حين تصرف الإنسان عن الاشتغال بالمشكلة الكبرى في حياة الأرض : مشكلة إحقاق الحق والعدل الأزليين ، في السياسة والاجتماع والاقتصاد وعالم الفكر وعالم الروح .. مشكلة الصراع مع الشر في جميع صوره وأشكاله .. مشكلة تحقيق الغاية العليا من وجود الإنسان وخلافته عن الله في الأرض . ولكنه يعالجها حينئذ على أنها هبوط لا على أنها ارتفاع .

فإذا أراد شخص أن يقول : إما لحظة الجنس وإما لا فن على الإطلاق .. فليقل ذلك .

ولكن فليعرف أنه – بالمقاييس الكونية والمقاييس «الإنسانية» – شخص منحرف . وأنه لا يستطيع – مهما بدا في نظر نفسه جميلاً ورشيقاً وممتعاً – أن يفرض انحرافه ذلك على سنن الكون والحياة .

والفن – لا شك – أوسع من عالم الجنس لأن الحياة أوسع وأرحب من أن تنحصر في هذا النطاق . وحين «يُحْرَمُ» الناس من متعة الشهوة في عالم الفن – ولا حرمان في الحقيقة للإنسان المترفع ، الذي يتعود حسه على النظافة في كل شأن من شؤون الحياة – فعليهم أن يتعودوا تذوق مستويات أعلى من الجمال : المستويات الفسيحة الرحيبة ، التي تشمل الحياة في نطاقها الأوسع ، والتي تعوض عن الجمال الأصغر الذي تفوته بالجمال الأكبر الذي تسعى إلى تحقيقه .. جمال «الخير» وجمال «الحق» وجمال «العدل» .. وجمال إقامة الحياة البشرية على هذه المعاني الجميلة كلها ، والنضال المستمر في سبيل هذا الهدف ، الذي يتصل – حين يتحقق – بسنن الكون كله والحياة .

* * *

ومراعاة «التناسق» ذاته – وهو عنصر من عناصر الجمال الكوني – تقتضي أن تكون رقعة الجنس في مكانها الصحيح من لوحة الفن ، التي هي في الواقع تصوير جميلٌ موحٍ للوحة الحياة .

وقد يقال إن الفنان شخص «مختل النسب» بطبعه ! وإن الجمال هو هذا الاختلال !

وتلك نظرة سطحية منقطعة عن الحقيقة الكبرى .. حقيقة الكون المتناسق في كل حركة من حركاته وكل جزئية من جزئياته ، تناسقاً لا يختل – مع حركته الدائمة منذ الأزل ، حقباً لا يعرف مداها إلا الله .

نعم إن الفنان كائن ذو حساسية خاصة . فهو لا يحس الأشياء كما يحسها البشر العاديون ، ولا بالنسب التي تراها بها العين الآلية المجردة ، التي لا «تنفعل» بما تراه .

ولكن ذلك ليس معناه اختلال النسب في حس الفنان !

إنه – بتأثير هذه الحساسية المنفعلة بالأشياء – يحس **كل شيء** أضخم من «حقيقته» الظاهرية التي تراه بها العين الآلية المجردة . ولكن مع احتفاظها بنسبها بعضها إلى بعض ، لأن تكبير اللوحة كلها لا يقتضي الإخلال بجزئياتها ، وإنما هو يبرز هذه الجزئيات كلها ، ويجعلها – في مجموعها – واضحة قريبة يتملاها الحس بلا عناء .

وتلك هي موهبة الفنان وعبقريته . فالفنان هو العدسة المكبرة التي تكبر حقائق الحياة وتوضحها للرؤية . أو العدسة المقربة التي تقرب المنظر للحس حتى تبدو جزئياته البعيدة المختلطة المبهمة واضحة مفصلة محددة – مع ترابطها وتناسقها . أو هو العدسة «الكاشفة» التي تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التي لا تراها العين الظاهرة .

ولكن هذه العدسة – أياً كان وصفها – حين تقوم بعملها في التكبير أو التقريب أو الكشف – لا تخل بنسب الأشياء بعضها إلى بعض ، ولا تفسد ما بينها من تناسق وارتباط .

وإنما أقرب إلى الحق أن يقال إن « بعض » الفنانين قد اختلت النسب في نفوسهم ، فهم يرون الحياة كلها من خلال جزئية واحدة من جزئياتها : من خلال الجنس ، أو من خلال الصراع الطبقي ، أو من خلال التفسير المادي للتاريخ .. وهؤلاء مختلون بوصفهم بشراً وكذلك بوصفهم فنانين . فليس للفن مقياس وحده ينعزل به عن مقاييس البشرية الحقيقية ، التي هي في مجموعها إحدى الجزئيات المتناسقة في مقياس الكون الكبير .

وعلى الرغم من كل الحقائق الجميلة التي قد يعثر عليها فنان له هذه الاختلالات ، فمن المسلم به من بديهيات هذا الكون – وبديهيات الحس البشري – أن الحقيقة الأشمل هي الحقيقة الأجمل ، وأنه كلما اتسعت رقعة اللوحة وتناسقت جزئياتها كان ذلك أقرب لحقائق الوجود ، وأقرب للتصور البشري السليم ، الذي كان من نعم الخالق الباهرة أن يجعله متجاوباً مع روح الكون الكبير .

ومن ثم يصبح هذا الفنان المختل فناناً صغيراً مهما أوتي من براعة التصوير في الجزئية المفردة التي يتلقى الحياة من خلالها ويصورها من خلالها كذلك . ويكون الفنان الذي يتلقى الحياة ويصورها من خلال مساحة أوسع وجزئيات أكثر عدداً وأكثر ترابطاً .. أعظم من الفنان المختل ، بجميع المقاييس .. المقاييس البشرية والمقاييس الكونية على سواء .

ونجيء الآن إلى لبس قد يتبادر إلى الذهن من هذا التصور : إن العمل الفني – وخاصة إذا كان قصيدة غنائية أو خاطرة أو أقصوصة ، لا قصة ، أو كان لحناً موسيقياً أو لوحة مرسومة – لن يتسع لكل حقائق الوجود دفعة واحدة . لن يتسع لها في حس الفنان ، ولن يتسع لها في الرقعة المتاحة للتعبير .

ومهما يكن في حس الفنان من شمول وفسحة فلا بد من لحظات « متخصصة » يحس فيها بخاطر مفرد ، أو لمحة عابرة تلتقط جزئية واحدة من جزئيات الكون أو الحياة ..

وهذا كله صحيح . ولا بد من « التخصص » في الالتقاط والتعبير ساعة بعد ساعة ، في نفس الفنان ونفس كل بشر في هذا الوجود . فالحس البشري لم يهيأ بفطرته للنظرة الشاملة المتكاملة في كل لحظة من لحظات الحياة .

ولكن هذه الحقيقة لا تصرفنا عن أمرين مهمين .

الأمر الأول أن الفنان الكبير – وهو الإنسان الكبير – لا « تنفصل » في حسه الجزئيات بعضها عن بعض ، حتى وهو يلم في حسه أو في تعبيره بجزئية واحدة من الجزئيات .

ولنتصور مثلاً أنه يلم بجزئية الجنس . أو جزئية الصراع الطبقي .

إن شيئاً من ذلك لا يقوم في حسه منفصلاً عن بقية الوجود . إنه في « هذه » اللحظة

يحس بخاطرة من خواطر الجنس .. ولكنها لا تستغرقه بوصفها جنساً منقطعاً عن حقائق الحياة ، إلا حين تهبط إلى مستوى الحيوان الذي يعيش حياته جزئيات منفصلة لا يرتبط بعضها ببعض . أما إذا أحسها «عواطف» حب نظيف فيه استعلاء وترفع .. فهو هنا مرتبط بناموس الوجود الأكبر وجماله الشامل ، ولو لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الناموس . وهو ليس في حاجة إلى هذا الذكر الصريح في كل مرة ولا في أية مرة ، فإنما يكفي أن ينقلنا – بالإيحاء والتأثير – إلى هذا العالم الفسيح ، لندرك أنه غير مقطوع الصلة بجمال الكون الكبير .

وكذلك حين يلم في «هذه» اللحظة الرائعة بالصراع الطبقي . إن هذا الصراع لا يستغرقه بوصفه ظاهرة علمية ، ولا بوصفه الحقيقة المفردة التي يتلقى من خلالها كل حقائق الحياة .

ولكنه ليس في حاجة إلى خطبة وعظية ليثبت لنا أنه مدرك لنواميس الكون العليا ، وأن الحق والعدل الأزليين يستنكران الظلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي .. وإنما يكفي أن يعطينا هذا الإيحاء – بصورة من الصور – لندرك اتساع الرقعة في حسه ، وعدم انحصارها في «مذهب» فكري معين ، أو نافذة واحدة من نوافذ الحياة .

وبهذه الطريقة يلم الفنان الكبير بجزئيات الحياة ، المتخصصة في كل مرة ، دون أن تكون في تخصصها منقطعة عن حقائق الوجود .

وبطبيعة الحال لا يفتعل الفنان هذه المشاعر افتعالاً لنقول عنه إنه فنان كبير واسع الآفاق ! فكل افتعال هو تزوير في الحقيقة البشرية وتزوير في الحقيقة الفنية ، سرعان ما ينكشف لحس القارئ البصير ، الذي يدرك بفطرته تزوير الافتعال وحقيقة الانفعال .

والأمر الثاني أن الكيان البشري المشتمل على جسم وعقل وروح ، ومئات من المشاعر المتباينة والأحاسيس المتشعبة ، يحوي قدراً من المرونة يسمح ببروز جانب من الجوانب في لحظة معينة وانحسار جانب آخر ، كما يسمح ببروز شعور معين في إحدى اللحظات يطفو على بقية المشاعر ويغطيها .. ولكن في هذا الكيان في حقيقة الأمر من الترابط والتماسك ما لا يسمح بانفصال جانب عن بقية الجوانب في أثناء بروزه في لحظة معينة ، ولا بانفصال شعور واحد عن بقية المشاعر ، وإن بدا للنظرة القريبة أن ذلك يحدث في بعض الأحيان !

الذي يحدث بالفعل أن جانباً أو شعوراً يغلب في لحظة على بقية الجوانب أو المشاعر . ولكنه لا ينفصل عنها . إلا إذا أصيب الإنسان باختلال مرضي كانفصام الشخصية أو ازدواجها . أما الكيان النفسي السليم فلا يحدث فيه قط ذلك الانفصال .

والنفس السليمة المتكاملة تتداول هذا البروز والانحسار بجوانبها المتعددة ومشاعرها المتباينة . بحيث تصبح – في مجموعها – شاملة لكيانها كله . لأنها في الحقيقة لا تثبت على بروز معين أو انحسار معين إلا إذا أصيبت بالاختلال .

والفنان الكبير – في مجموعه – يعبر عن مداولات النفس كلها في مختلف حالاتها ..

أي يعبر عن وقع الوجود كله في حسه ، من مختلف منافذه و بجميع أبعاده .. لا عن جانب واحد من جوانب هذا الوجود .

ويخلص لنا من هذين الأمرين حقيقة متكاملة : هي أن الفنان الكبير لا يعطينا في أية لحظة من لحظاته لمسة «متخصصة» بمعنى الانقطاع عن حقائق الوجود العليا ، وإنما يمنحنا في كل جزئية متخصصة قبسة من الوجود الأكبر ، تعمّق هذه الجزئية ذاتها في إحساسنا ، وتعطيها نكهة جميلة ، لأن فيها من شذى الوجود كله بالإضافة إلى شذاها الخاص . وأنه – في مجموعه – لا يعطينا الوجود من خلال جزئية واحدة ثابتة – كجزئية الجنس أو جزئية الصراع الطبقي – إلا أن يصلها في حسه وفي حس القارئ بالوجود الكبير ونواميسه ، فيعوضها بذلك عن ضيق المساحة وضآلة القدر . ومع ذلك فهو أضخم في عالم الفن وعالم الإنسانية كلما استطاع أن يعرض لنا الوجود من خلال نوافذه المتعددة ومجاليه المتباينة .. فذلك أقرب إلى إعطاء «حقيقة» الوجود .

* * *

و بمقتضى هذا الشمول والتكامل يعرض لنا الفن الإسلامي حياة البشرية من جميع جوانبها وفي جميع لحظاتها ، فلا يقف – مثلاً – عند لحظة الجنس يفصصها ويحللها ، ويعيدها ويكررها ، ويضخم كل جزئية فيها .. بينما يترك بقية اللوحة البشرية خاوية من التعبير .

إنه يعبر عن العلاقة بين الجنسين – بقدرها ، و بمواصفاتها التي سبق ذكرها – ثم ينطلق يصور بقية جوانب النفس وجوانب الحياة .

يعبر عن «الحب» في مجاله الأكبر ، الذي يشمل الحب الإلهي ، والحب الإنساني . وكل لون من ألوان هذا الحب يمكن أن يستغرق فناً بأكمله ، ولا يكون ضيق المساحة كالحب الجنسي ، لأنه حقيقة كونية كبيرة تتصل بالناموس الشامل كله ، ولا تختص بجزئية بسيطة من ذلك الناموس .

ويعبر على «الكره» في مجاله الأكبر ، كره الشر كله والانحراف كله ، والجهاد ضد هذا الشر بجميع صوره وأشكاله .

ويعبر عن «الصراع» في مجاله الأكبر .. صراع الشيطان وصراع البشر وصراع القوى وصراع القيم وصراع الأشياء . وكل لون من ألوان هذا الصراع يمكن أن يستغرق فناً بأكمله .. على شرط ألا «يتبلور» في صورة مذهب ، ولا ينقلب إلى وعظ مذهبي كذلك الذي يمارسه كتّاب الصراع الطبقي أحياناً وكتّاب التفسير المادي للتاريخ .

إن التعبير عن هذا الصراع هو في الحقيقة تعبير عن واقع البشرية ، بكل خيوطه المتشابكة ونسيجه المتباين الألوان . ومن ثم ينبغي أن يعرض من خلال نفوس بشرية لا من خلال

« أفكار » ولا « مذاهب » ولا « فلسفات » . وليس هذا تحريجاً على اعتناق الأفكار والمذاهب .. بل الأمر على العكس من ذلك . فالفن الإسلامي « يلتزم » تصوراً معيناً للحياة ، وللحياة البشرية بصفة خاصة ، ويعبر من خلال هذا التصور وحده . ولكن طريقة الفن في التعبير تختلف عن طريقة العلم وطريقة البحث الذهني المجرد . فإذا تحدثنا عن الصراع الطبقي أو التطور الاقتصادي في صورة مذهبية خالصة ، أو صورة تجريدية ، فذلك لا يختلف من الوجهة الفنية عن نظم المواعظ الخلقية في شعر ، أو تضمينها بصورتها المباشرة في حوار قصة أو مسرحية .. وهو ليس عملاً فنياً على أية حال . إنما ينبغي أن تبرز هذه المعاني كلها على حقيقتها « البشرية » أي من خلال تأثيرها في نفوس الناس . من خلال المشاعر والانفعالات والتصرفات التلقائية للناس .

والفن الإسلامي يعنى عناية خاصة بحقيقة الشمول والتكامل في النفس البشرية . فلا يحب – مثلاً – أن يُعرض الجانب المادي من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحي . ولا يحب أن تعرض الصراعات الاقتصادية والطبقية كأنها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية ، وتغفل بجانبها القيم المعنوية والروحية والأشواق الإنسانية العليا ، لأن ذلك بتر للحقيقة البشرية وتشويه لصورتها ..

إنه يحب – وخاصة في الفنون التي تعرض بطبيعتها رقعة واسعة من الحياة كالقصة والمسرحية – أن تعرض الصورة كاملة ، بمادياتها ومعنوياتها ، وقيمتها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، مترابطة متداخلة ممتزجة كما هي في حقيقة الواقع ، مؤثرة كلها بعضها في بعض ، ومتأثرة كلها بعضها ببعض ، مع إبراز القيم الروحية والمعنوية ، لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بصميم فطرة الكون ، المتجه بروحه إلى الله ، السائر على هداه . وحقيقة بشرية متصلة بصميم فطرة الإنسان ، الذي لم يصبح « إنساناً » مكرماً إلا بنفخة الروح العلوية في قبضة الطين .

أما الفنون التي تعرض بطبيعتها لمحة من الحياة البشرية في لحظة معينة ، كالقصيدة واللوحة ، فالإسلام يرحب فيها باللمحة الروحية والأشواق العليا ، أكثر مما يرحب بالحقيقة المادية وأشواق الجسد الغليظة .. تمشياً مع نظرته العامة التي ترى الروح أبرز في كيان الوجود وأحق بالإشادة والتسجيل .

وليس معنى ذلك أن الحديث عن الصراع الطبقي في قصيدة أو لوحة أمر غير مباح .. كلا ! ولكن معناه فقط أن يعرض الموضوع من خلال عذابات الروح ، والقيود الجائرة تغلّ النفس عن تحقيق كيانها الإنساني الكامل ، الخليق بخليفة الله في الأرض الذي كرّمه الله واجتباه ، ورسم له آفاقاً عليا من الحق والعدل ينبغي أن تحكم الحياة . ومعناه ألا نتحدث عن المصانع والإنتاج المادي على أنها – في ذاتها – تحقيق لكيان الإنسان . وإنما نتحدث

عنها – إذا لم يكن من ذلك بد – على أنها وسيلة يصعد بها الإنسان فوق عالم الضرورة ليستقبل الكيان الأعلى للحياة .

أما شوق الجسد الفائر فقد سبق الحديث عنه إنه لحظة هبوط لا تستحق التصوير والتسجيل .

أما حين تعبر القصيدة أو اللوحة أو اللحن الموسيقي عن أشواق الروح العليا ورفرفاتها الطائرة وسبحاتها الطليقة .. فذلك في نظر الإسلام فن صادق أصيل ، لأن هذه هي « اللمحة » المناسبة للتسجيل . اللمحة التي تحقق للإنسان كيانه الأعلى وتكمل له وجوده الأرضي المحدود .

وليس معنى ذلك أن تقتصر هذه الفنون على الرفرفات والسبحات .. وإلا فأين يذهب الألم والمواجع والأحزان .. وثقلة الضرورة القاهرة والضغط والصراع ومختلف الوجدانات التي تلم بالإنسان ؟

إنما نريد فقط أن نرد لهذه الرفرفات والسبحات قيمتها الفنية وقيمتها الإنسانية في وسط الصراع الطبقي والتفسير المادي للفنون !

* * *

ويرسم الإسلام صورة الحياة البشرية من خلال « الواقع » كما يرسمها من خلال التكامل والشمول .

ولكن نظرته للواقع تختلف عن نظرة المذاهب الواقعية المتفشية الآن في الفنون .

الواقع الإنساني في نظر الإسلام هو الواقع الأكبر الذي لا ينحصر في واقع المادة وواقع الحيوان . ولا ينحصر في واقع فرد ولا واقع جيل . ولا ينحصر في لحظة ضعف ولحظة هبوط .

فإن كان هذا كله حقيقة واقعة . فأين بقية الحقائق الواقعة في حياة الإنسان ؟ ولماذا ينفرد هذا الواقع الصغير وحده بالتعبير الفني دون سائر الوقائع الجديرة بالتسجيل ؟

إن كان الواقع حاضر هذا الجيل فأين تاريخ البشرية الماضي كله ، وأين مستقبل البشرية المنظور ؟ ولماذا يستولي الحاضر وحده على لوحة الفنون ؟

وإن كان الواقع هو النزوع الحيواني وحده في نفس الفرد المعاصر ، فأين سائر النوازع وسائر الأشواق ، وسائر الطاقات الكامنة في الكيان الإنساني الضخم العجيب الأسرار والتكوين ؟

وإن كان الواقع هو الأنانية والخسة والنذالة وحدها ، فأين المشاعر النبيلة والأشواق الطليقة للكيان الإنساني ، وهي تتمثل في مساحات ضخمة من حياة البشرية في تاريخها الغابر وأشواقها في المستقبل ؟

وكذلك قصة « الضعف البشري » .. فالضعف البشري سمة من سمات الكائن الإنساني ،

ولكنها ليست كل سماته . فإلى جانب لحظات الضعف البشري توجد جوانب القوى . وإلى جانب القيد الكابح والثقلة المقعدة يوجد الجناح الرفاف والشوق الطليق . وحياة البشرية ليست كلها «لحظة ضعف» . بل ليست كذلك حياةُ أي حيوان من الحيوانات الراقية ولا أي طير من الطيور !

فإذا جعلنا لحظة الضعف تشغل مساحة اللوحة الفنية كلها وتحجب بقية اللحظات ، فذلك مجافاة «للواقع» وإفساد «للتناسق» الذي ينبغي أن يحكم الفنون .

والإسلام «يعطف» على لحظة الضعف البشري ، ولكنه لا يجعل منها بطولة تستحق الإشادة والإعجاب .. والفن الإسلامي يلم بلحظات الضعف ، ولكنه لا يملأ بها اللوحة . ولا يقف يمجد للإنسان ضعفه ، ويمثله له أمراً «واجب» الحدوث ، أو أمنية المتمني ! ذلك أن التصور الإسلامي يقوم ابتداء على أساس تكريم الإنسان وضخامة دوره في الأرض وعظمة مركزه في الكون . ومن ثم فهو لا يمجد الضعف البشري – وإن كان لا يحتقر الإنسان من أجله – ثم يهتف له دائماً لينهض من الكبوة وتستقر قدماه على الأرض الصلبة ، ويمضي صعداً إلى الأفق السامق الوضيء .

وكذلك موقف الإسلام من «الواقع» في بيئة خاصة أو في جيل من الأجيال .. إنه لا يعتبره الواقع الأبدي ، إنما هو مرحلة من مراحل البشرية في طريقها الصاعد .. مرحلة مهتدية إلى النهج صاعدة نحو القمة ، أو مرحلة متنكبة منتكسة .. ولكن الطريق صاعد أبداً .. والإسلام حداء إلى الصعود . والفن الإسلامي أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود . لا بالوعظ المباشر . ولكن بالايحاء بما في طاقة الإنسان من مكنونات ، وما في الكون من موافقات لاستعدادات الإنسان وطاقاته ، وما هو مكلف إياه من مهمة ضخمة في الوجود ، محسوب حسابها في تصميم هذا الوجود .

بذلك لا ينحصر عالم الإنسان في لحظة الضعف ولحظة الهبوط . ولا يقف عندها يتطلع إليها تطلع المعجب المشوق فيسترسل فيها ولا يفيق !

* * *

والفن الإسلامي يوسع رقعة الحياة بوصل ما بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ؛ وما بين الإنسان والكائنات الأخرى ؛ وما بين الإنسان الفرد والجماعة ، وما بين الإنسان الفرد والإنسانية التي تعمر هذا الكوكب منذ حقب موغلة في التاريخ ، وما تزال تتطلع إلى مستقبل بعيد .

وبهذا الشمول والتعدد والامتلاء تصبح اللوحة الفنية أجمل وأكمل وأمتع . وتصبح أزخر بالحياة والحركة من كل لوحة تعرض جانباً واحداً من الجوانب ، وتهمل بقية عناصر الحركة والحياة .

والفنون التي تصر على أن تكون رقعتها هي الأرض وحدها – بمعزل عن السماء – لأنها تستنكف أن يكون للقوى «الغيبية» دخل في حياة الناس ، هي فنون ترتكب حماقتين في آن واحد !

الحماقة الأولى أنها تنكر حقيقة واقعة لا سبيل إلى إنكارها مهما بلغ البشر من التبجح والغرور !

حقيقة أن الإنسان لا يقوم وحده ! ولا يدبر حياته وحده ، ولا يحدد مصيره وحده !

أين – في هذه الأرض كلها – ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه أين يولد ومتى يولد ؟ أو يحدد لنفسه أين يموت ومتى يموت ؟

وأين ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه الصفات التي يكتسبها والصفات التي يرثها من أبويه ، فضلاً عن تحديد البيئة التي يولد فيها والظروف التي تتفاعل مع هذه الصفات وتلك البيئة ، ليكون من تفاعلها خط سيره في الحياة ؟

«وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت»[١] .

إنها لجاجة مضحكة أن ينكر الإنسان تدخل القوى «الغيبية» في حياته ، وأن يزعم أنه يقرر مصير نفسه بمعزل عن الله !

وليست دعوى الإشادة بإيجابية الإنسان وفاعليته – كما بينا من قبل[٢] – إلا ستاراً يخفي به هذا الجيل الشقي من البشرية رغبته في التمرد على الله . وإلا فقد وقع هذا الإنسان – حين انعزل بإيجابيته المزعومة عن الله – في حتميات لا أول لها ولا آخر ، كلها مهين ، وكلها مذل لكرامة الإنسان !

والحماقة الثانية التي ترتكبها هذه الفنون هي تضييق رقعتها وحرمان نفسها من فرص عديدة لإبراز ألوان من الجمال الفني كانت حرية أن تهتدي إليها وتبرزها لولا هذا الاصرار الأحمق على فصل ما بين السماء والأرض من صلات .

فهي أولاً تعرض «الإنسان» في صورة مشوهة مبتورة ، إذ تعرضه في جانبه الأرضي وحده ، جانب الضرورات القاهرة ، والواقع المادي القريب المحسوس ، ولا تعرضه – إلى جانب ذلك – في جانبه الروحي العلوي ، جانب الأشواق المرفرفة ، والواقع البعيد الذي تدركه الروح من وراء الماديات والمحسوسات . وبذلك تقص منه جناحيه المرفرفين ، وتتركه جثة جاثمة على الأرض لا تقدر على التحليق .

وهي ثانياً تخلي الصورة من جمال الحركة الخفية التي تدير الأحداث والأشياء والأشخاص ،

---

(١) سورة لقمان [٣٤] .

(٢) راجع فصل «الواقعية في التصور الإسلامي» .

وترتب لها موافقاتها ومفاجآتها ، حين تجعل « الأقدار » المسيطرة على هذه الأحداث والأشياء والأشخاص هي الأقدار المكشوفة المعلومة الملموسة المقدّرة ، من صراع طبقي ، أو مشاعر جسدية . أو قيم اجتماعية أو اقتصادية تُعطي لها قوة الحتمية والإجبار !

وذلك بدعوى الواقعية ... !

في حين يصرخ الواقع الحقيقي الذي تدركه الفطرة الحقة ، في وجه تلك الواقعية الزائفة : أن قوى الأرض كلها لا تملك أن « تلد » إنساناً بعينه في بيئة معينة وظروف معينة ، أو تحدد له عمره في تلك البيئة . أو تضمن له ألا يقع له كذا أو كذا من الأحداث !

إن الوجود في « واقع » معين لا يجوز أن ينسينا أن ذلك الواقع كله – بكل ما يشتمل عليه من سنن « حتمية » – هو جزء من إرادة الله الحرة الطليقة ، التي تملك تغيير هذا الواقع ، وتملك ألا تنشئه ابتداء . ولا تركب فيه تلك « الحتميات » !

ومن ثم لا تغني « الأقدار » المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة ، عن قدر الله الملفع بالغيب . المحجوب عن الأنظار !

والفن الإسلامي حريص على إبراز هذه الحقيقة ..

حريص على ابراز قدر الله من وراء الأحداث والأشياء والأشخاص .

وذلك لجملة أسباب :

السبب الأول : أن هذه حقيقة ! حقيقة واقعة لا تتم « واقعية » الفن دون إثباتها و إبرازها ووضعها في مكانها الصحيح من اللوحة الفنية المعبرة عن حقيقة الحياة .

والسبب الثاني : أن تتبع هذه الحقيقة وآثارها في الحياة التي تعرضها الفنون المختلفة ، عملية ممتعة في ذاتها ، لأنها تستجيب لحقيقة فطرية في داخل النفس : هي حقيقة التطلع الدائم إلى قدر الله المجهول ، الذي لا تملك كل قوى الأرض أن تكشف عنه ، مهما تلهفت إلى كشف الحجب واجتلاء الأسرار . والفن – ومهمته ، أو جزء من مهمته الإمتاع – قمين بأن يستجيب لهذه النزعة الفطرية ويقدم لها غذاءها الذي تشتهيه .

والسبب الثالث : أن رسم هذه الحركة الخفية التي تحرك الأحداث والأشياء والأشخاص دون أن تظهر بذاتها للعيان ، يعطي اللوحة جمالاً أخاذاً ، لأنه يستجيب لنزعة فطرية أخرى في بنية النفس ، هي نزعة الإيمان بما لا تدركه الحواس . وهي نزعة عميقة لا تقل أصالة ولا عمقاً عن نزعة الإيمان بما تدركه الحواس ! كلاهما خطان متقابلان في النفس البشرية ، يعملان معاً . كلٌ في اتجاه[1] . ومن شأن هذه النزعة أن تحب إبراز القوى الخفية ، التي تملك السلطان ولكنها لا تبين .

---

(١) راجع فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » في الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

والسبب الأخير : أن هذا يمنح اللوحة سعة هائلة ، حين يجعل وراء الأقدار المكشوفة المعلومة المقدرة ، التي تسيّر الناس في ظاهر الأمر ، قدراً آخر خفياً هو الذي يحرك تلك الأقدار المكشوفة . وبذلك لا ينتهي «المنظر» عند هذه «المقاطع» الحادة البارزة الملموسة ، وإنما يأخذ امتداداً آخر .. هو في حقيقته امتداد لا نهائي ، لأنه يتصل بالقوة الأزلية الأبدية التي لا بدء لها ولا انتهاء .

ثم إن إبراز القدر على هذه الصورة يحدث من توه تغيراً حاسماً في «جوّ» اللوحة المرسومة . فليس يبرز سماتها ويوضح معالمها فحسب ، بل كذلك يمنح الأشياء والأشخاص والأحداث معنى آخر ، و «قوة» أخرى . إنها لا تصبح أشياء وأشخاصاً وأحداثاً مفردة ، مقطعة الأوصال ، منقطعة عن حقائق الكون الكبرى وناموس الوجود الشامل ، وإنما تصبح لتوها – بلمسة واحدة سحرية – أشياء وأشخاصاً وأحداثاً ذات دلالة كونية ، وذات وجود عميق لا يزول ، لأنها اتصلت بالقوة الكبرى الكائنة وراء ظواهر الأشياء .. قوة الخالق المدبر المريد .

ومن ثم يطمع هذا الفن في «الخلود» !

* * *

والفن الإسلامي حريص على أن يلفت الحس إلى الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان . إنه يأخذ من الإسلام شموله وسعته وتعبيره عن فطرة الكون . ولذلك لا يحب أن يعرض الحياة مقطعة الأوصال مفرقة الأجزاء ، فتفقد معناها الشامل ومغزاها العميق . وإنما يعرضها كما هي في الحقيقة متصلة متناسقة مترابطة ، محكومة كلها بقانون واحد كبير .

وقد وصل العلم إلى شيء من أسرار هذا القانون الشامل الذي يجمع في طياته الوجود ، على هدى الطاقة الذرية وما تحويه من ممكنات . ولكن الفن الغربي المعاصر ما يزال متأثراً في أغلبه بروح العلم في النصف الأول من هذا القرن ، حين كانت سمته الغالبة هي العزل والإفراد والتخصيص ، لا التجميع والتنسيق والكشف عن القوانين العامة من وراء القوانين الجزئية المشتتة الاتجاهات !

لذلك ما يزال هذا الفن يعرض الحياة البشرية في عزلة عن ناموس الكون الشامل . ثم يعرضها هي ذاتها أجزاء وتفاريق . فهي أحياناً لحظة جنس منقطعة عن اشتباكات الحياة الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية . وتارة هي صراع طبقي ، أو «حتمية» من الحتميات التي تحكم – في نظر أصحابها – الحياة ، دون النظر إلى كيان النفس الشامل ، الذي يتسع لكثير من المشاعر وكثير من أوجه النشاط كلها في آن .

ولكن الفن الإسلامي المعبر عن روح الإسلام الشاملة لا يحب هذا التمزيق المشوه لكيان البشر وكيان الحياة . بل يحب أن يعرض الحياة البشرية في شمولها المتكامل الذي يشمل كل جوانب النفس الإنسانية الفاعلة في هذا الوجود ، المنفعلة به ، المتصلة دائماً بما وراء حواجز الحس القريبة ، الواصلة بفطرتها إلى فطرة الوجود الكبير .

وتصوير الحياة البشرية على هذا النطاق الواسع الذي لا يقف عند حدود الأرض القريبة ، وإنما يتعداها إلى ناموس الوجود الأكبر ، ويصلها بالله خالق الحياة والأحياء ، يضفي عليها ولا شك جمالاً لا تعرفه معظم الفنون الحديثة التي تقطع صلة الأرض بالسماء ، وصلة الإنسان بالله ، في الوقت الذي لن يفقدها هذا الشمول وسعة الأفق شيئاً من دقة تفصيلاتها وروعة تحليلاتها وعمق نفاذها إلى الجزئيات الصغيرة . وإنما هو يمنح هذه التفصيلات والتحليلات نفاذاً أعمق حين يصلها بالمعنى الكبير الشامل الذي يشمل جميع الوجود .

* * *

وفي سبيل هذه الصورة الشاملة الواسعة للحياة البشرية يهتم الفن الإسلامي بإبراز دور العقيدة في حياة الإنسان ، مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية أو بلورة فلسفية تبعد بالفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص .

وليس من الضروري أن تُذكر العقيدة صراحة أو يذكر الدين . وإنما ترسم الحياة – كما أسلفنا – من خلال العقيدة وأثرها في النفوس .

فالإحساس بجمال الكون وروعته عبادة .
والإحساس بالارتباط الحيّ مع الكائنات عبادة .
والتوجه للناس بالحب والعطف والرعاية عبادة .
والجهاد في سبيل الحق والخير عبادة .
والتسليم لقدر الله عبادة .
والتطلع إلى الله في المحن والأزمات عبادة .
وتحمل الألم والاصطبار عليه عبادة .
وشكر المنعم على نعمه عبادة ..

وغلظ الإحساس والعزلة عن الكون وتقطع الروابط الحية مع الأحياء ، والحقد على الناس ، والقعود عن الكفاح في سبيل الحق والخير ، والتحدي الأحمق لقدر الله ، والهلع في المحن والأزمات والبطر بالنعم ... كلها دلالات على انقطاع الصلة بالله وجفاف القلب من نداوة العقيدة . والفنان يملك أن يبرز دور العقيدة في هذه الملامح المختلفة إيجاباً وسلباً ، كما يستطيع أن يرسم تقلب النفس البشرية بين مختلف المشاعر والأوضاع ، دون أن يحتاج إلى كلمة وعظ واحدة أو بلورة فلسفية للعقيدة والدين .

ولكنه – حين يرسم هذه الملامح النفسية كلها من خلال العقيدة ، وبطريقة الفن لا بطريقة الوعظ – يكسب الحياة البشرية سعة مؤكدة ، فضلاً عن إعطاء هذه الحياة معنى وهدفاً وأصالة وعمقاً ، حين يكلها إلى قيم ومعايير أكبر من حياة الأفراد ، بل أكبر من حياة الإنسان كله ، لأنها معايير الكون كله المتجه إلى الله بالعبادة ، والذي يمارس – في هذه العبادة – التناسق والتعاطف والطلاقة والحركة الموزونة التي لا تصادم فيها ولا انحراف .

* * *

والفن الإسلامي موكل « بالجمال » .. يتتبعه في كل شيء وكل معنى في هذا الوجود .

الجمال بمعناه الواسع الذي لا يقف عند حدود الحس ، ولا ينحصر في قالب محدود .

جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينها من تجاذب وارتباط .

وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وأضواء وظلال ، وجوامد وأحياء .

وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير وطلاقة وارتفاع .

وجمال القيم والأوضاع والنظم والأفكار والمبادئ والتنظيمات .

كل ذلك ألوان من الجمال يحتفي بها الفن الإسلامي ويجعلها مادة أصيلة للتعبير .

بل هو يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية ، سواء بالسلب أو بالإيجاب . فهو حين يعرض للاختلالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو النفسية أو الخلقية .. يعرضها على أنها « قبح » ينافي حقيقة الجمال التي ينبغي أن تكون راسخة في حياة البشر ، لأنها راسخة في بنية الكون كله والحياة .

الظلم الاجتماعي قبح لأنه ينافي جمال العدل .

والحقد النفسي قبح لأنه ينافي جمال الحب .

والانحلال الخلقي قبح لأنه ينافي جمال التسامي والارتفاع .

وهكذا كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال . هو قبح لأنه خروج عن الجمال الواجب الذي يتسق مع إرادة الله في خلقه الكون .

وتصوير الجمال في هذا المعنى الواسع والنطاق الشامل ، قمين بأن يرفع النفس البشرية من حدود الحس القريبة ومن قيمها المحدودة الضيقة ، إلى عالم أوسع وأفسح ، ومجالات شعورية أرفع وأعلى .. تحقق للإنسان معنى التكريم الذي أراده الله حين قال : «ولقد كرمنا بني آدم ...» وتجعل للفن هدفاً .. هدفاً أعلى من دغدغة الغرائز واستثارة الميول الحسية الهابطة . هدفاً توجيهياً يؤدي فعله في النفس دون أن تحس ، ودون أن ينفرّها الوعظ المكشوف في غير مجال الوعظ .. هدفاً تتقبله النفس راضية مستجيبة ، لأنه يدخل إليها من طريق «الجمال» ، وهو طريق قريب إلى الفطرة حبيب إلى الشعور .

* * *

وبعد فتلك أبرز صفات الفن الإسلامي ...

وعلى ضوء هذه السمات نستطيع أن نستعرض « نماذج من الفن الإسلامي » ، في القرآن والشعر والقصة ، وغيرها من الفنون « الكلامية » التي نملك الحديث عنها في هذا الكتاب . وقد استبعدنا الحديث عن الفنون الأخرى المتخصصة التي تحتاج إلى خبرة المتخصصين !

وقد استبعدنا كذلك النحت والرقص بوصفهما فنين يعبران عن طريق الجسد وحده ، فيخلان بشرط من شروط الفن الإسلامي .

أما السينما .. ففي اعتقادي أنها آخر فن يمكن أن يدخل في نطاق الفن الإسلامي ، لا لأن السينما في ذاتها محرمة ، ولكن لأنها بصورتها الحالية ، الهابطة العارية المنحلة ، بعيدة جداً عن الجو الإسلامي . ولكنها – ككل فن آخر – تستطيع أن تكون إسلامية حين تتبع مفاهيم الفن الإسلامي التي وضحناها من قبل في فصول الكتاب .

القرآن والفن الإسلامي

الفن الإسلامي في حاجة شديدة لأن يراجع القرآن !

فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن ، كما هو الذخيرة الموحية للحياة !

وقد قلت في مقدمة الكتاب إن القرآن – بتأثيره الساحر في نفوس العرب – كان واحداً من اسباب انصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفني فترة من الوقت ، لأنه أغناهم – مؤقتاً – عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال !

ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم ، وأغراض تعبيرهم وطرائقه ، وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة في مجال التعبير : أغراضه وطرائقه على السواء .

وتلك حقيقة تاريخية مؤسفة ، ضيعت على الفن العربي فرصة الإفادة من أكبر رصيد فني يملكه المسلمون . بل أكبر رصيد تملكه البشرية كلها حين تتفتح له بصيرتها ، وتتلقى وحيه بحس مرهف مفتوح .

وأياً ما كانت أسباب هذا الانصراف في الماضي ، فما تزال الفرصة قائمة للإفادة من هذا الرصيد الضخم ، وإقامة فن إنساني سامق رفيع ، على أساس من التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان .

وقد كانت الفصول السابقة من الكتاب كلها دراسة لهذا التصور مأخوذة من القرآن .

وهذا التصور هو الذخيرة التي يستمد منها الفن موضوعاته ومجالاته ، ثم تعمل البراعة الفنية عملها ، فتخرج من تلك المفاهيم في شتى مجالاتها فنوناً جميلة رائعة ، بمقدار ما تطيق التلقي ، وبمقدار ما تتفتح بصيرتها لارتباطات الكون والوجود .

* * *

والقرآن – أولاً – يعرض تصوراً شاملاً للكون والحياة والإنسان ، لا يعرضه كتاب آخر في الأرض بمثل هذا الشمول والإحاطة ، وبمثل هذه السهولة والوضوح . وهذا التصور كما قلنا هو الذخيرة الموضوعية للفن .

وهو – ثانياً – يضم نماذج من الأغراض الفنية والأداء الفني ، لا تتمثل بمثل هذه الوفرة المعجزة في كتاب !

ومن ثم فهو – من ناحيتيه هاتين – دستور كامل لأي منهج فني يريد أن يعبر عن الحياة ، بتصور إسلامي أولاً ، وكذلك على مستوى كونيّ .

* * *

والقرآن كتاب دين ..

ولكن « الدين » في المفهوم الإسلامي أمر شامل محيط .

إنه ليس عبادات معينة ينقطع لها الناس فترة من الزمن عن تيار الحياة .

وإنما الدين هو المنهج الشامل للحياة .. حياة المشاعر وحياة الأفكار وحياة السلوك وحياة الوجدان .

والفن – من ناحية أخرى – هو التعبير الجميل الموحي عن هذه الحياة .

ومن ثم يلتقي الدين والفن التقاء كاملاً في الحس المسلم ، حين يكون الفن قائماً على التصور الإيماني للوجود وللمشاعر والأفكار والسلوك والوجدان .

وقد بيّنا في فصول الكتاب السابقة أن « التزام » الفن بالمفاهيم الإسلامية لا يضيق رقعته ولا يضيق حدوده . بل هو على العكس من ذلك يوسع الرقعة ويوسع الحدود ، حتى تشمل الكون كله والحياة كلها والإنسان .. في أشمل نطاق يمكن أن يخطر في حس الإنسان .

كل ما في الأمر أنه « ينظّفه » ..

وإذا كانت النظافة قيداً من جانب ، فهي فسحة من جانب آخر ، لأنها تطلق النفس من قيود الضرورة القاهرة ، إلى عالم الطلاقة والحرية والجمال والإشراق[1] .

ومع ذلك فالإسلام – كما مر بنا في فصول الكتاب – يعمل حساب الضرورة القاهرة كما يعمل حساب الحرية والانطلاق . ويوازن بين الضرورات والأشواق .

والفن الإسلامي كذلك ، لا يجانب الفطرة ، ولا يتجاهل الواقع ، ولكنه يعرض الحياة من خلال الواقع الكبير الذي يشمل الضرورة ويشمل الأشواق .

* * *

والقرآن هو المرجع الذي ينبغي أن ترجع إليه الفنون الإسلامية ، التي هي – بالمعنى الذي شرحناه في الكتاب – فنون إنسانية رفيعة سامقة ، تصل إلى آخر حدود ما يستطيع أن يصل إليه الإنسان من عمق ورفعة واتساع ؛ وفنون كونية يتسق مدارها مع مدار الكون ، ويتسق جمالها مع جمال الكون ، وتقوم موازينها على قواعد التناسق الكوني الدقيق الجميل .

وقد كان أول تفتحي للقرآن – في مجال الفن – على كتاب « التصوير الفني في القرآن » وكتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

---

(١) انظر فصل « القيد والحرية » من كتاب « في النفس والمجتمع » .

وظللت أقرأ القرآن بعد ذلك وفي حسي الجانب الجمالي منه واضحاً بارزاً ملموساً لا أملك ألا ألتفت إليه ، حتى وأنا أدرس القرآن – في اتجاهي الخاص – من الجانب النفسي والتربوي بصفة خاصة .

ولكني أذكر أن كلمة واحدة معينة في إحدى آيات القرآن هزت نفسي أكثر من أي شيء آخر في مجال التوجيه الفني والجمالي في هذا الكتاب المعجز العجيب :

« ولكم فيها **جمال** حين تريحون وحين تسرحون »[١] .

الحديث هنا عن الأنعام ، ولكن السياق لا يكتفي بذكر « فوائد » الأنعام : « والأنعامَ خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » . وإنما يشير كذلك إلى الجمال الذي تنطوي عليه تلك الأنعام « حين تريحون وحين تسرحون »[١] .

لقد فتحت لي هذه اللفظة المفردة آفاقاً مشرقة ومنافذ عدة ، ظللت أعرج فيها فترة من الزمن ليست بالقصيرة ، حتى انتهت بي إلى كتابة هذا الكتاب !

إن الكتاب الذي يوجه الحس البشري إلى الجمال ، لا في « المصابيح » التي تزين السماء فحسب ، ولا في « الحدائق » ذات البهجة ، ولا في « الجبال » و « الأنهار » ، ولا في « الضحى » الرائق و « الليل » الساجي .. وإنما في « الأنعام » كذلك ..

والكتاب الذي يعبر عن توجيهه لجمال الأنعام في هذه الصورة .. الصورة المطلقة الطليقة : « ولكم فيها جمال ... » لا الصورة الحسية القريبة المحدودة ، من مثل : وإن هذه الأنعام لجميلة ، أو : وإنكم لترون جمال الأنعام .. ثم يضيف هذا الجمال « لكم » .. « **ولكم** فيها جمال .. » .

هذا الكتاب لا يمكن بحال أن يكون معادياً للفن ! وقصة العداء بين الإسلام والفن قصة لا يمكن أن يكون لها أساس من الصحة على الإطلاق !

إن الآيات التي وجهت للشعراء العرب في الجاهلية لم توجّه ضد الشعر في ذاته . ولا وجهت ضد الشعراء على إطلاقهم . وإنما ضد نوع معين من الشعراء :

« والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً .. »[١]

صحيح أن سياق الآيات يوحي بأن الشعراء الملعونين هم الأصل ، والمستثنون هم القلة . ولكن ذلك من ناحية كان يصدق على الشعراء الموجودين في الجزيرة العربية يومئذ – وقد يصدق على كثير من الشعراء في كل وقت – ولكنه من ناحية أخرى لا يلعن الشعر كشعر ،

---

(١) سورة النحل [٦] .

(٢) سورة الشعراء [٢٢٤ – ٢٢٧] .

ولا يطلق اللعنة على الشعراء عامة ، وإنما يصم سلوكاً نفسياً معيناً يتبعه اولئك الشعراء ، فمن خلص منه فلا تثريب عليه ، ولا على فنه الذي يعبر فيه عن مفاهيمه الإيمانية .

الملعون إذن هو الكفر . والمطلوب هو الإيمان .

ولا على المؤمنين – حين يكونون شعراء – أن يقولوا الشعر في حدود تصورهم الإيماني ومفاهيمهم الإيمانية ، وهم آمنون من اللعنة ، بل مثابون على قولهم بما ينال المؤمنون من الثواب .

* * *

وهذا الكتاب الذي يوجه الحس البشري إلى « الجمال » بلفظه الصريح لا يترك فرصة دون توجيه هذا الحس إلى الجمال بكل الوسائل « الفنية » التي تطيقها الألفاظ .

وهو يوجه الحس لا إلى جمال واحد ، ولكن إلى كل لون من ألوان الجمال .

الجمال في الطبيعة ، والجمال في الأحياء ، والجمال في النفوس والمشاعر والتصرفات والسلوك .

وسوف نستعرض فيما يلي نماذج من القرآن تتمثل فيها بعض أغراض التعبير الفنية وبعض طرائقه . ولكنا نريد قبل استعراض النماذج أن نشير إلى معنى الإفادة من القرآن في عالم الفنون .

ليس المقصود هو « تقليد » القرآن في طريقة معالجته لموضوعاته .

فالغرض الديني الواضح والأصيل في القرآن ، هو الذي يحكم كل موضوعاته وتوجيهاته وتعبيراته .

ولكنه – مع وفائه بالغرض الديني كاملاً – يحمل خصائص فنية تصل إلى حد الإبداع والإعجاز [(١)] .

وذلك إلى جانب المفاهيم التي يعرضها عن الكون والحياة والإنسان .

وحين نحاول الإفادة من القرآن في مجال الفن ، فسنلجأ إلى الناحيتين معاً : المفاهيم وطرائق الأداء . ولكن لا لتقليدها كما ذكرنا ، وإنما لالتقاط « التوجيه » الذي تحمله ، والنسج على منواله فيما ننشئ من الفنون .

فحين نجد – كما يظهر لنا من النماذج التي سنستعرضها – أن القرآن يحتفي بمشاهد الطبيعة إلى حد يلفت النظر .. فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين حين يتشبع حسنا بهذه الحفاوة ، ونحس بالتجاوب الحيّ مع الطبيعة ، بوصفها مشاهد جميلة متناسقة خارجة من يد المبدع العظيم ، ثم نحاول التعبير عن هذا التجاوب في صورة حية موحية جميلة .

وحين نجد القرآن يستخدم القصة للتربية ، ويضمنها كل توجيهاته المتمشية مع مفاهيمه

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

عن الكون والحياة والإنسان ، فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين ، حين ننشئ القصة الهادفة ، ونستخدمها للتوجيه – الفني لا الوعظي – ونجعل هذا التوجيه في سبيل رفعة الإنسان وطلاقته لا في سبيل هبوطه وانحلاله والتصاقه بطين الأرض ، مع عدم الإخلال « بالواقعية » التي تحملها الفكرة الإسلامية ويحملها القرآن : واقعية الواقع الكبير الذي يشمل الضرورات ويشمل الأشواق ، ويوازن بين الضرورات والأشواق ، ويعطف على لحظة الهبوط ، ولكنه يحاول أن يصعد منها إلى لحظة الرشد والإفاقة والانطلاق .

وحين نجد القرآن يستخدم في التعبير طريقة التصوير ، فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين حين نتخذ هذه الطريقة في تعبيرنا الفني عن المشاعر والخلجات والحركات والتصرفات ، لإحياء الصورة وتجسيمها وخلع الحياة عليها حتى تصل إلى الوجدان حية متحركة عميقة التأثير [١] .

والفن الإسلامي مع ذلك ليس « مقيداً » بالموضوعات القرآنية ، ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا طرائق التعبير .

فله أن يختار من الموضوعات والأغراض والطرائق ما يشاء .

ولكنه مقيد بقيد واحد : أن ينبثق من التصور الإسلامي للوجود الكبير ، أو – على الأقل – ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، ولا ينحرف عن هذه المفاهيم .

والمسألة هنا ليست مسألة « الدين » بمفهومه الضيق ، ولا مسألة « العقيدة » بمعناها التقليدي .

إنها مسألة أن التصور الإسلامي كما يعرضه القرآن ، هو – كما رأينا فيما سبق من فصول الكتاب – التصور الصحيح المتمشي مع فطرة الكون كله والوجود ، والذي تنطق به الفطرة البشرية ذاتها حين تهتدي إلى الناموس ، والذي يصح أن يقال فيه إن مقاييس الجمال فيه هي مقاييس كونية ، تستند إلى التناسق الملحوظ في الكون الكبير .

وأي تصور آخر يصطدم به أو يعارضه ، هو تصور منحرف عن الناموس الأكبر الذي يشمل الوجود .

وليس من حق الفن أن ينحرف عن ذلك الناموس ، لأنه بذلك يخرج عن « الجمال » الفني ، الذي يتسق مع الجمال الكوني الكامن في فطرة الوجود .

تماماً كما لا يجوز للنجم أن يخرج عن مساره ويصطدم بغيره من الأفلاك ..

والنجم – بعد ذلك – طليق في مساره الصحيح ، خفيف الحركة رشيق الانطلاق .

---

(١) انظر كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

وهكذا نفهم التزام الفن الإسلامي بمفاهيم القرآن وطريقة القرآن .

ولكنه بعد حرٌّ في اختيار موضوعه ، حر في طريقة أدائه ، حر في اختيار النسب والأبعاد والأضواء والظلال في كل لوحة مفردة يرسمها ، ما دام لا يخرج على النسب العامة التي ترسمها مفاهيم القرآن الكونية الكبيرة

والآن فإلى النماذج الفنية في القرآن ...

أولاً : مَشَاهِد الطبيعَة في القرآن

يعجب الإنسان حين يستعرض مشاهد الطبيعة في القرآن ، كيف خلا الشعر العربي الإسلامي من وصف الطبيعة إلا في النادر ، وفي وصفٍ لا يكاد يتعمق الطبيعة إلا قليلاً ، ولا يكاد يصل بينها وبين الوجدان البشري إلا في الأقل !

هذا مع أن احتفال القرآن بالطبيعة أمر بارز يلفت النظر ويلفت الحس ، ولا يمكن أن يقرأ القرآن قارئ دون أن تلفته هذه الظاهرة في ثناياه !

والقرآن – كما قلنا في مقدمة هذا الفصل – كتاب دين ، ولكن على المفهوم الإسلامي للدين ، الذي يشمل كل جوانب الحياة .

وهو كتاب تربية ... (١)

يستخدم للتربية كل وسيلة يمكن أن ينفذ بها إلى منافذ النفس المختلفة ومساربها الخفية .

و « الجمال » من أوسع المنافذ إلى النفس .. تهش له بفطرتها ، وتلتقي روحها بروحه في أخوة واستجابة واشتياق .

وجمال الطبيعة من أروع ألوان الجمال التي تهش لها النفس ، وتستجيب لها في فرحة وانطلاق .

ولكن الإلف والعادة يفسدان التطلع إلى ذلك الجمال الفذ ، فتتبلد الحواس لما ترى وما تسمع ، وتمر بكل شيء كأنما لا وجود له ، وتنسى بحكم التعود أنه رائع وأنه جميل !

وعندئذ لا بد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و « تستنشق » الحياة !

وتلك مهمة الفنون .

ولكن القرآن – وهو منهج حياة ، وهو كتاب تربية وكتاب دين – يهمه كذلك أن يوقظ النفس من تبلدها لتتفتح وتستنشق الحياة !

فإن الإنسان حين تدرك حسه هذه البلادة ينحصر في دائرة ضيقة رتيبة خاملة لا تنبض فيها الحياة . ومن شأن ذلك أن يفسد نفسه جميعها . فالنفس المتبلدة لا تجيش لحمل أمانة الخلافة في الأرض : لا تنزع إلى الخير ، ولا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر ، ولا

---

(١) انظر كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

تبني ولا تنمي ولا تحوّر ولا تبدل في هذه الأرض ، لأن ذلك كله حركة جياشة فعالة مُريدة . والحركة لا تنشأ من التبلد ، والجيشان لا ينبع من الخمول !

فمن أجل خير هذه النفس وصلاحها ، من أجل رفع الحياة البشرية وترقيتها ، يسعى القرآن إلى تحريك هذه الحواس المتبلدة لتنفعل بالحياة في أعماقها ، وتتجاوب تجاوباً حياً مع الأشياء والأحياء .

وهنا يلتقي الدين – بمفهومه الإسلامي – مع الفن ، ويلتقيان في أروع صورة في ثنايا القرآن !

* * *

«والقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ، ويوقظها من إلفها وعادتها فتتفتح للكون كأنه جديد .

«وحين يحدث هذا التفتح ، فإنه يُحدث أعجب الأثر في الكيان البشري .

«إنه يشبه – مع الفارق – ذلك النشاط الحيّ الذي يحس به الإنسان في أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء ، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه ويستنشقه إلى أعماقه . إنه يتجدد .. يتجدد حقيقة .. حساً ومعنى .. وينطلق في خفة نشيط الحركات .

«والتفتح النفسي يشبه ذلك الأثر ، ولكنه أعمق وأشمل وأروع . إنه يهز الكيان النفسي كله ويوقظه وينشطه ويجدد حياته . كل فكرة تمر به جديدة . وكل إحساس يخطر له جديد . وكل تجربة يمر بها فهي حية .. حية تطلق شحنة من النشاط وطاقة من الإشعاع .

«وما أعجب كل شيء يحدث لأول مرة ! إنه تجربة نفسية رائعة حية .. كأنها لمسة رقيقة تلمس طرف عصب مكشوف ، فيتفزز ويتأثر ، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها .. إنها عملية جميلة ممتعة .. تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعاً متجدداً على الدوام .

«ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شيء كأنما يحدث لأول مرة .. ! إذن لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم الذي لا يدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء !

«ولكنها عملية عسيرة . فمطالب العيش الدائمة ، وزحمة الحياة ، وقصر العمر ، ووفرة المشكلات ، كلها تستنفد الطاقة وتستنفد الاهتمام .

«ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجيبة !

«إن أسلوبه الساحر ، وجوّه المشرق ، وروحه الصافية ، لتنقل الإنسان نقلاً من إلفه وعادته ، وتهزه ليستيقظ ؛ تلمس – برفق – أعصابه المكشوفة ! فتعطيه الشحنة كاملة ،

ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها .. ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ، ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب .

«والإنسان يعيش في القرآن مع الكون في لقاء دائم جميل حبيب . لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح .. نشيطة طليقة تسبح لله .

«والقرآن في ذاته كتاب جميل ممتع ، لا ينتهي منه قارئه حتى يحب أن يعود إليه من جديد . ومن ثم كان اللقاء متجدداً في داخل النفس وفي صفحة الكون ، لا ينفد ، ولا يسأم ، ولا يزول» (١) .

* * *

ونأخذ بعض الأمثلة لمشاهد الطبيعة في القرآن :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

مثل من أمثلة كثيرة في القرآن ..

توجيه للقلب البشري إلى آيات الله في الكون : الله فالق الحب والنوى . وفالق الإصباح . ومخرج الحي من الميت والميت من الحيّ .. والليل والنهار .. والشمس والقمر .. والبر والبحر .. النخل والأعناب .. والزيتون والرمان .. إنه حشد هائل من مجالي الطبيعة الحية .. الحية بكل ما فيها ومن فيها . فما يترك التعبير شيئاً منها جامداً لا يتحرك ولا تدب فيه الحياة ! وقدرة

---

(١) الجزء الأول من كتاب «منهج التربية الإسلامية» فصل «تربية الروح» .

(٢) سورة الأنعام [٩٥ ـ٩٩] .

الله القادرة التي خلقت هذه الآيات كلها هي التي تبث فيها الحياة على هذا النحو المدهش ، وبالألفاظ المجردة لا بالريشة ولا بالألوان ! [١] .

الحركة الحية هي الظاهرة الملموسة في المشهد كله .

الحركة في الحب والنوى وهو يفلق في باطن الأرض ليخرج منه نبات حي ..

والحركة الدائبة في إخراج الحيّ من الميت وإخراج الميت من الحيّ . وهي حركة حين يتدبرها الحس المتفتح تملأ النفس من أقطارها ، وتشمل رقعة هائلة من الكون الذي لا تني الحياة فيه تخرج من الموات ، والموات يخرج من الحياة .

وحركة النهار والليل والشمس والقمر والنجوم .

وحركة النسل التي أخرجت البشرية من نفس واحدة ، وما تزال دائبة في المستودع والمستقر .

وحركة الماء النازل من السماء فيخرج منه نبات كل شيء .

ثم حركة « التنويع » في النخل والأعناب والزيتون والرمان .. تنويع بالأصناف المختلفة ، ثم باختلاف كل صنف على حدة « مشتبهاً وغير متشابه » .

وتنويع بطريقة التعبير !

لكأني ألمح في تنويع نسق التعبير في كل مرة أمراً مقصوداً لإيقاظ الحس ، حتى لا يستنيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله في الكون !

إنه لا يقول هنا : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، كما يقول في مواضع أخرى ! وإنما يقول : « يخرج الحيّ من الميت ، **ومخرج** الميت من الحي » . فيبده الحس بتغيير النسق قبل أن يسترسل مع رتابة التعبير فلا يتفتح تفتحاً كاملاً للآيات المحشودات !

ثم لا يقول : فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا !

وإنما يقول : « فالق الإصباح **وجعل** الليل سكنا » !

تنويع آخر لكي لا يستنيم الحس للنسق الرتيب !

ولا يقول هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وجعل لنشأتكم مستقراً ومستودعاً (كناية عن دور الذكر والأنثى في كل نسل جديد) فيُتْبِعُ الفعل « أنشأكم » فعلاً آخر مشابهاً له ، وإنما يتبعه باسم : « فمستقر » !

ثم يقول : « فأخرجنا منه خضراً **نخرج** منه حباً متراكباً » فلا يتبع الماضي ماضياً مثله ! (ولا ننسى هنا الموافقة التصويرية بين قوله : « **فأخرجنا** به نبات كل شيء ، **فأخرجنا** منه خضراً **نخرج** منه حباً » ثم قوله : « متراكباً » بعد ذلك ، بعد أن تهيأ الحس بالتكرار المتوالي

---

(١) انظر كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

للفظ الإخراج ، لاستقبال شيء «متراكب» بعضه وراء بعض أو فوق بعض !) .

ثم يقول : «مشتبهاً **وغير متشابه**» فينوع في اللفظين المتشابهين ..

هل ترى كل ذلك مصادفة !

أم هو أمر مقصود هنا للتنويع بكل وسائل التنويع ، وهو يستعرض أنواعاً مختلفة من الحياة في صفحة الكون ، ويريد أن يلفت الحس للقدرة القادرة التي تخلق كل هذه الأنواع ، وينسق في اللوحة المعجبة بين تعدد النماذج والأنماط في المشهد وفي التعبير عنه سواء .

ألا إنه لون من الإعجاز في التصوير والتعبير !

هذا ولا يجوز أن ننسى في هذا المقام تلك اللفتة العجيبة في قوله : «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه» .

إن الأشياء التي يستعرضها هنا أشياء تشتهى وتؤكل : النبات والخَضِر والحَب والنخل والأعناب والزيتون والرمان .. ولكنه لا يقول هنا كما يقول في مواضع أخرى : «كلوا من ثَمره إذا أثمر» ! وإنما يقول : «انظروا» ! انظروا إلى الثمر إذا أثمر والينع إذا أينع ! انظروا إلى «الجمال» ! انظروا بعيون مفتوحة وحس مستشرف لتملي الجمال . انظروا واستمتعوا بالنظر .. ولا يقول هنا كلوا.. لأن المعرض معرض الجمال المبثوث في الطبيعة ، والقدرة القادرة التي تبدع الجمال !

* * *

والاستعراض يطول لو مضينا نستعرض كل مشاهد الطبيعة في القرآن . فما تكاد سورة تخلو من مشهد أو عدة مشاهد ، في اتجاهات شتى وبطرق للعرض متباينة . وإنما نكتفي بنماذج متفرقة تعطينا «عينات» فنية مختلفة .

فإذا كانت مشاهد الطبيعة حشدت حشداً في الآيات السابقة لعرض آيات القدرة الإلهية التي تبدع «الأنواع» المختلفة من الكائنات ، واستخدم لبيان التنويع أداة فنية معينة هي تنويع السياق ليساعد على استكناه التنويع في الطبيعة ، فهذا مثل آخر من التنويع يستخدم أداة أخرى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾[1]

---

(١) سورة فاطر [٢٧ ــ ٢٨] .

إن الحس يوجَّه هنا إلى ظاهرة معينة في قدرة الله هي تنويع « الألوان » في الخليقة . ولكنه لا يوجّه إلى ذلك في صورة لفظية تجريدية . وإنما ترسم له — في تلك الألفاظ القليلة المعدودة — لوحة واسعة فيها مخلوقات الأرض جميعاً من جماد ونبات وحيوان وإنسان ! النبات مختلف ألوانه .. وهذا ركن من اللوحة الواسعة ، أو وحدة من وحداتها ، متناثرة على رقعة اللوحة تناثرها في الطبيعة الواسعة . والجبال ذات قمم بيض وحمر وسود .. وهذه وحدة أخرى من وحدات اللوحة تنتثر فيها الألوان هنا وهناك لتنسجم مع ألوان النبات المتباينة في الأرض . ثم .. ناس مختلفة الألوان ، ودواب وأنعام مختلف ألوانها كذلك ..

والتنوع والاختلاف هو محور الصورة .. ولكنه هنا يرسم بطريقة مخالفة للوحة السابقة . عنصرها توزيع الأشياء والأحياء والألوان على الرقعة وتثبيتها في مكانها ، وكانت هناك عنصرها الحركة في مختلف الاتجاهات .

* * *

وهنا حركة من نوع آخر :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١)

لوحة واسعة شاملة تشبه في بعض سماتها اللوحة الأولى . ففيها الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وفيها نبات الأرض المختلف الأنواع . وفيها البر والبحر . ثم يزيد عليها العيون المفجرة

(١) سورة يس [٣٣ ـ ٤٤] .

في الأرض ، والإشارة إلى « الأزواج » المختلفة ، وتزيد عليها كذلك الفلك المواخر في البحر .

ولكن المسألة ليست مسألة هذه الزيادة في جزئيات الصورة . فحتى الجزئيات المشتركة لا تؤدي وظيفة واحدة هنا وهناك !

« الحركة » هنا من نوع آخر غير الحركة هناك .

هناك كانت الحركة – سواء خفية أو ظاهرة – حركة لطيفة وئيدة رتيبة هادئة .

ففلق الحب والنوى – وهو الحركة الوحيدة التي في لفظها شيء من العنف – تتم في بطء شديد وخفاء واستتار . وخروج الحي من الميت والميت من الحي حركة كذلك وئيدة خفية مستترة . وانفلاق الصبح يتم في بطء خفي حتى يظهر النور الهادئ في آخر الأمر . وهناك الليل سكن . والشمس والقمر حسبان . حسبان لا حركة ! والحسبان حركة رتيبة متتابعة تتم في بطء وئيد . والنجوم التي يهتدي بها الناس في « ظلمات » البر والبحر ، تتحرك ولكن حركة وئيدة خفية مستترة . وظلمات البر والبحر – وهي خفاء مستتر – تناسب ظلمات باطن الأرض الذي ينفلق فيه الحب والنوى . وحركة النسل في المستقر والمستودع حركة كذلك بطيئة وئيدة ، وحركة تتم في خفاء واستتار ، فالنطف المخفية في الأصلاب والأجنة المخفية في الأرحام كلتاهما تتحرك ولكن في خفاء عن العيون وفي بطء وئيد مديد . ثم النبات المختلف يقال فيه : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه .. والإثمار حركة لطيفة وئيدة تتم في خفاء حتى تظهر آخر الأمر في هدوء .. والنظر ذاته هادئ وديع !

أما الحركة في هذه اللوحة فمن مستوى آخر ، وهي ذات « نغمة » أعلى وأحدّ !

فهنا العيون مفجّرة .. والتفجير حركة عنيفة ، والخيال يتصور الماء الذي يخرج من العيون المتفجرة منطلقاً في سرعة وتحدّر . ثم الأزواج .. « كلها » ! إنها لفظة جامعة ولكن في حسم يشبه العنف ! والخفاء هنا : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم **ومما لا يعلمون** » ليس خفاء هيناً ليناً كظلام الليل الذي ينفلق منه الصبح ، ولا ظلام الأرض التي ينفلق منها الحب والنوى . ولكنه خفاء حاسم قاطع ! ثم الليل ليس « سكنا » كما كان هناك .. ولكنه هنا يشارك في حركة عنيفة تتم في كيانه .. هي حركة « سلخ » النهار منه ! « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » ! والسلخ حركة يعرف الحس عنفها وشدتها ، والجهد الذي تتطلبه لفصل ما ينسلخ مما يسلخ منه ! ثم بعدها « فإذا هم مظلمون » هكذا في مفاجأة « بإذا » وفي حسم ظاهر ! والشمس والقمر ليسا حسباناً هادئاً وئيداً كما كانا هناك . بل هما في حركة شديدة كبيرة دائبة : « الشمس **تجري** » وحتى كلمة مستقر « تجري لمستقر لها » لا تسكّن الحركة في الحس . فإنما تلقي في النفس ظل الشيء المندفع ، الذي يستقر – حين يستقر – في شدة وعنف ! والقمر في منازل تغير شكله تغييراً واضحاً – لا خفياً – « حتى عاد كالعرجون القديم » ، ثم حركة السباق الهائلة بين تلك الأجرام السماوية : « لا الشمس

ينبغي لها أن **تدرك القمر** » وكذلك بين هذين المخلوقين المتداولين : « ولا الليل **سابق** النهار » . والفلك « مشحون » وحركة الشحن معروفة تلقي ظلاً معيناً في النفس فيه كثير من الشدة والجهد . وأخيراً : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » ! وهنا تتمثل حركة الإغراق العنيفة وما توحيه من تشبث عنيف من جانب المغْرَقين . ومع أن عملية الإغراق لا تتم فعلاً ، فإن حركتها تتم كاملة في الخيال ، ويُسمع جلبة « الصريخ » بالفعل وإن كان في الصورة منفي الحدوث !

* * *

وازن بين تلك الحركات العنيفة كلها وحركة الظل في الآية :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (١)

إنها حركة يبلغ من لطفها أن تكاد لا تتحرك ! ويزيد من لطفها والإيحاء ببطئها الشديد كلمة « ساكناً » مع أنها لا تتم في واقع الأمر : « ولو شاء لجعله ساكناً » ! فمع أنه سبحانه لم يشأ أن يجعله ساكناً ، إلا أن وجود اللفظة يلقي ظلها في النفس ، وهذا بعض المقصود من إيرادها . وظلها هو تبطئ حركة الظل حتى لتشبه السكون . وتلك حقيقة « طبيعية » فحركة الظل وئيدة جداً لا تكاد تظهر . ولكن التعبير يجسم هذا البطء ويعطيه « مساحة » في الخيال ، لم يكن ليكتسبها لو كان الوصف تجريدياً بحتاً بغير تصوير ولا تخييل(٢) . وكذلك تتم صورة البطء بتكملة الحركة في الاتجاه الآخر : « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا » . ولكن لفظة معينة هنا تعطي المشهد كله معنى عميقاً عجيباً يغير « نغمة » اللوحة كلها ، ويعطيها روحاً جديدة لا يتيسر بيانها بالألفاظ ! إنها كلمة « إلينا » . « ثم قبضناه إلينا ... » هذه الكلمة تخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود الذي كانت فيه ، فإذا فيها أمر آخر غير هذه الأرض .. إنه يد الله سبحانه تمتد لتقبض الظل « إلينا » . إلى الله سبحانه الذي لا يتحدد بمكان ولا حيز ولا نطاق ! إن الظل « المتجسم » هنا في الأرض لم يعد كائناً أرضياً محدود النطاق .. ولكنه صار .. صار ماذا ؟ صار شيئاً كونياً غيبياً مبدؤه هنا في الأرض .. ونهايته عند الله الذي ليس له انتهاء !

وهذا كله يتناسق مع سياق الآية الذي ترد فيه مشاهد الطبيعة في صورة الرحمة الإلهية على الناس :

---

(١) سورة الفرقان [٤٥ ـ ٤٦] .

(٢) يراجع كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾[1]

وهو جو كله رحمة وعطف وود وإيناس .

* * *

وهذه اللوحة في البحر :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾[2]

إنها قصة كاملة في لوحة ! قصة تشمل مشاهد الطبيعة وخلجات النفوس متداخلة متشابكة ؛ يصعب انتزاع جزئياتها بعضها من بعض ! فهذا هو الفلك يجري أولاً في ريح رخاء ، والنفوس فرحة راضية مستبشرة ، ثم تجيء الريح العاصف والموج من كل مكان . وهنا يرتسم الذعر في القسمات ووجيب القلوب ، متناسقاً مع الريح العاصف والموج المضطرب ، ومختلطاً بهما كذلك ، ثم تسكن الريح وتنتهي «الأزمة» في البحر ، وتنتهي كذلك من النفوس .. ويمضي كل في حال سبيله ، غير عابئ بما كان قبل لحظات !

دقة عجيبة في التصوير ، وإحياء لمشاهد الطبيعة ، ومزج لها بمشاعر النفوس ، يجعلها حية في الحس ، حتى وهي تقسو أحياناً فتصيب النفوس بالهلع والاضطراب !

* * *

تلك أمثلة غيرها كثير في القرآن ..

ولكن الذي يلفت النظر حقاً ليس هو مجرد ذكر الطبيعة في القرآن .

---

(١) سورة الفرقان [٤٥ – ٤٩] .

(٢) سورة يونس [٢٢ – ٢٣] .

وإنما الذي يلفت النظر هو أنه لا يكاد يوجد غرض من أغراض التعبير في القرآن لم تستخدم فيه الطبيعة لإحيائه في النفس وتوسيع مساحته في الحس !

فهو لا يكتفي بتوجيه النظر إلى مجالي الطبيعة المباشرة كالأمثلة التي بيّنا ، والتي ترد لها مشابه كثيرة جداً في القرآن . وإنما يعبر بمشاهد الطبيعة عن « المعاني » النفسية والفكرية والاجتماعية ، التي لا يخطر في بال بشر أن يستخدم الطبيعة للتعبير عنها وتوضيحها !

فالإنفاق عن مخادعة ورياء ، والإنفاق عن صدق وإخلاص ، لا يصفهما باللفظ المباشر المجرد ، وإنما يرسم لهما لوحتين من مناظر الطبيعة الحية المتحركة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

فيتحول المعنى المجرد إلى معنى حيّ متحرك ، حين تشترك فيه الطبيعة برسم هذه المناظر المتتابعة .

ويرسم للكفر هذه اللوحات :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ

(١) سورة البقرة [٢٦٤ – ٢٦٦] .

وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾[1]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2]

إنها صور عجيبة تهز النفس من أعماقها ، وتستدرج الخيال يتتبع تفصيلاتها المتحركة المتتالية . فالصّيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .. منظر العاصفة مكتملاً بكل ما فيه من رعب وفزع . يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت .. الموقف واضح بتفصيلاته . والخيال يتملاه كأنما يشاهده على شاشة الصور المتحركة في أروع « لقطاتها » المثيرة .. كلما أضاء لهم البرق مشوا خطوة ، مذعورين مفجوئين ، فإذا أظلم عليهم وقفوا حيث هم في حيرتهم مبلسين .

أو .. كسراب بقيعة .. المنظر ممتد على آخر البصر حيث يخايل السراب . كآمال الذين كفروا ممتدة إلى ما لا نهاية ، وهي كلها خداع ! « حتى إذا جاءه » .. والخيال يسير معه هذا « المشوار » الطويل الجاهد حتى يصل إلى مكان السراب : « لم يجده شيئاً » ! روعة المفاجأة ، حتى والإنسان يعلم من قبل أنه لا شيء هناك ! ثم المفاجأة المذهلة الكبرى .. « ووجد الله عنده » .. « فوفاه حسابه » والخيال يتخيل منظر المفاجأة المرعب المهول .. ولا يملك الإنسان نفسه من هزة التأثر الهائل العميق .

« أو .. كظلمات في بحر لجيّ .. »

إنها أروع لوحة من لوحات « الظلام » في مشاهد الطبيعة يمكن أن ترسمها ريشة أو آلة مصورة . ومع أن المشهد لم يكن معروضاً هنا لذاته ، وإنما لتصوير حالة الظلام النفسي الذي يورثه الكفر للنفوس ، فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة يتملاها الحس والخيال ، ويعمل فيها « الفن » بحرية وانطلاق !

---

(١) سورة البقرة [١٦ — ٢٠] .

(٢) سورة النور [٣٩ — ٤٠] .

والحق والباطل يرسم لهما هذه الصورة من مشاهد الطبيعة :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (١)

والكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (٢)

* * *

بل تصل الحفاوة بمشاهد الطبيعة إلى حد استخدامها في مجال التنزيه المطلق والتجريد الكامل ، فيرسم هذه اللوحة العجيبة ، لوحة «النور» في مقابل لوحة «الظلام» هناك :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

تلك ظاهرة تلفت النظر في القرآن . وهي ظاهرة يلتقي فيها الفن والدين التقاء كاملاً كأنهما متطابقان ، ويعمل فيها الإعجاز الفني جنباً إلى جنب مع التوجيه الديني المطلوب

(١) سورة الرعد [١٧] .
(٢) سورة إبراهيم [٢٤ – ٢٦] .
(٣) سورة النور [٣٥] .

من وراء تلك الصور الجميلة الحية المتحركة التي توقظ الحس للجمال ، لتوقظه لآيات الله في صفحة الوجود .

فإذا وازنا بين هذه الوفرة العجيبة من مشاهد الطبيعة في القرآن – كتاب الدين – وبين ندرتها العجيبة في الشعر العربي – وهو كتاب الفن ! – أدركنا – في هذا الجانب كما في الجوانب الأخرى – مدى الخسارة التي أصابت الفن العربي من عدم استمداده من الرصيد القرآني المذخور ، ومدى ما كان يمكن أن يكون عليه من الثراء الفني ، لو أنه اتجه إلى هذا الرصيد الغني يستمد منه الوحي والتوجيه !

ثانياً: القصة في القرآن

القصة في القرآن ذات هدف ديني بحت . فهي مسوقة للموعظة والتربية والتوجيه . ولكنها مع ذلك تفي بكل مطالب الفن القصصي الخالص [1] .

وحين نتحدث عن الاستفادة من القرآن في مجال الفن القصصي ، لا نقصد بطبيعة الحال أن يلتزم الفن الإسلامي بالقصص التي وردت في القرآن ، سواء في الموضوع أو في طريقة الأداء . ولكنا نقصد أن يلتقط « التوجيه » الذي تحمله تلك القصص بمدلوله الواسع لا بمعناه الحرفي ، ويعمل في محيط هذا التوجيه على نطاق واسع دون أن يتقيد بقيد موضوعي أو فني .. ملتزماً فقط بأن يستمد تصوره للحياة والأحداث والأشياء من التصور الإسلامي ، أو على الأقل لا يصادم في النهاية شيئاً من المفاهيم الإيمانية .. فلا يحسّن الشر ولا يقبّح الخير ، ولا يدعو إلى المنكر ، ولا يبارك لحظة الضعف ويجعل منها بطولة ، ولا يقبع داخل الواقع الصغير الذي تحكمه الضرورة القاهرة ، ويهمل الواقع الكبير الذي يتسع للضرورة كما يتسع للانطلاق من الضرورة . وعليه كذلك ألا يفصل بين الأرض والسماء لأن هذا الانفصال ليس حقيقة . ولا بين الإنسان والله ، فذلك أيضاً ليس حقيقة . وأن يوسع اللوحة التي تجري عليها أحداثه وأشخاصه ، فلا تقف فيها الحادثة عند دلالتها المفردة ، ولا الشخص عند كيانه الفرد ، وإنما تشير الحادثة إلى السنّة الشاملة ، ويشير الشخص إلى « الإنسان » من وراء الظروف والملابسات . وترتسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث ، على أنها القوة الموجهة المريدة التي تسير كل شيء بمقتضى الناموس الأكبر الذي يحكم الوجود .

إنه فن « ملتزم » . ولكن ليس بالمعنى الضيق للالتزام . فهو لا يلتزم « بمذهب » معين ؛ ولا هو كذلك فن وعظي يدعو إلى فكرة معينة بطريق الوعظ والدعاية المباشرة . وإنما هو « يلتزم » فقط بمجاراة الناموس الكوني في جماله وتناسقه وتوازنه وطلاقته من الضرورة . ويهدف إلى إنشاء إنسان صالح ، إنسان يتوافق مع ناموس الكون ، ولا يشذ عنه بطريق الانحراف . ويتخذ وسيلته إلى ذلك عرض « الجمال » و « القبح » بمعناهما الواسع ومجالاتهما

---

(١) أنظر فصل « القصة في القرآن » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

الشاملة : في المشاعر والأفكار والتصرفات والسلوك ، بحيث تشتاق النفس في النهاية إلى الجمال وتنفر من القبح ، دون أن تحس « ضغطاً » في هذا الاتجاه أو ذاك .

ومن هنا يخرج من مجال الفن الإسلامي كل القصص « الجنسية » التي لا تهدف إلى شيء سوى إثارة الغريزة ، والتي تصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس مسعور . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التي تزين الفاحشة – أية فاحشة : نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو خلقية – وتبينها في صورة جميلة . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التي تعرض نقائص الإنسان في صورة علمية بادرة على أنها هي وحدها حقيقة الإنسان الأصيلة العميقة . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التي تقلب القيم فتصور انتصار الشرّ على الخير على أنه سنة كونية . فليس ذلك حقيقة (وإن بدا في فترة معينة من الزمن أنه حقيقة !) وكذلك كل القصص التي تهدف إلى شيء ! فليس حقيقة أن هناك شيئاً بلا هدف في هذا الوجود !

ثم يبقى بعد ذلك مجال واسع جداً لتصوير الحياة البشرية في شتى حالاتها ومجالاتها ، وتصوير النفس البشرية في شتى انفعالاتها وتقلباتها ، وتصوير القيم الإنسانية في شتى مستوياتها ودلالاتها .. مقيسة كلها بنواميس الوجود ، وبفكرة « الجمال » الأصيلة العميقة في بنية الكون والحياة والإنسان . مجال تلتقي فيه « الحقيقة » الكونية « بالجمال » الكوني ، بلا تعارض ولا اصطدام ، لأنه لا تعارض في فطرة الكون بين الحقيقة والجمال !

* * *

وقد استخدم القرآن – في أغراضه الدينية البحتة – كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية ، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج . والقصة المضروبة للتمثيل ، والتي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور .

من النوع الأول كل قصص الأنبياء . وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من هذا التكذيب . وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر : موسى وفرعون . عيسى وبني إسرائيل . صالح وثمود . هود وعاد . شعيب ومدين . لوط وقريته . نوح وقومه .. الخ .

ومن النوع الثاني قصة ابني آدم :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠

بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (١)

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ (٢)

* * *

---

(١) سورة المائدة [٢٧ ـ ٣١] .

(٢) سورة الكهف [٣٢ ـ ٤٣] .

وقد كان أمراً طبيعياً أن تكون القصة في القرآن «موجَّهة» خاضعة للأغراض الدينية التي جاءت لتحقيقها . فليس القرآن كتاب قصص في أصله . وإنما هو – كما قلنا – كتاب تربية وتوجيه ، وإنشاء حياة إنسانية كاملة . ولكن الدقة في الأداء ، وبروز القواعد الفنية فيه ، تجعل القصة – مع خضوعها للغرض الديني – طليقة من الوجهة الفنية . وتتيح لنا أن نتحدث فيها عن بعض السمات والخصائص الفنية البحتة من حيث دلالتها في منهج الفن الإسلامي .

* * *

من السمات البارزة في قصص القرآن أنها قصص «نظيفة» .

وليس المقصود بالنظافة أنها تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء ! فالقرآن يعرض تلك النفس في جميع حالاتها : حالة القوة وحالة الضعف . حالة الارتفاع وحالة الهبوط . وحالة التأرجح بين القوة والضعف والارتفاع والهبوط . كما يرسم الدوافع المختلفة التي تتناوش نفوس البشر في الأرض ، فتدفعهم حيناً إلى اللصوق بالطين ، وتتيح لهم حيناً فرصة الرفرفة والانطلاق .

ولكن منشأ النظافة أنه حين يلم بلحظة «الضعف البشري» لا يصنع منها بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق ! إنه يعرضها عرضاً «واقعياً» خالصاً ، ولكنه لا يقف عندها طويلاً ، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة . لحظة التغلب على الضعف البشري ، لأنها الجديرة بتسليط الأنوار عليها . وهي في حقيقتها «الإنسان» الذي كرمه الله وفضله على كثير من الخلق ، وعهد إليه بالخلافة الراشدة في هذه الأرض .

فهو إذ يعرض الفتنة التي وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى .. يعرض لحظة الضعف كما هي بلا «رتوش» . إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها – على واقعيتها – لا تستحق الاحتفال ، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه ، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها ، وينيب إلى الله .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (١)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ .. قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٣)

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ

---

(١) سورة ص [٢١ ـ ٢٤] .

(٢) سورة ص [٣٠ ـ ٣٥] .

(٣) سورة يوسف [٢٤ ، ٣٤] .

أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١)

تلك وأمثالها لحظات « ضعف بشري » يعرضها القرآن دون مداراة على أصحابها . ولكنه لا يصنع منها بطولة . لأنها في الحقيقة ليست كذلك !

كما أن هناك سمة بارزة أخرى في القصص القرآني وهو يعرض قصص « الفاحشة » . إنه لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة كما تصنع المذاهب « الواقعية » و « الطبيعية » في المذاهب الحديثة الضالة . فلحظة الجنس – منحرفة أو غير منحرفة – لا تستأهل الوقوف الطويل عندها . فإنها ليست هي الحياة ، إنما هي وسيلة من وسائل الحياة . إنها عارض يعرض في الحياة ويُقْضَى . يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق . يفسح المجال للتصور الإيماني الكبير للكون والحياة والإنسان . لملء المشاعر بذلك التصور ، وإطلاق النفس في واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله ما تقدر عليه : من إقامة مجتمع نظيف . من تربية نفوس مستقيمة . من إقامة الحق والعدل في الأرض . من تمتيع الناس بحقوقهم ، وتجميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش ، في غير فتنة بها ولا انحراف . وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الحس البشري ، وتشغل همّ الإنسان الرفيع الذي ينبغي أن يعمر وجه الأرض . ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها ، وتفصيصها ، وإعادتها ، والتفنن في عرضها ، لأن ذلك إسراف في المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية ، وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية . وهي ليست كذلك ولا ينبغي أن تكون .

تلك قاعدة مرعية في كل قصص القرآن عن « الفاحشة » . وهي كذلك ينبغي أن تكون مرعية في كل القصص الإسلامي . إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية – نظيفة

---

(١) سورة القصص [١٥ ـ٢٢] .

أو غير نظيفة – ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف . ولكنه يعرضها كما ينبغي أن تعرض . لحظة ضعف لا لحظة بطولة . ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب ، ولا يظل دائراً في حلقتها المرتكسة على الدوام [1] .

* * *

أما الخصائص الفنية في فصل «القصة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن» حديث مفصل عنها لا أجد بأساً من تلخيصه في هذه السطور :

أولى هذه الخصائص الفنية تنوع طريقة العرض :

فمرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها .

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تبدأ القصة من أولها وتسير بتفصيل خطواتها .

ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني .

ومرة يحيل القصة تمثيلية . فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها .

وثانية هذه الخصائص تنوع طريقة المفاجأة :

فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معاً في آن واحد .

ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عماية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين ، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية ، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين !

ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع ، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة .

ومرة لا يكون هناك سر ، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت ذاته .

وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة ، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد ، التي يتركها تقسيم المشاهد و «قص» المناظر ، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب .

---

(١) عن كتاب «منهج التربية الإسلامية» .

والخصيصة الرابعة هي التصوير . إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري ، لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى .

وهذا التصوير في مشاهد القصة ألوان : لون يبدو في قوة العرض والإحياء . ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات . ولون يبدو في رسم الشخصيات . وليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه . ولكن الواقع أن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً .

والآن نستعرض نموذجاً من نماذج القصة في القرآن ، لنرى بعض هذه الخصائص والسمات .

قصة آدم

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (١)

* * *

تلك قصة آدم .. قصة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير .. قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

فالإنسان ليس نباتاً شيطانياً ، خرج إلى الوجود حيثما اتفق ، بلا قصد من خلقه ولا غاية .. وليس هو كذلك « حلقة » من حلقات التطور ، أوصلتها الحلقة السابقة إلى مكانها ، ثم تركتها لحظها في خط التطور العشوائي المتشعب الذي تلعب المصادفة فيه دورها على غير نظام معلوم !

وإنما هو من خلق الله ، عن قصد منه سبحانه وتدبير :

« إني جاعل في الأرض خليفة » .

فهي إرادته العليا التي « جعلت » الإنسان إنساناً ، وهي إرادته العليا كذلك التي « جعلت » لهذا الإنسان مهمة معينة .. مهمة الخلافة عن الله في الأرض .

مولد الإنسان تحتفل به السماوات !

هذا هو الملأ الأعلى من الملائكة يُعْلَن بالنبأ العظيم ، يعلنه الله سبحانه وتعالى بذاته : « وإذ قال ربك للملائكة .. » .

ومنذ اللحظة الأولى تحدد له مهمته في إعلان ووضوح . فهو مخلوق مميَّز الوضع منذ أول لحظة ، متفرد في ظروف وجوده وخلقته ، لا كغيره من المخلوقات ! « خليفة » .. !

والملائكة يحارون في أمر هذا المخلوق ، ويدهشون لقرار الله سبحانه في أمره – وهم الذين يقابلون أمر الله كله بالتسليم المطلق والترحيب – ولكن كأنما يحسون بعظم النبأ وخطورته ، ويحسون بعظم النتائج التي ستنتج من وجود هذا الإنسان وخطورتها .. ولعلهم قد رأوا « عينات » سابقة تنذر بما ذكروه من سفك الدماء والإفساد في الأرض ، أو ربما كُشِفَ لهم عن علم ذلك ، فهم مشفقون من وجود هذا المخلوق الخطر الذي سيغير صورة الحياة على وجه الأرض !

ولكن الله العليم الحكيم يرد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون . فعلمه الشامل المحيط ، الذي يعلم بدء كل شيء ومنتهاه ، لأنه هو خالق كل شيء من بدئه لمنتهاه .. هذا العلم الشامل يعرف حقيقة الدور المعدّ لهذا الكائن الجديد ، الذي يعلن الله سبحانه بذاته نبأ مولده في العالمين : « قال : إني أعلم ما لا تعلمون » .

---

(١) سورة البقرة [٣٠ – ٣٩] .

« وعلم آدم الأسماء كلها » .

إنها المزية الموهوبة لهذا المخلوق .. إنها الموهبة التي يزوّد بها منذ مولده ليستعين بها على أداء دوره في الأرض . إنها « المعرفة » زاد الإنسان الأكبر في هذه الحياة .

وحين يكشف الله للملائكة عن هذه الموهبة التي ميز بها ذلك المخلوق .. لا يملكون أنفسهم أن يسبحوا لله العليم القادر ، الذي يخلق ما لا يعلمون .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » .

سجدوا للقدرة المعجزة المتمثلة في خلق الإنسان . إنه بصورته التي خلق عليها ، بمواهبه التي أعطيت له ، بدوره الذي يهيأ له .. معجزة تستحق السجود للخالق العظيم .

وكل خلق الله معجز . وكله عظيم . والحياة ذاتها من أكبر معجزات الخلق . والملائكة يسبحون لله ليلهم ونهارهم ولا يفترون . ويسجدون لله في كل حين . ولكن النبأ العظيم هنا يُبْرَزُ إبرازاً ، وتعطى له أهمية واضحة ، و « تحشد » له وسائل الاحتفال حشداً لتبرز قيمته كلها منذ البدء .

وذلك « فن » .. يجيء لخدمة الغرض الديني هنا ، ولكنه في ذاته يحمل كل خصائص الفن الخالص ، لأن الدين والفن في الإسلام كلاهما يعبر عن الحقيقة الكبرى .

« إلا إبليس » !

إنه وحده قد أكلت الغيرة قلبه من هذا الوافد الجديد ، الذي تدل النذر كلها على عظمة دوره المقسوم له في هذا الكون ! فلولا عظمة هذا الدور ما كان هذا الاحتفال الذي يُجْمَعُ الملأ الأعلى لتلقي أنبائه مباشرة من الله العلي العظيم !

« أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » .

لقد خلق لآدم من جنسه زوجاً ، لم يجئ ذكرها بالتفصيل هنا – وفصّل في أماكن أخرى – ولكن الإشارة واضحة .

وقيل لآدم وزوجه اسكنا الجنة ..

والإنسان منذ مولده مخلوق للأرض ! « إني جاعل في الأرض خليفة » . فهو لم يخلق ليبقى في الجنة ، التي شهدت مولده . ولم تكن إرادة الله له أن يبقى في الجنة ، ولا أن يكون دوره النشيط فيها . ومع ذلك تتاح له هذه الفرصة القصيرة ليتذوق طعم الجنة ويعلم كم فيها من نعيم . ويعلم كم يستحق هذا النعيم ! إن الجنة بالنسبة له ليست خيالاً طائراً ، ولا شوقاً مبهماً ، ولا أمنية حائرة . وإنما هي حقيقة يشهدها بنفسه قبل أن يهبط إلى الأرض لدوره

المقسوم .. لتظل ذكراها في نفسه حية نابضة ، وحنينه إليها مشاعر واضحة ، وسعيه للعودة إليها حقيقة واقعة [1] .

« وكلا منها رغداً حيث شئتما » .

النعيم كله مباح .. « رغداً » ... فهو ميسر وقريب المنال .

ولكن الدور الذي يهيأ له هذا المخلوق العظيم الوزن في السماوات ، يحتاج أن تكون له قوة ضابطة ، يستطيع أن يمتنع بها عن بعض ألوان النعيم ، حين تقتضي ظروف الأرض ذلك الامتناع . ولا بد من تربية هذه القدرة بالتجربة العملية . فالتربية النظرية لا غناء فيها حتى توضع على محك التجربة . والتدريب لا يكون إلا بالممارسة الفعلية .

« ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

أيّ شجرة هي ؟ ولماذا « هذه » الشجرة ؟ ذلك علمه عند الله . ولكن يستوي أن تكون أيّة شجرة . فالقصد هو التدريب على الامتناع . هو تربية القوة الضابطة . فإن أكلا من هذه الشجرة فقد أخفقا في التجربة وسقطا في الامتحان . وكانا عندئذ « من الظالمين » . ظالمين لنفسيهما ، إذ يعزفان عن تزويد نفسيهما بالقدرة اللازمة للدور العظيم ، ويعرّضان نفسيهما لدخول المعركة من غير سلاح .

« فأزلهما الشيطان عنها » .

وفي مواضع أخرى ترد صيغة الإغراء التي فتن بها الشيطان آدم وزوجه . فمرة ترد هذه الصيغة : « قال يا آدم : هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ؟! » [2] ومرة ترد في هذه الصورة : « وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » [3] . إنها إذن « شهوة » الخلود هي التي استزل بها الشيطان آدم وزوجه فأكلا من الشجرة .. أو شهوة « الملك » .. القوة والسيطرة والسلطان .

إذن .. لقد صارت هذه الشجرة « شهوة » ..

وهذا المخلوق العظيم الذي يتلقى الملأ الأعلى نبأ مولده من الله سبحانه مباشرة ، وتحتفل به السماوات كل هذا الاحتفال ، والذي يعدّ لدوره الضخم ، ويزوّد بإمكانيات ذلك الدور .. إنه – على هذا كله – يحمل نقطة ضعفه التي يستزله منها الشيطان ، عدوه اللئيم الذي أكلت قلبه الغيرة منه .

يضعف إزاء الشهوات .

---

(١) انظر تفسير هذه الآيات في الجزء الأول من « في ظلال القرآن » .

(٢) سورة طه [١٢٠] .

(٣) سورة الأعراف [٢٠] .

يستوي أن تكون شهوة علم ، أو شهوة قوة ، أو شهوة سلطان ، أو شهوة ملك ، أو شهوة جنس ، أو شهوة خلود .

إنها « شهوة » حين تركبه فلا يملك نفسه منها .. لا يملك الامتناع عنها حين يريد الامتناع . وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد ، فيقوده من خطامه في طريق الشهوات . وعندئذ يبعد به عن الدور المعدّ له . دور الخلافة عن الله . فهو مشغول بشهوته . عاجز عن ضبط نفسه إزاءها . عاجز عن الارتفاع عنها . عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى .. إلى الله .

« فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه » .

أخرجهما من نعيم الجنة حسّيّه ومعنويه سواء . أخرجهما من مستوى الرفعة الكريمة التي يمارسان فيها أجمل ما في كيانهما من إشراق .

ولكأنما كان ذلك هو الموعد المضروب لهما أن يهبطا إلى الأرض ، ليؤديا دورهما الأصيل :

« وقلنا اهبطوا . بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

ولكن لم يكن بد من التجربة قبل الهبوط .. ليعرف الإنسان — من تجربته الذاتية — لماذا هبط من النعيم . ليعرف أن الذي يهبط به هو شهواته . نقطة الضعف المركبة فيه . وأنه يرتفع حين يضبط هذه الشهوات . حين يمتنع إذ يريد الامتناع ، أو يقتضي الأمر الامتناع . وأنه يهبط حين لا يضبط هذه الشهوة . حين لا يملك القدرة على الامتناع ..

وإذ يعرف ذلك تدركه رحمة الله .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

إنه لا يهبط إلى الأرض منبوذاً محتقراً مطروداً من رحمة الله . كلا ! فالله قد خلقه ليؤدي دوره في الأرض . ومركز خلافته وميدانها هو الأرض . وهو قد جاءها ليؤدي المطلوب منه ، المقسوم له منذ الأزل . وإنما كان الغضب عليه للحظة الضعف التي أصابته ، فكان الرضا عنه حين عرف ميزان نفسه ، وأدرك متى يهبط ، وكيف السبيل إلى الارتفاع .

« إنه هو التواب الرحيم » .

« قلنا اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم مني هدًى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

لقد اكتسب الإنسان التجربة المناسبة لدوره الخطير . إنه خليفة الله في الأرض ، المزود بوسائل الخلافة ومواهبها ، والمشتمل كذلك على نقطة ضعف ينفذ منها الشيطان عدوه الحاقد اللئيم . ومن ثم كانت تلك التجربة التي تكشف له نفسه على حقيقتها ليحترس . ليغطي نقطة الضعف ويقويها بعد أن لمسها بنفسه حقيقة واقعة . وليحترس من العدو الواقف بالمرصاد ، بعد أن لمس بنفسه قدرته على الخديعة ، والمنفذ الذي يتاح له الولوج منه إلى نفس الإنسان .

ومن ثم تصبح هذه التجربة ذاتها — على مرارتها — جزءاً من مقومات الخلافة في الأرض .

جزءاً من « القوة النفسية » الممنوحة للإنسان . جزءاً من الزاد الذي يزوّد به لأداء الدور . وهي فوق ذلك عبرة لكل بني آدم ، الذين يشهدون في أنفسهم ذات التجربة ، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم فيتوقون للعودة إلى الجنة التي أُخرج منها أبوهم القديم .

وهم عائدون ..

عائدون بعد أن يؤدوا الدور الذي خلقوا لأجله من الأصل . دور الخلافة عن الله في الأرض ..

عائدون بشرط :

« فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

إن الله بعد أن زوّد الإنسان بالتجربة الكاشفة ، والقوة النفسية المستمدة من التجربة ، لم يتركه وحده وهو يقوم بدوره على الأرض . لم يتركه لنفسه وفيها ما فيها من ضعف . ولم يتركه لعدوه الواقف له بالمرصاد ، دون أن يهديه السبيل إلى مناجزة ذلك العدو ، والسبيل لتقوية ما في النفس من ضعف ، والسبيل إلى القيام بالخلافة كما ينبغي لخليفة الله .

إنه يمده بالهدى ..

يمده بالدستور الذي ينظم حياته على الأرض ، ويرفع من شأنها ، ويوجهها وجهة الخير .

يمده بالنصائح والتوجيهات والتحذيرات في كل خطوة من خطواته . ويزوده بالمعرفة النافعة التي تعينه على تخطي العقبات ، والتي تيسر له المهمة الشاقة ، وتكشف له عن طاقات نفسه الحقيقية ، وما تستطيع أن تكون عليه من رفعة وعظمة واقتدار ، لو سار بها على النهج القويم .. في طريق الله .

فمن تبع هذا الهدى .. من سار على هذا النهج .. من عمل بهذا الدستور .. فهو ناجٍ من المهالك . ناجٍ من العدو . ناجٍ من عثرات الطريق . « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وموعدهم الجنة في آخر المطاف ، يعودون إليها بموجب وعد الله الثابت ، أن يعيد إلى النعيم المفقود من تبع هداه .

أما المكذبون الكافرون .. أما الذين يصرون على المخالفة ، ولا يتوبون لله التواب الرحيم .. أما الذين يفتحون للشيطان منافذه في نفوسهم ، ويسيرون في طريق الشهوات .. أما هؤلاء فقد حقت عليهم عقوبة الطرد الأبدي من النعيم الموعود . و « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

* * *

تلك قصة البشرية .. بدأها آدم ، وما تزال تتكرر في حياة البشر على صورة من الصور على ممر الأجيال .

والقرآن يعرضها بطبيعة الحال لهدف ديني بحت ، هو التحذير من نزغات الشيطان ،

والحض على اتباع هدى الله ، والترغيب في الطاعة والترهيب من العصيان .. وذلك إلى جانب بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وإشعار هذا الإنسان بقيمته في نظام هذا الوجود ، وبكرامته على الله سبحانه ، وبتكاليف هذه النظرة وهذا التكريم .

ولكن هذا الهدف الديني البحت تستخدم له هنا الوسائل الفنية بدلاً من إلقائه موعظة مباشرة . فتستخدم له القصة ، وتستخدم في القصة كل وسائل التشويق والعرض التي تستخدم في الفن الخالص .

وتلك ذخيرة فنية صالحة للاقتداء بها من ناحيتين : ناحية استمداد النظرة إلى الإنسان من خلال هذه النظرة الالٰهية إليه ، وهي تمثل حقيقته كما خلقها الله . وناحية التناول الفني للموعظة التي توجه الناس إلى الخير والكرامة والنظافة .. « فالموعظة » المطلوبة ، أو « التوجيه » الخلقي المطلوب ، يمكن أن يصاغ في قصة فنية ، فيؤدي هدفه أبلغ أداء ، دون أن تظهر فيه الموعظة بصورة مباشرة ، ودون أن يكون التوجيه أوامر ونواهي مجردة ، خالية من « الكساء » الحي الذي يوسع مساحتها في الحس ، ويجعلها أبلغ وصولاً إلى أعماق النفس .

ثم إن هذه القصة تحمل إيحاءات شتى في « الموضوع » الفني ينبغي أن يتيقظ لها الفن الإسلامي وهو يحاول الاستفادة من القرآن في مجال الفن .

فالإيحاء الأول أن الإنسان كائن فذ متفرد في خلقته ومواهبه ، وأنه مخلوق لهدف جاد ، هو الخلافة عن الله في الأرض .

ومن ثم ينبغي أن يكون القَصَصُ – والفن كله – جاداً في عرضه للحياة البشرية .

ولا نقصد « بالجد » أن نلغي الفنون « الهزلية » (الكوميدية) من الحساب ! كلا فالملهاة يمكن أن تكون جادة جداً في الموضوع الذي تتناوله بالسخرية والإضحاك .

ولا نقصد أن يفقد الفن نداوته وطلاوته وعذوبته ، ليصبح نصائح وقواعد خلقية وإرشادات !

إنما نقصد بالجد هنا أن نؤمن بجدّية الحياة وأهميتها ، وعظم الدور الذي يقوم به الكائن الإنساني في هذا الوجود ، وارتباطه بإرادة الله العليا ، وسريان قدر الله في الأرض عن طريق أعماله ومشاعره وأفكاره : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. فلا نرسم الحياة تفاهة وانحلالاً وفراغاً من القيم والأهداف (إلا أن نريد هذا العرض عن قصد لننتقده ونُنَفِّرَ منه) ولا نرسمها ذات أهداف واطية قريبة كأهداف الحيوان .. فذلك يخالف « القصد » العلوي من خلق هذا الكائن البشري ، والاحتفال به يوم مولده في الملأ الأعلى بكل هذا التكريم والتفخيم والإعلان .

ولا علينا بعد ذلك أن تكون الصورة التي نعالج بها القصة مأساة أو ملهاة .. فالملهاة يمكن أن تكون جادة – كما قلنا – وهي تعرض اختلالات البشرية وتسخر بها ، لأنها تتخذ السخرية والهزل وسيلة فنية لتضخيم الاختلال وإبرازه ، ليتبدى من وراء ذلك ما ينبغي أن تكون عليه

البشرية من رفعة واستقامة وتوازن واتساق . ولا علينا كذلك من إعطاء الفن كل ما نملك من نداوة وعذوبة وطلاوة فهذه كلها عنصر أصيل في الفن لا يستطيع الاستغناء عنه .

إنما المهم أن نحس من خلال هذا الفن أن الحياة شيء له قيمته الحقيقية ، والإنسان كائن ذو مكانة ورفعة وقصد وأهداف .

* * *

والايحاء الثاني هو «نقطة الضعف» في الكائن البشري ، وطريقة عرضها وإبرازها .

إن القرآن – وكذلك ينبغي أن تفعل الفنون الإسلامية – يعرضها على أنها نقطة ضعف . «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا»(١) . «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا»(٢) «وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ»(٣) وهذه في ذاتها حقيقة . فهذا المخلوق الفذ الفريد الذي تسجد له الملائكة يضعف إزاء شهواته فيهبط إلى الحضيض .. ولا يرتفع إلاّ حين يقدر على ضبط ما ركب في طبيعته من شهوات .

والفن الصادق في التعبير عن الحياة ، وعن «الواقع» ، وعن نواميس الكون الكبرى ، ينبغي أن يعرض هذه الحقيقة كما هي بلا تزوير . ينبغي أن يعرضها على أنها نقطة ضعف ألمت بآدم – وتلم من بعده بكل أبناء آدم – ثم استطاع أن يستعلي عليها ، وكذلك يستطيع بنوه .

أما الآداب الأوربية المنحرفة الضالة فإنها تعرضها على أنها مفخرة لآدم وبطولة ! إذ لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيد نفسه ! وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعالة . ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم ، فإنها لا تساوي شيئاً إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته ، واختياره مصيره بنفسه ، بحرية ، بعيداً عن وصاية الله !

كذلك تعرضها الآداب الأوربية المنقطعة عن هدى الله ، المتأثرة في صميمها بما رسب في كيانها من أساطير اليونان القديمة التي تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة ، وتتمنى انتصار البشر على الآلهة ، الظالمين الطغاة !

وهي آداب ذات إيحاء خبيث لا يخفى . فهي توحي للناس بعصيان ربهم والإغراق في الشهوات لكي يحققوا ذواتهم ! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان ! وكأنما الطاعة لله هي انعدام الشخصية وزوال الكيان !

---

(١) سورة طه [١١٥] .

(٢) سورة البقرة [٣٦] .

(٣) سورة طه [١٢١] .

إنها نظرة – فوق ما فيها من مرض وانحراف – فجة تعيش في مستوى الأطفال !

فالطفل وحده هو الذي يظن أنه يثبت وجوده حين يعصي ، ويلغي كيانه إذا أطاع ! ولكنه حين يكبر وينضج ، حين يفهم الحياة في عمقها وحقيقتها ، يعرف أن هناك طريقين لا طريقاً واحداً لإثبات الذات : طريق الطاعة وطريق العصيان . طريق الهدى وطريق الضلال . وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق ، إلا في حالة الضعف والمرض والهبوط . أما في حالته السوية ، حالة الصحة والارتفاع ، فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود . ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيّرة المهتدية إلى الله .. أي بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته لبقدر على الصعود .

هذه حقيقة البشرية على الأرض . وهي الحقيقة التي ترمز لها قصة آدم في القرآن .

وهكذا ينبغي أن تعالجها الفنون كلها ، لكي تكون واقعية صادقة التعبير عن ناموس الحياة .

لحظة العصيان هي لحظة الضعف والهبوط لا لحظة القوة والارتفاع .. لحظة تقع لبني آدم في أية لحظة وفي كل لحظة ، ولكنها تظل كما هي في حقيقتها : لحظة هبوط ، ويظل التوجيه الواجب هو الإفاقة منها ، والتحول إلى طريق الارتفاع .

والضعف البشري ليس هو البطولة التي تستحق التشجيع والتسجيل ، وإنما البطولة الحقة هي محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطة الضعف ، والانطلاق من ضغط الضرورات .

* * *

ولن نستعرض هنا كل القصص القرآني ، فذلك وحده يحتاج إلى كتاب !

وإنما نكتفي بهذا النموذج الذي يحمل هذا الحشد من الإيحاءات الموضوعية والفنية سواء .

وحين يستمتع الإنسان بهذا « الفن » في قصص القرآن ، يدركه الأسف ولا شك ، على أن الأدب العربي قد خلا تقريباً – إلى ما قبيل العصر الحديث – مما يمكن أن يسمى قصة فنية حقيقية ، مع وجود هذا الذخر الفني كله في كتاب العرب المسلمين ، الذي يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ! وأنه حين وجد هذا الفن لم يستمد من هذا الأصل الكبير ، إنما استمد من التصورات الغربية مادته وإيحاءاته ، كما استمد طرائق الآداء . وطرائق الآداء لا ضير من استمدادها من هناك . أما التصورات والايحاءات فقد كان استمدادها من النبع الأصيل أجدى علينا وعلى البشرية ، وأكمل وأجمل ، وأكثر اتساقاً مع جمال الكون وجمال الحياة .

إنها خسارة كبيرة أن العرب لم يتوجهوا إلى القرآن يستمدون منه وحيهم الفني . وإذا كنا لمسنا هذه الخسارة من قبل في ندرة فن « الطبيعة » في الشعر العربي ، فنحن نلمسها هنا

أشد ، في خلو الأدب العربي من القصة المستفيدة بتوجيه القرآن الموضوعي أو الفني ع سواء !

وكم كان هذا الأدب يملك أن يسبق الآداب العالمية كلها في هذا الفن ، ويظل فيه ، لو فتح بصيرته لتلك الذخيرة الضخمة التي يحويها هذا الكتاب !

ثالثاً : مَشَاهِد القيَامَة في القُرآن

ليس من همنا في هذا الكتاب أن نستعرض كل فنون التعبير الفني ولا موضوعاته في القرآن . وإنما نختار فقط نماذج من الموضوعات تشير إلى تلك الثروة الفنية الضخمة ولا تحصرها . وقد تحدثنا من قبل عن مشاهد الطبيعة ثم عن القصة . وهنا نتحدث – بغير تطويل – عن مشاهد القيامة في القرآن ، وهي من أوسع أبواب الفن فيه ، ومن أكثرها وروداً في ثنايا القرآن .

وقد استفاد من هذه المشاهد شاعران عالميان ، أحدهما عربي وهو أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» والآخر هو «دانتي» الشاعر الإيطالي الذي عاش في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي وبداية القرن الرابع عشر ، وذلك في «الكوميديا الالٰهية» ، التي يغلب على الظن أنه استمدها وتأثر فيها برسالة الغفران .. وإن كانت المصادر الأدبية الأوربية تستنكف أن تعترف اعترافاً واضحاً بهذا الأمر .

ولكن الموضوع من ناحية ، وطريقة العرض الفني من ناحية أخرى ، أكبر وأوسع من أن يقتصر عليهما هذان العملان الأدبيان ، وما يزالان يصلحان للإيحاء الفني في شتى الاتجاهات ، لو أرادت الفنون المختلفة من شعر وقصة ومسرحية وموسيقى وتصوير .. أن تتخذ منهما مادة فنية خصبة رائعة الخيال .

و «الموضوع» في مشاهد القيامة موضوع ديني قبل كل شيء .. ولكنه ذو دلالات فكرية وخلقية وجمالية . فهو أصفى تصور عرفته البشرية لفكرة الجزاء الأخروي عن أعمال البشر في الحياة الدنيا . ولكن «الفكرة» فيه لا تقف عند حد الجزاء ، التي وصلت إلى شيء قريب منها أفكار الفراعنة في «كتاب الموتى» (١) .

إن من أبرز سمات هذه الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً بحيث تكون الآخرة هي «الامتداد» للدنيا ، أو النهاية الطبيعية الحتمية لها ، بلا فواصل حاجزة تفصل بين هذه وتلك . وهذه السمة بالذات لا يعرضها القرآن باللفظ المجرد ، ولا بطريقة التجريد

---

(١) يعتقد البعض أن بين الرسل الذين أشار اليهم القرآن دون أن يسميهم ، من أرسل إلى مصر وبشر فيها بدين الله . ثم تحول شيء من هذا الدين إلى أساطير كما حدث في كثير من بقاع الأرض .

الذهني الفلسفي ، وإنما يستخدم لذلك وسيلة عجيبة من وسائل العرض الفني – سنذكر نموذجاً منها – تنقل الحس نقلاً مباشراً من الدنيا للآخرة بلا انقطاع ولا فاصل ، حتى يقر في النفس أنها رحلة واحدة ، أولها هنا في الأرض وآخرها هناك في العالم الآخر .. ولكنها منذ البدء موحدة الهدف موحدة الاتجاه !

ومن سماتها التي تدخل في باب « الفلسفة » إذ تتناول التصور « الكمالي » و « الجمالي » للحياة ، أن الآخرة – بصورتيها من ثواب وعقاب – ليست نهاية الرحلة فحسب ، ولكنها « التطور » النهائي لها كذلك .

« فالنفس » البشرية تولد في صورتها الحسية الجسمية على الأرض ، ثم تخوض التجربة الكبرى ، تجربة الحياة ، وتتطور في أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة بعضها صاعد وبعضها هابط ، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط .. حتى إذا تمت التجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم ، وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة ، وكان الجزاء – بصورتيه – هو التطور النهائي للحياة بما يناسب تطور النفس وينسجم مع سماتها الأخيرة .

فالذين آمنوا ، وخاضوا تجربة الحياة محاولين أن يترفعوا ويحققوا أفضل ما في إنسانيتهم ، يصلون في النهاية مثلاً إلى أن يقال عنهم : « ونزعنا ما في صدورهم من غل [1] » كأنما هذا هو التطور الأخير لنفوسهم ، نتيجة المجاهدة الطويلة للارتفاع على هذا « الغل » في الحياة الدنيا . وتشف نفوسهم ، نتيجة هذه المجاهدة المستمرة فيقال عنهم في الآخرة : « سيجعل لهم الرحمن وداً [2] » . كأنما الود هو قمة الجزاء الإلٰهي لهم على هذه المحاولة الدائبة في الحياة الدنيا للوصول إلى الشفافية الطليقة من وراء قيد الضرورة الصفيق !

فإذا كان القرآن يرسم للنعيم صوراً حسية (وهي ليست حسية خالصة ، فقد ذكرنا في المثالين السابقين كيف يصل النعيم إلى قمة الشفافية الروحية والنورانية الرائقة) فذلك لأن « الإنسان » في الآخرة هو إنسان هذه الدنيا ، متطوراً في صورته النهائية التي اكتسبها من التجربة ، ولكنه ليس منقطعاً عن صورته الأرضية تمام الانقطاع .

وبهذا تصبح الآخرة هي « اكتمال » الحياة الدنيا ، ولا تصبح شيئاً مخالفاً لها في طبيعتها ، منقطع الصلة بها . ويحس الإنسان بنفسه أنه « هو » هنا وهناك ، وأن الذي سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصاً آخر منقطعاً ومختلفاً عنه ، وإنما هو ذاته في صورته النهائية التي تطور إليها نتيجة مسلكه في أثناء تجربة الحياة .

---

(١) سورة الأعراف [٤٣] .

(٢) سورة مريم [٩٦] .

وبصرف النظر عن الجانب الديني من هذه الحقيقة الكبيرة ، فإنه من الوجهة النفسية البحتة ، ومن الوجهة الفنية والجمالية ، تصور مريح للنفس . وجميل في حد ذاته . أن يكون المستقر الأخير بعد التجربة المرة الكادحة الشاقة ، امتداداً للنفس ذاتها التي ذاقت التجربة ، لا لأحد غريب عليها ، مقطوع الصلة بها .

وهذه المعاني كلها موضوع خصب للتصور الفني ، يستطيع أن ينشئ منه عشرات الصور والأشكال والموضوعات ، فضلاً عن الاستفادة من طريقة العرض القرآني المعجزة ، في إحياء هذه المشاهد ، وهز النفس بها هزاً عنيفاً ، ليبلغ التأثر فيها إلى الأعماق !

وليس لي أن أنشئ شيئاً جديداً في هذا الباب ، فسأكتفي بعرض هذا النموذج من كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » ففيه الغناء كل الغناء !

سورة الأعراف

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ۝ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١) سورة الأعراف [٣٥ – ٥١]

* * *

ربما كانت هذه أطول مشاهد القيامة وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع ، وهي تجيء في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء الشيطان له ولزوجه ، وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته – على نحو ما أثبتنا في أول الآيات المنقولة هنا – ثم يأخذ في عرض مشاهد القيامة ، فإذا الذي يقع فيها مصداق لما ينبئ به هؤلاء الرسل ؛ وإذا الذين يطيعون الشيطان فيكذبون قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا ، قد ردوا إلى الجنة ونودوا من الملأ الأعلى ،

«أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» . فكأنما هي أوبة المهاجرين وعودة المغتربين إلى دار النعيم .

وفي هذا السياق بين القصة السابقة ومشاهد القيامة اللاحقة من التناسق الفني ما فيه . فهي قصة تبدأ في الجنة على مشهد من الملائكة يوم أن خلق آدم وزوجه وأسكنا الجنة ففتنهما الشيطان عن الطاعة وأخرجهما من النعيم – كما جاء في قصة آدم في السورة – وتنتهي كذلك في الجنة على مشهد من الملائكة في اليوم الآخر ، فيتصل البدء بالنهاية ، ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا فيما لا يتجاوز صفحتين من كتاب ، حافلتين بالمشاهد ، ومنها مشهد الاحتضار ، وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

إنها ملحمة رائعة لا ينقصها الشعر ، فهي مصوغة في القالب الفني الذي يتضاءل أمامه الشعر ، وتجتمع له كل عناصر الجمال .

والآن نأخذ في استعراض هذه الملحمة ومشاهدها العجيبة :

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار – وهو برزخ بين الدنيا والآخرة – احتضار الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته ، وقد حضرتهم رسل ربهم يتوفونهم ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وأولئك حوار : «أين ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله ؟» أين آلهتكم التي اعتصمتم بها في الدنيا وفتنتم بها عن الإيمان بالخالق الأعلى ؟ أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يحفظ عليكم الحياة ؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد الذي لا معدى عنه ولا مغالطة فيه : «قالوا : ضلوا عنا» وغابوا ، فنحن لا نعرف لهم مقراً ، وهم لا يسلكون إلينا طريقاً . ألا ما أضيع عباداً لا تهتدي إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها في مثل هذا الأوان ! واليوم إذن لا جدال ولا محال «وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين» .

فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحن أمام المشهد التالي له في النار – فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طيًّا ، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار ! – «قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار» انضموا إلى زملائكم من الجن والإنس ، أليس إبليس هو الذي عصى ربه وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ، وهو الذي أغوى العصاة من أبنائه ؟ فليدخلوا جميعاً سابقين ولاحقين في نار الجحيم .

ولقد كانت هذه الأمم في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملي متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : «كلما دخلت أمة لعنت أختها» . فما أبأسها من عاقبة تلك التي يلعن فيها الأخ أخاه ! «حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً» وتلاحق آخرهم بأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال :

«قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلّونا ، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار» . وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة ويتكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضا ، ويطلب له من «ربنا» شر الجزاء . من «ربنا» الذي كانوا من قبل ينكرونه ، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب طمأنة للدّاعين باستجابة الدعاء ، ولكنها طمأنة ساخرة واستجابة أليمة : «قال : لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون» فاطمئنوا ، فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذي تطلبون ! .. وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون : لستم بأفضل منا فتنجوا ، ولسنا أولاكم بالعذاب ، فكلنا فيه سواء : «وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» .

وبهذا ينتهي ذلك الجانب الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل أبداً – وذلك قبل عرض الجانب الآخر الذي يصور المؤمنين في جنات النعيم – «إن الذين كذبوا بآياتنا ، واستكبروا عنها ، لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» . ودونك فقف بخيالك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . مشهد الحبل الغليظ تجاه ثقب الإبرة الصغير ! [1] فحين تجد ذلك الحبل الغليظ يلج في هذا الثقب الصغير ، فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن – وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط – فهم في النار التي تداركوا فيها جميعاً وتلاعنوا «وكذلك نجزي المجرمين» . وإليك صورتهم فيها : «لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ» فالنار فِراش لهم ، يدعوه للسخرية مهاداً – وما هو ممهد ولا لين ولا مريح – والنار غطاء لهم يغشاهم من فوقهم . «وكذلك نجزي الظالمين» !

والآن فانظر إلى الجانب الآخر : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» ما بال هؤلاء ؟ «أولئك أصحاب الجنة فيها خالدون» أصحابها وملاكها ، فقد أورثوها جزاء ما عصوا الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة .

وإذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون في النار ويتخاصمون وتغلي في صدورهم الأحقاد بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متصافون يرف عليهم السلام والولاء : «ونزعنا ما في صدورهم من غل» وإذا كان أولئك يصطلون النار من فوقهم ومن تحتهم فهؤلاء «تجري من تحتهم الأنهار» وإذا كان أولئك

(١) «بعض المفسرين يفسر الجمل هنا بأنه الحيوان المعروف . ولكن الذي يدرس طريقة التصوير في القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو في المنظر ، يلحظ التنافر بين الجمل والإبرة ، كما يلحظ التناسق إذا كان الجمل هو الحبل الغليظ أمام ثقب الإبرة الذي يدخل منه الخيط الدقيق . والاستحالة متوافرة في المعنيين ، ولكن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير الأخير» .

يشتغلون بالتنابز والخصام فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف «وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق» . وإذا كان أولئك ينادَون : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» زيادة في الإيلام والتحقير ، فهؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم : «ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» .

ثم يستمر العرض فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد استقر أصحاب الجنة في الجنة واستقر أصحاب النار في النار . وإذا الأولون ينادون الآخرين من هناك «أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟» – وفي هذا السؤال من التهكم المر ما فيه ، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد سواء . ولكنه سؤال ! – ويجيء الجواب من هناك : «نعم !» حيث لا مجال لنكران أو محال . وعندئذ ينتهي الجدل ويغلق الحوار «فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين» .

ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة – ساحة العرض الفسيحة – فإذا مشهد آخر ، مشهد «الأعراف» الفاصلة بين الجنة والنار ، وكأنما هي «نقطة مرور» يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره هنا أو هناك . وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء بسيماهم ، فيوجهونهم إلى حيث هم ذاهبون . ويشيعون كلاً منهم بما يستحق من تحقير أو تكريم ! ..

وهؤلاء هم يتوجهون إلى أهل الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أهل النار بالتبكيت والإيلام «أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟» انظروا أين هم الآن ؟ إنهم في الجنة يتلقون السلام !

وأخيراً ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من النار ملؤه الرجاء والذلة والاستجداء : «ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» ! وها نحن أولاء نتلفت إلى الجانب الآخر ننتظر الجواب ، فإذا هو المعذرة والتذكير : «قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين» !

وحين ينتهي الاستعراض الكبير على هذا النحو المؤثر يجيء التعقيب متناسقاً مع الابتداء : تذكيراً بهذا اليوم الذي مرت مشاهده ، وتحذيراً من تكذيب آيات الله التي جاء بها الرسل إلى بني آدم انتظاراً لتأويل هذه الآيات . فما تأويلها إلا وقوعها على النحو الذي عرضت به . وحينئذ لا فسحة ولا شفيع : «هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» ! [1]

* * *

---

(١) «مشاهد القيامة في القرآن» ص ٨٦ – ٩٢ من الطبعة الرابعة .

والآن وقد انتهينا من استعراض هذه المشاهد الخلابة ، واستعراض تلك الألوان الثلاثة من الفن في القرآن ، التي استعرضناها على سبيل المثال لا الحصر ، نحس مدى الثراء والامتلاء في هذا الكتاب المعجز . ومدى ما يمكن أن يستوحيه الفن منه ، في جميع أغراضه ، لا في الأغراض «الدينية» وحدها ، وإن كان الدين بمفهومه الإسلامي القرآني ، لا ينعزل عن الحياة لأنه يشمل كل الحياة .

إنها ثروة لا تنفد في كل منحى من مناحي الفن ، ومجال للاستيحاء الدائم ، ورصيد لفن إنساني رفيع سامق يحمل كل خصائص الفن الجمالية .. ويقود البشرية دائماً نحو النور والكمال .

في الطريق الى أدب إسلامي

الأدب الإسلامي – في صورته المتكاملة التي استعرضنا أسسها من قبل – شيء لم يوجد بعد في الإنتاج البشري !

ولكن هذا لا ينفي وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب ، تنبئ بأنه قد ولد بالفعل ، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج .

وهذا وحده شيء ليس بالقليل ..

فحين يطمئن الإنسان إلى هذه البواكير ، وإلى دلالتها على النضج المقبل ، يستطيع أن يتطلع إلى اليوم الذي يتكامل فيه هذا الأدب – والفنون الأخرى كذلك – فتعطي الإنسانية كلها ذلك القبس المشرق الذي لم تهتد إليه بعد ، وإن كانت قد وفقت إلى لمحات منه بين الحين والحين ؛ وتعطيها ذلك الطعم المتكامل الذي افتقدته منذ مولدها ولم تصل إليه في تمامه ، وإن كانت قد ذاقت بعض نكهاته متفرقة هنا وهناك : « القبس الكوني » الذي يعبر عن معنى الوجود كله .. و « الطعم الإنساني » الذي يعبر عن كل وجود الإنسان .

والأمر في حاجة إلى مسلمين .. فنانين !

مسلمين يعيشون الإسلام في حسهم حقيقة واقعة ، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامي ، ومن خلال التصور الإسلامي ؛ فنانين في ذات الوقت ، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة في حسهم بصورة جميلة موحية ، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيري .

والعنصران لازمان معاً في ذات الوقت .

فليس يكفي أن يكون الإنسان مسلماً لكي ينشئ فناً إسلامياً تتحقق فيه شروط الفن .

وليس يكفي بطبيعة الحال أن يكون فناناً – أيّ فنان – ليصل إلى التعبير عن الفن الإسلامي .

* * *

الإسلام وحده لا يكفي لإنشاء فن إسلامي ..

فقد يستطيع مسلم صادق الإيمان وهب المقدرة على التعبير ، أن ينشئ « أفكاراً » إسلامية عن الله . أو الكون . أو الحياة . أو الإنسان . أو كلها جميعاً .. وقد يستطيع أن « يجرد » من حياته وتجاربه الإسلامية صوراً فلسفية ومفاهيم عامة عن الإسلام .

وهذا كله إنتاج له وزنه ولا شك في عالم الفكر وعالم الفلسفة وعالم التجريد ..
ولكنه إنتاج لا صلة له بالفن ..

فالفن ليس «فكرة» ولا «فلسفة» ولا «مفاهيم مجردة» كالتي تعنى بها «البحوث» الفكرية في شتى الميادين .

وإنما هو «الانفعال الذاتي الخاص» بالأشياء والأشخاص والأحداث . الانفعال الذي تتلقاه كل نفس مفردة على طريقتها الخاصة في التلقّي ، وتنفعل به في أعماقها ، و «تعانيه» معاناة كاملة بكل جزئياته وتفصيلاته ، ثم تخرج من هذه المعاناة المشتبكة بوشائج النفس ، النافذة إلى حناياها ودروبها ، المختلطة برصيدها الخاص من المشاعر والتجارب والاتجاهات والميول .. تخرج منها بتجربة شعورية معينة ، أو «بإفراز» معين ، يحمل السمات الذاتية لصاحبه ، ويحب صاحبه أن ينقله إلى «نفوس» الآخرين في صورة جميلة يتوافر لها التأثير والإمتاع .

والفن «رؤية» للواقع من خلال ذلك الانفعال الذاتي الخاص بالأشياء والاشخاص والأحداث ، و «تفسير» لهذا الواقع في ذلك الضوء الخاص ، تفسيراً شعورياً – لا فلسفياً فكرياً – كما أنه هو «رؤيا» للمستقبل ، وللمجهول ، وللماضي كذلك بنفس الشروط .

والفن الإسلامي – من ثم – ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم ، أي «إنسان» تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة ، والواقع بمعناه الكبير ، وزود بالقدرة على جمال التعبير ؛ وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي ، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور ؛ ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها ، في صورة جميلة موحية .

وهذا هو الذي لم يتيسر من قبل في الأدب العربي – لسبب من الأسباب – والذي توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل ، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج .

ولكنه – بهذا المعنى – ليس وقفاً على المسلمين وحدهم من الفنانين !

صحيح أن المسلم الحق [1] – بطبيعة إسلامه – يجد الطريق أمامه ميسراً – حين يوهب الموهبة الفنية – لأنه يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل ، وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم ، دون جهد مبذول منه ولا افتعال ، بل دون قصد واعٍ منه إلى هذا الانفعال !

وصحيح – من ناحية أخرى – أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي **الكامل** ، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه ، ولأن الإنسان

---

(١) انظر في شرح مفهوم الإسلام كتاب : «هل نحن مسلمون ؟»

لا يصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام .

ومع ذلك فإن التصور «الفني» الإسلامي للكون والحياة والإنسان ، هو تصور كوني إنساني .. مفتوح للبشرية كلها ، لأنه يخاطب «الإنسان» من حيث هو إنسان ، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان . ومن ثم يستطيع أي «إنسان» أن يتجاوب مع هذا التصور ، ويتلقى الحياة من خلاله – بمقدار ما تطيق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب – فيلتقي مع الفن الإسلامي **بذلك المقدار** .

ومن أجل ذلك لم نقصر النماذج التي أخذناها من «بواكير» الأدب الإسلامي على المسلمين من الفنانين ، بل اخترنا إلى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين ، لأنها تلتقي – التقاء جزئياً على الأقل – مع التصور الإسلامي ، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الإسلامي للفن في هذه الحدود .

ثم يبقى لدينا وراء ذلك نتاج عالمي ضخم – رائع في كثير من الأحيان – لا يلتقي بالتصور الإسلامي ، ولا يسير مع المنهج الإسلامي للفنون . فما موقفنا منه ؟ وما رأينا فيه ؟

إننا لن ننبذه كله بطبيعة الحال ، ولن نمتنع عن قراءته ودراسته والاستمتاع بما فيه من جمال جزئي .. على أن يظل في مفهومنا أنه جمال جزئي ! وأنه – بكل ما فيه من جمال وروعة – يقوم ابتداء على قاعدة أدنى وأصغر من القاعدة التي ينبغي أن ينشأ عليها الفن الإسلامي .. الكوني الإنساني .. الشامل المتكامل ، الذي يشمل كل الوجود وكل الإنسان .

وسنجد كذلك فناً «محايداً» لا يحمل سمات معينة تقربه من المنهج الإسلامي ، ولا يحمل كذلك سمات تصطدم بهذا المنهج وتسير منه في اتجاه مضاد .

وقد يكون في هذه الفنون كذلك لون من الجمال ..

ولكنها لن تكون – على وجه التأكيد – من روائع الفنون !

فالفن «الكبير» – بطبيعته – يحمل بالضرورة تصوراً معيناً للكون والحياة والإنسان ، وارتباطات بعضها ببعض ، وارتباطاتها بالله خالق الجميع . ومن ثم يتحدد مكانه تلقائياً من منهج الفن الإسلامي : إما أن يلتقي معه التقاء كاملاً أو جزئياً ، وإما أن يتعارض معه ويصادمه .

ولذلك لا نحفل كثيراً بهذه الفنون «المحايدة» وإن كنا كذلك لا نسقطها من الحساب !

ونأخذ – بعد – في ذكر بعض الأمثلة من «بواكير» الأدب الإسلامي تنير الطريق !

أولاً : من الشعر

(١) محمد إقبال

إقبال فيلسوف مسلم مفكر .. وله في عالم الفلسفة والفكر إنتاج ليس بالقليل .

ولكنه كذلك شاعر ..

وفي غير قليل من شعره يمتزج الشعر بالفلسفة ، وتلمس بصورة واضحة أنه يصوغ أفكاره – أو بالأحرى تجاربه الفلسفية – في شعر ! ولكنه حتى عندئذ لا يعطيك تجربة فلسفية ذهنية ، وإنما يعطيك تجربة «عاناها» في شعوره وانفعل بها وجدانه وجاشت بها نفسه ، فعبر عنها في نسق منغم موزون ، ولم يعبر عنها بالنثر – كما يصنع في الأحوال الأخرى – لأنها ليست تجربة ذهنية يعبَّر عنها بالنثر .

ثم إن له – إلى جانب ذلك – شعراً خالصاً .. تحرر من جفاف الفكر ومن قيد الذهن .. وانطلق في خفة وطلاقة يعبر عن حرارة الوجدان .

وهو في معظم حالاته يعبر عن تصور مسلم ، وإن شاب هذا التصور أحياناً أخلاط من تصورات صوفية هندية وغير هندية ، تخرج به قليلاً أو كثيراً عن التصور المستقيم للإسلام .

وأشد ما يروعه من الفكرة الإسلامية الصافية ، وأشد ما تنفعل به نفسه كذلك ، هو «الحركة الحية» .. الحركة الحية في كل شيء في هذا الوجود .

إنه لا يوجد شيء ساكن على الإطلاق ، لا في الأحياء ولا في غير الأحياء . كل شيء حي . وكل شيء متحرك . وكل شيء يقتحم السكون لكي يوجد . لأنه «طاقة» والطاقة لا تطيق السكون . وإن أراد شيء لنفسه السكون فقد أراد الموت ، وقد خرج بذلك عن الناموس !

وشيء آخر من الفكرة الإسلامية الصافية يروعه كذلك وتنفعل به نفسه ، هو «النفس الإنسانية» .

الإنسان – في حس إقبال – طاقة كونية ضخمة تتمثل فيها كل طاقات الوجود . إنها قبس من النور . قبس من القدرة الخالقة – وذلك معنى أن الإنسان خليفة الله في الأرض . وهو بذلك أثمن ما في الوجود كله ، وأقدر ما في الوجود كله .. وذلك حين يستمد من الله . فهكذا خلقت الروح الإنسانية . أو «النفس» .. بحيث تستمد من قوة الأزل والأبد ، فتشرق و «تشتعل» وتصبح طاقة كونية مريدة فاعلة .

و «الاشتعال» مسألة حيوية جداً بالنسبة لإقبال !

إنه لا يطيق أن يتصور الحياة إلا اشتعالاً في صورة من صور الاشتعال !

إنه لينفر من كل شيء خامد أو ميت أو غير مشتعل ، لأنه يتصوره كافراً بحقيقة الحياة وحقيقة الوجود !

ولكنه لا يتصور ذلك كله حقائق مجردة في عالم الفلسفة والفكر .. وإنما هو يعيش هذه المشاعر في داخل نفسه ، و «يعانيها» كما قلنا معاناة شعورية حقيقية ، ويكتب الشعر من خلال هذه المعاناة ..

ولا ريب أن حياته في الفترة المضطربة الجياشة من تاريخ الهند ، وهي تكافح الاستعمار ، والمسلمون فيها يعانون ألواناً كثيرة من المظالم ، ويناضلون ليثبتوا وجودهم ويحققوا كيانهم الذاتي ، و «تشتعل» في وجدانهم الرغبة القوية في أن يجدوا لأنفسهم كياناً مستقلاً واضح الوجود .. لا ريب في أن هذا كله يمكن أن يكون قد شكَّل نفسه هذا التشكيل الخاص ، وجعل «الحركة الحية» و «الاشتعال» و «الكيان الفاعل المريد» في نظره هي حقيقة الوجود .

ولكن هذه كلها – من جانب آخر – حقائق إسلامية دائمة بصرف النظر عن هذه الفترة بعينها من حياة الشاعر أو البيئة التي عاش فيها .. ولم تتملك العقيدة الإسلامية نفساً من النفوس في أي وقت إلا استحالت فيها إلى حركة حية فاعلة مريدة .. هكذا منذ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم وغداً .. لأنها هكذا في حقيقتها . ولأنها تصل القلب بالله وبالكون .. فيتحرك .. و «يشتعل» !

ومن هنا فإقبال في هذه المشاعر مسلم – بصرف النظر عن ظروفه الخاصة – وهو كذلك مسلم في هذه الظروف الخاصة ، لأن العقيدة الإسلامية تلتقي مع الفطرة الإنسانية في جميع حالاتها وجميع ظروفها ، وتكيّفها في كل حالة بمقتضى حقيقة الإسلام .

وهذان نموذجان من شعر إقبال ، من ديوان پيام مشرق[1] أو (رسالة المشرق) تتجلى فيها هذه المعاني واضحة شديدة الوضوح ، إلى جانب المعاني الأخرى الكثيرة التي يفيض بها شعر إقبال :

من قصيدة طويلة عنوانها «شقائق الطور» منظومة في رباعيات :

٢٠ – وكم ذا في الوجود من الحبور ! أرى الذرات في شوق الظهور
ويصدع غصنه برعوم زهر فيبسم للحياة من السرور

* * *

٢١ – تقول فراشة من قبل خلق أَنِلْنِي لمحة قلق الحياة
رمادي فَاذْرُهُ سَحَراً ولكن أَذِقْنِي ليلة حُرَق الحياة

* * *

(١) ترجمة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

٢٤ – أراك بسر أفلاكٍ تجول   وتجهل سِرّ نفْسك يا جهول
فوجّهْ – كالنواة – إليك عيناً   لينبت من قرارتك النخيل

* * *

٦٠ – دع الشطآن لا تركن إليها   ضعيف عندها جَرْسُ الحياة
عليك البحر صارع فيه موجاً   حياة الخلد في نَصَبٍ تواتي

* * *

٨٤ – ثوت في صدرنا همم كبار   بطينتنا فؤاد فيه نار
من الخمر التي فينا أضاءت   مقيم في زجاجتنا شرار

* * *

١٠١ – لنا كون لإزميل ونحت   يقلّبه صباحك والمساء
مثال من ترابٍ لم يكمّل   يسويه بمبرده القضاء

* * *

١٠٨ – ترى رمز الحياة بكل كِمّ   مجاز فيه يا قلبي الحقيقة
بترب مظلم ينمو ولكن   له عين إلى شمس الخليقة

* * *

١٠٩ – يضيء على المروج وكل سَهْبٍ   وكاس الورد فيه نور حُبّ
وما تغشى الورى ظلمات ليلٍ   فحرقته السراج لكل قلب

* * *

١١٢ – بقلبي سر جثمان وروح   فلا فزعٌ إذا أجلي أتاني
فإما غاب عن عينيّ كون   فباقٍ ألف كون في جناني

* * *

١١٤ – مزاج الزهر أعرف في يقين   وريح الورد في خَلَدِ الغصون
وحببني إلى الأطيار أني   عرفت لها مقامات اللحون

* * *

١٢٦ – أَفِقْ ما القلب بالأنفاس يحيا   ولا هو رهن ما يبقى ويفنى
أخا الأوهام لا ترهب حِماما   فإن نَفَسٌ مضى فالقلب يبقى

* * *

١٣٩ – أثرت بنغمتي كل النوادي   ومن شرر الحياة جعلت زادي
أضاء القلب من عقلي ولكن   جعلت عيار عقلي في فؤادي

* * *

٨٢ – أيا طفل السجايا اسمع عتابي ... أإسلام وفخر بانتساب ؟
فإن تعتز بالأنساب عُرْبٌ ... فإن جزاءها هَجْرُ الصّحاب

* * *

٨٣ – أأفغان وتاتار وترك ... وفي مرج ومن غصن نمونا
حرام بيننا تفريق لون ... ربيع واحد فينا زهونا

* * *

١٦١ – رأيتك لا تزال أسير طين ... إلى ترك وأفغان تُسَرّد
أنا بشر بلا لون وريح ... وللتوران أو للهند بَعْدْ

ففي الرباعية الأولى (رقم ٢٠) يعبر عن فرحة الكائنات «بالوجود» . فوجودها ذاته يثير في كيانها الفرحة والسرور . وهي تواقة لأن «توجَد» وأن تُظْهِرَ وجودها في عالم العيان بعد إذ هي طاقة في طي الكتمان . وتكافح في سبيل ذلك بما هو مرصود في كيانها من «الإرادة» و «الفاعلية» . فبرعم الزهر «يصدع» غصنه .. يشقه شقاً .. ليظهر إلى الوجود .. وفي اللحظة التي يوجد فيها بالفعل ، يبتسم .. يبتسم من السرور .. للحياة والوجود .

وفي رباعية (٢١) يعبر عن طريقة إحساسه بالحياة ومعناها : إنه القَلَق .. إنه الحُرَق .. هذه هي الحياة الحقة ! الحياة «المتحركة» من ناحية ، التي ينشأ من حركتها في النفس هذا القلق المعبر عن الرغبة الدائمة في جديد من صور الحياة ، وعدم الركون أو السكون إلى وضع واحد من أوضاع الحياة مهما كان جميلاً في ذاته ! والحياة «المشتعلة» من ناحية أخرى ، التي تصل المشاعر فيها إلى درجة التوهج والاشتعال من قوتها واندفاعها . وهذا القلق وهذه الحرق هي خلاصة الحياة وأمنية الاحياء ، بحيث لا يساوي «العمر» أو «الزمن» شيئاً بجانبها .. فليس المهم أن تطول الحياة وتمتد ، إنما المهم أن «تمتلئ» .. تمتلئ بالحياة وبالحرق .. ولو ليلة واحدة أو لمحة واحدة ! تساوي في «جوهرها» كل الحياة .

وهذا المعنى الجميل لا يقدمه لنا الشاعر في صورة فلسفية مبلورة . وإلا فَقَدَ سحره كله وجماله ، وإنما يقدمه لنا من خلال «نفس» حية ، هي الفراشة التواقة للحياة ، التي تعبر في ذات الوقت عن نفسه هو ، وطريقة إحساسها بالحياة .

وقريب من هذا المعنى – في صورة تعبيرية أخرى – الرباعية (٦٠) التي يقول فيها إن «جَرْس» الحياة ضعيف عند الشطآن ! لأن الحياة هناك خامدة ليس فيها معاناة ! وإنما حياة الخلد تواتى عن طريق التعب والنصب والصراع والاقتحام ..

وفي الرباعية (٢٤) يسخر من الإنسان الذي يبحث جاهداً في أسرار الفلك الخارجية – أو الظاهرية – وهو يجهل سر ذاته ، وأنه هو «الحياة» أو منبت الحياة . وأنه لو تدبر

طاقات ذاته وعرف حقيقتها لاستطاع أن يجعل منها قوة نامية حية متحركة « منشئة » .. لأنه يكمن فيها سر الحياة .

وقريب منه – في صورة أخرى – رباعية (٨٤) التي يقول فيها إن الطينة البشرية تشتمل على نار مقدسة هي التي تضيء للكائن البشري حياته . وأن « شرر » هذه النار مقيم لا يبرح الكيان البشري .

وفي هاتين الرباعيتين نلمح ما سبق أن أشرنا إليه من غرام الشاعر بالحياة « المتحركة » من ناحية ، « المشتعلة » من ناحية أخرى .

وفي رباعية (١٠١) يعبر – في صورة فنية – عن شعوره « بالقضاء » . إنه ليس خبط عشواء . إنه ليس بلا غاية . إنه ليس شيئاً ينزل بالبشر بلا ضرورة . وإنما الكيان البشري – كتمثال من تراب لم يكتمل تكوينه (أو لم يكتمل نضجه بتعبير آخر) – يقلّبه تداول النهار والليل كما يقلب النحات التمثال بالإزميل والمبرد ، ليسوي فيه قطعة هنا أو يحفر قطعة هناك .. حتى يكتمل التمثال وينضج الكيان !

ومرة أخرى لم يقل لنا الشاعر هذا المعنى في صورة فلسفية مبلورة ، وإن كان يتناول معنى من المعاني الفلسفية ، وإنما يصوره في صورة فنية تشغل مساحة في الحس والخيال والوجدان .

وفي رباعيتي (١٠٨ ، ١٠٩) نرى غرام الشاعر بالنور .. النور جميل رائق صافٍ .. إنه نور « الحب » .. ومع ذلك فهو يحب النور على طريقته الخاصة في تلقّي الحياة كلّها والأحياء .. إن النور ليس – كما يراه غيره من الناس – ضياء حالماً ناعساً هادئاً « مريحاً » للأعصاب !! كلا ! إنه « اشتعال » ! إنه « حُرَق » ! فالنبات ينمو في باطن الأرض المظلم ولكنه يتطلع إلى « الشمس » . وتلك حقيقة « علمية » ! ولكن الشاعر يلتقطها هنا من خلال مزاجه الخاص ، فالذي يلفته فيها أن النور المشرق الحار المشتعل هو أصل الحياة .. وهو الذي تقبسه الكائنات وتوزعه إشراقاً وحباً .. والأصل فيه هو « الاحتراق » .. أو هو إثارة « الحرق » .. ومن ثم لا يوجد ظلام في الكون حتى في الليل حين تغيب الشمس المادية الملموسة ، لأن الأصل في النور وفي الحياة ، وهو الحرق والاحتراق ، باقٍ في الليل ، يضيء للقلوب كالسراج !

وفي رباعية (١١٤) يعبر عن حبه للطبيعة بكل كائناتها من زهور وورود وأطيار .. كلها جميلة لأنه « يعرفها » . فالمعرفة – وهي المعرفة « الباطنة » بلغة الصوفية – هي التي تنشئ الحب ، وهي التي تمزج بين أرواح الكائنات فتلتقي كلها على الحب .

وفي رباعيتي (١١٢ ، ١٢٦) يعبر عن حقيقة الحياة في نظره . فليس الجسد هو الذي يقرر الحياة أو الموت .. وإنما هي الروح .. والروح باقية وإن فني الجسم . ومن ثم فلن

يرهب الموت . فهو باق من بعد الموت . وإذا كان الموت سيحرمه كوناً واحداً هو الذي تراه عيناه ، ففي قلبه ألف كون لن يفقدها لأنها حية معه في قلبه الحي .

وفي رباعية (١٣٩) صورة من صور «الجيشان» في نفس إقبال . إنه يثير بنغمته «كل» النوادي . هكذا على الاتساع ! فلن يكون حيًّا في نظر نفسه حتى يحدث دوياً في كل ناد ! وزاده هو «شرر» الحياة ! مرة أخرى يمزج بين الحياة «المتحركة» والحياة «المشتعلة» .. إنهما عنده سمتا الوجود . لا وجود بلا حركة واشتعال !

ولكنه في الشطرين الثالث والرابع من هذه الرباعية ذاتها ينشئ معنى جديداً ، نادراً في اندفاعات إقبال الجياشة ! إنه «التوازن» .. التوازن بين القلب والعقل . بين طاقتين من طاقات الحياة . إن قلبه يستمد الضياء من عقله . ولكن عقله مع ذلك يستمد توازنه من فؤاده أي من قلبه . وهكذا «تتزن» مشاعر إقبال ، ليكون متمشياً مع «توازن» الإسلام !

أما رباعيات (٨٢ ، ٨٣ ، ١٦١) وقد غيرنا ترتيبها لتجيء متجاورة ، فهي تعبر عن نزعة إقبال «الإنسانية» الإسلامية .. إنه ينفر نفوراً شديداً من تقسيم المسلمين إلى عرب وأفغان وتتار وترك .. إلخ . إنما هم جميعاً مسلمون . ولا يجوز أن تقوم الفرقة بينهم وهم جميعاً من غصن واحد ، وفي مرج واحد ، وزَهَوْا في ربيع واحد (ولا يفوتنا هنا أن نلتفت إلى تعبيره بالطبيعة الحية وبالربيع عن معنى من المعاني التجريدية وهو الأخوّة في الإسلام) ثم ينتهي في الرباعية الأخيرة إلى الأخوّة في البشرية عامة وهي الأصل الكبير الذي تلتقي فيه الأخوّات جميعاً ، والذي ينبغي أن يرتد إليه البشر كلهم في علاقات بعضهم ببعض ، قبل أن يتعصبوا لقومياتهم .. فهذا التعصب لون من الأسر .. أسر الطين الذي يأسر الروح !

* * *

وهذه قصيدة اسمها «الربيع» :

(١)

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

وشدو العنادل في كل واد

ودُرَّاجه والقطا في تهادي

على حافة النهر جذلَى شوادي

شقيق وورد ضحوك ينادي

فَطَرْفُكَ سرح بهذا المَرَاد

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

(٢)

هلـــم فملء الـــربى والسهــول قـــوافـــل أزهــــاره والــــورود

نسيم الربيــــع على كـل عـود

وللطــــير إبداعهــا في النشيد

ومزّقت الجيبَ حمرُ الخدود [1]

جنى الحسنُ ناشئ زهر نضيـد

وللعشق إبـــداع غــم جديد

هلـــم فملء الـــربى والسهــول قـــوافـــل أزهــــاره والــورود

(٣)

صفـــير البـلابـل مـــلء الجـــواء وصوت الصلاصل [2] مـــلء النسيم

دم المـرج في جـــوفه كالحميم

فيــا قاعـــداً صامتاً لا يـريم !

دع الصمت واتـرك وقار الحليم

وخمـر المعــاني اشربنْ يا سقيم

تدثــر بوردٍ وغـــنّ النـــديــم

صفير البـــلابـل مـــلء الجــــواء وصوت الصـــلاصل مـــلء النسيم

(٤)

دع الـــدور واطلب فسيح الـــبراري وانظـــر إلى صفحـــات الجمــــال

على حـافـة الماء دون مــــلال

تــأمــــل تـرقـرق مــاء زلال

وحـدق إلى نــرجس ذي دلال

بنيـــات نيسان ذات اختيـــال

وقبّل عيـــونـــاً لهـــا كاللآلي

دعِ الـــدور واطلب فسيح الـــبراري وانظـــر إلى صفحـــات الجمــــال

(٥)

وعين البصــــيرة فــانظــــر بهــــــا أيـــا غافلاً عن عيـــان الخِلَــــقْ

شقيق بـــدا حَلَقــاً في حلــــق

---

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل الفاختة أو طائر يشبهها .

بـأعطـافـه لهب قـد علـق
على كبـد فيـه ذات حرق
بلـوح نـدى من دموع الفلق
فحـدّق إلى أنجـم في شفق [1]

وعـين البصيرة فـانظـر بهـا   أيـا غافـلاً عن عيـان الخِلَـقْ

(٦)

ثـرى المـرج صرّح في هَيْجِـه   بمـا أضمرت مهـج الكائنـات
فنـاء الصفات وكون الصفات
ومـا أبـدت الذات من جلوات
ومـا خلتَـه من معاني الحيـاة
ومـا خلتَـه من معاني الممات
فليس له ها هنا من ثبـات

ثـرى المـرج صرّح في هيجـه   بمـا أضمـرت مهج الكائنـات

* * *

إنه مهرجان حافل بالحياة ! هذا هو الربيع ..

السحاب والعنادل والدراج والقطا وشقائق النعمان والأزهار والورود والنسيم والطير المنشدة .. والربى والسهول والبراري .. والأرض والماء والسماء .. كلها مشتركة في المهرجان الصاخب المغرد الزائط المتحرك المتفتح للحياة !

إنه قلب شاعر يتفتح للحياة في الربيع .. ويلمسها في الكائنات كلها : السحاب المخيم فوق الربى والوهاد ، والأزاهير المتفتحة من كل لون ، والطيور المغردة بمختلف الألحان ، والثرى المصرح بما في جوفه ، والمرج الذي يغلي دمه كالحميم ! !

والشعراء كلهم تلفتهم ولا شك ظاهرةانبثـاق الحياة في الربيع وتفتحها ، وتنفعل بها مشاعرهم انفعالاً خاصاً ، ويتصل ضميرهم بضمير الكون .. ولكن لكل شاعر صادق طريقته الخاصة في « تلقي » الربيع والانفعال به والاتصال بمعاني الحياة فيه ..

وإقبال الشاعر ، المتفتح للربيع ، هو إقبال الذي رأيناه يشرح نفسه في القصيدة السابقة ، وهو يسجل « فلسفة حياته » في تلك الرباعيات .

الحياة المتحركة .. والحياة المشتعلة .. هي الحياة !

الموسيقى في المقطوعة كلها (وإن كانت مترجمة) موسيقى دافقة متحركة حية نابضة ..

---

(١) يشبه الندى على الشقيق بالأنجم في الشفق (المترجم) .

ولكن تلفت الحس تعبيرات معينة تحمل طابع إقبال !

فحمر الخدود (شقائق النعمان) «تمزق» الجيب . والحسن «يجني» الزهر الناشئ . ثم – وهذا ألصق بطبيعة إقبال ! – شقائق النعمان قد علق بأعطافها لهب (مشتعل طبعاً !) وكبده ذات «حرق» ! والمرج دمه «يغلي» في جوفه «كالحميم» !

وفي المقطوعة السادسة يثوب الشاعر من رحلته الواسعة في هذا المهرجان الحيّ المتحرك المتوفز الواسع الأرجاء الفسيح الآماد .. آماد المكان وآماد الحس وآماد المشاعر .. يثوب إلى صوفيته الهادئة ..

ولكن أهدوء هو ؟

إنه – فيما يبدو لي – كالثمل .. بعد هذه الرحلة الواسعة التي أشبعت حسه وملأت مشاعره حتى أعماقها .. إنه أهدأ نبضاً .. نعم .. لأنه «شبعان» .. إلى حد الامتلاء ..

إنه يقول لك – كالمخدور – إن الثرى قد صرح بما في جوفه .. صرح بما في مهج الكائنات .. فقال لك إن ما يخيل إليك – في ظاهر الحس – من علائم الحياة وعلائم الموت ليس هو الحقيقة .. إنما الحقيقة هناك .. هناك في الأعماق .. والحقيقة هي الحياة ! !

(٢) عمر الأميري

عمر بهاء الدين الأميري شاعر سوري مسلم .. رقيق العاطفة ، في تعبيره عذوبة تعبر عن عذوبة روحه . وهو يحاول – في هذا المجتمع الجاهلي المنحرف الذي تشتبك حياته بحياته ، وتصطدم مفاهيمه بمفاهيمه – يحاول أن يعيش مسلماً بقدر ما تطيق روحه . لا في ثورة جامحة «مشتعلة» كثورة إقبال ، ولكن في ثورة هادئة تناسب طبيعته ! ثورة تحتدم في داخل المشاعر ، ولكنها تهدأ حين تصل إلى التعبير !

وقد أخرج قبل عام ديواناً سماه «مع الله» .. أودعه مجموعة من أشعاره يتوجه بها إلى الله .. يتوجه بها في مختلف حالات نفسه : من رضاء وثورة ، وهدوء وقلق ، وإشراق وظلمة ، ورفرفة روحية وتوقد جسدي .. كلها ترانيم إلى الله وابتهالات ، ورغبة حارة إلى الله ألّا يتخلى عنه في أيّة حالة من حالاته ، لأنه في جميع حالاته – حتى حالات الضعف والهبوط – متشبث بأستار الله ، متطلع إلى حماه .

وقد اخترنا له نموذجين من هذا الديوان في حالتين مختلفتين من حالات نفسه . إحداهما أزمة فكرية والأخرى أزمة عاطفية – أو بالأحرى وقدة حسية – يتجه في كلتيهما إلى الله .

إنه في «صراع» دائم .. صراع ضد الثقلة والهبوط والقيد والضرورة القاهرة والتيه والانحراف .. ومحاولة دائمة للتخلص من هذه الثقلة ، والانطلاق في عالم النور .

محاولة « بشرية » ..

فهو بشر .. لا افتعال فيه ولا تصنع .. ولكنه – وهو بشر مسلم – يحاول أن يحقق الإسلام في ذات نفسه ، فيكون هذا الصراع الدائم ، والتطلع الدائم إلى الله ..

وهذه المحاولة الدائمة .. هي الإسلام !

ذرة ...

فكرت في آلاميَ الناميه
وفي أمانيّ وأحلاميه
وفي طريق الغيب أشتقّه
وفي مجاهيل الغد الغافيه
وثم في الحيرة ساحت بيه
عوالِم الأكوان أفكاريه
فصحت مأخوذاً بإبداعها
وسيرها هادية واعيه
حاشاه أن يقضيَ خلّاقُها
تَرْكيَ فيها ذرة نابيه

هذا هو الشاعر يواجه أزمته الفكرية .. إنه الفكر في آلامه المتزايدة ، وفي أحلامه التي لا تتحقق .. وفي الغيب الذي يتطلع إليه فلا يكشف شيئاً من أستاره ، وفي الغد المجهول المحذور .. فتتملكه الحيرة .. لماذا ؟ لماذا يتألم ؟ لماذا يختفي الغد في أستار الغيب ولا ينكشف شيء منه ؟ لماذا لا تتحقق الأحلام ؟ لماذا يقضي حياته معذباً بهذا التطلع الذي لا ينتهي ؟

وفي حيرته تسبح به أفكاره في الملكوت ..

إنها إحدى علائم الصفاء في روحه .. فحيرته لا تتحول إلى تيه ينفصل فيه عن الكون وعن الله ، وإلى شرود لا يهتدي فيه إلى معلم من معالم الطريق .. وإنما تخرج به روحه من سجن ذاته الذي أغلقته الحيرة النابتة في ضميره . فتسبح به عوالم الأكوان .

وعندئذ .. عندئذ يقع التجاوب – الفطري – بين روحه وروح الكون الكبير . فما تكاد الروح الصافية تتطلع إلى الكون حتى يحدث هذا اللقاء . لقاء بين أخوين حبيبين .

ثم ينقله هذا اللقاء .. إلى الله ! يفتح بصيرته عليه ! فهكذا الروح الصافية حين تلتقي بروح الكون الكبير .. لا بد أن تهتدي من حيرتها ، فتتطلع إلى خالقها .. وتطمئن إليه .

نعم . إنها الطمأنينة في نهاية المطاف .. الطمأنينة إلى أن الله خلق هذا الكون المبدع المنسق الموزون المترابط ، لن يترك هذه الذرة البشرية نابية وحدها ، تائهة منقطعة الصلات ..

وهي طمأنينة الإيمان ..

ولكنه لم يقدم لنا هذا «المفهوم» في صورة «تجريدية» مبلورة . وإنما هي «قصة» .. قصة شعورية وجدانية حية نابضة .. ولذلك تدخل في عداد الفنون !

وحين نضع هذه التجربة الروحية تجاه تجربة «ألبير كامو» مثلاً ، وهو يقف أمام الكون فيجده أخرس ، لا يفصح له بشيء ، ويجد نفسه غريباً في هذا الكون لا تربطه به صلة ، ويحس بالضياع والعدم والضآلة .. حين نضع هذه التجربة أمام تلك ، ندرك الفرق المميز الواضح بين نظرة الإسلام ونظرة «الوجودية» عند بعض روادها ، الفرق بين التجربة في الحس المضلَّل الشارد ، والتجربة ذاتها في الحس المسلم المهتدي إلى فطرة الكون .. والمهتدي إلى الله .

* * *

ضراعة ثائر

«كان في كراتشي .. واستيقظ بعد منتصف ليلة عرفة ، هائج النفس ، ثائر الشباب ، وكان قد تعرض في تلك الأمسية إلى إغراء كثير .

«ذكر إقامته على التقوى في باريس وهو طالب .

«وذكر مواقفه في الحج ، في مثل هذه الليلة منذ عام مضى .

«وذكر ما تعرض له قبل ساعات ...

«وفي غمرة الحيرة وسوار النفس ، وأوار الظمأ ، أنشأ القصيدة التالية .

«ولما كاد ينبلج الصباح ، هدأت نفسه بعض الشيء ، وعاد يراود الكرى» :

كيف أنجو يا خالقي من شباب
عارم عاصف التوثب ضاري
مستبد بكل ذرات جسمي
مستفز كوامن الأوطار
كلما رمت كبته ، ثار جهلاً
وتخطى عقلي وأعيا وقاري
فأنا منه ، ما كبحت هواه ،
في جموح وحدة واستعار
كيف أنجو ، وإنه مستقر
في كياني ، وفي صميم نِجَاري [1]

(١) النجار : الأصل .

هو من طينتي التي لوثتني
ورمتني فريسة الأقدار
إنه رجعة الصدى لفحيح
لاهب الذات غاشمٍ كفار
قد تحدى أبي الكبير قديماً
فرماه من عالم الأبرار

* * *

آه يا ويح مقلتي ، وفؤادي
وإبائي وعزتي واصطباري
والليالي الطوال مرت سهاداً
وعنادا ، ودمعي المدرار
وجهادي في حلكة الليل نفسي
وذيادي ، وعزمي المغوار
وغلابي ضروب كيد صحابي
واعتزازي بدحرهم وانتصاري
وثباتي ، وقد ترامى لداتي
واعتدادي بعفتي ، وفخاري

* * *

آه يا ويح وقفتي في ديار
قدّس الله تربها من ديار
خضت هول السماء سعياً إليها
وطويت البحار إثر البحار
وعلوت النجوم في صخب الأنواء
.. أشرى مر العنا بالنضار
فكأني وقد حللت رباها
جوهر خالص من الأوضار
نَقِيَتْ من طبيعة الترب نفسي
حين حَلَّتْ في روضة المختار

غمرتني أنواره فكأنّي
عنصر من عناصر الأنوار
وكأني – والبيت يشرق حولي
شامخَ المجد في سنا الأسحار –
ذاب جِرمي في ماء زمزم حتى
خلتني طرت من خلال إزاري
جاوز الروح بي معالم أرضي
فالسماوات والعوالم داري
والمفاهيم في مسارح روحي
والمساحات غير ذات قرار
فقيامي في الحِجر [1] لاح سجوداً
وسجودي ، سَبْحٌ مع الأقمار
وانطلاقي أسعى ، هدوء مريح
ووقوفي ، سياحة في البراري
وضجيج الحجيج حولي ، سكون
وبسمعيّ جأرة الأحجار

* * *

آه يا ويح همتي وجلادي
إن نبا بي عن الفلاح اقتداري
أبيوم في مثله طاح وزري
أتردّى مجدداً أوزاري ؟
كيف أنجو يا خالقي من شبابي
وشبابي قد كاد يدني دماري
أنت سوّيتني وألهمت نفسي
خطتيها من التقى والفِجار
وأنا منهما بحرب لظاها
في ضلوعي يشوى وفيّ أفكاري

(١) حجر اسماعيل عليه السلام في البيت الحرام .

لم أَرُمْ قط أن أُدَنّىَ نفسي
كيف أرضى للنفس ذل الصَّغار !
ولو اني كُفِيتُ إغواء عصري
وأحابيل خلقه الأشرار
وحُبِيتُ اختيار وجهة أمري
لتساميت واستقر قراري
ولكانت نفسي الشَّرُود تزكت
غير أني كالعود في تيار

* * *

كيف أنجو يا خالقي كيف أنجو
والمقادير ألزمتني إساري
فتخير لمن خلقت سبيلاً
نرتضيها ، فإن ذاك اختياري
إنني نازع إليك بنور
منك ، للنور في العوالم باري
وأنا مقسم عليك بأسمائك
.. من راحمٍ ، ومن جبّار
لا تُفَرِّطْ بمن دعتك خلاياه
.. دراكاً ، في ليله والنهار

* * *

رُبَّ سارٍ والسحب قد لفت النجم
.. فحار السارون عبر القفار
سفر الفجر ، فاستبان خطاه ،
فرآها اهتدت بلا إبصار

هذه القصيدة الطويلة ربما كانت «أعنف» قصائد الديوان ! إنها سورة جسد ملتهبة يتلظى بها كيانه ولا يطيق كبتها ، في ليلة عاصفة تكاد تخرج به عن صوابه وضوابطه وكوابحه .. بعد تعرضه لفتنة جائحة .. ويثير هذا اللظى ، وعجزه عن كبحه ، يثير فيه أشجاناً وذكريات ، تزيد من اضطراب نفسه ، وتجعل الصراع مراً عنيفاً لا يكاد يطاق .

إنه في سورة الجسد الجامحة يتذكر شبابه الذي قضاه في باريس تحوم حوله المغريات من كل جانب ، ولكنه يعزف عنها ويغالبها ، ويتشبث بنقاء أخلاقه ونظافة مشاعره ، بينما

إخوانه يتهاوون في مهاوي الرذيلة ، غير قادرين على مقاومة الفتنة المغرية ، أو غير راغبين في المقاومة !

ويتذكر أنه في مثل تلك الليلة من عام مضى كان في الحرم المقدس يتطهر من الأوزار وتعلو روحه وتشرق ، وتطير مع النور السماوي الذي يغمر الأرواح ..

يتذكر هذا وذلك فتزداد ثورته على نفسه ، أو تشتد حدة الصراع بين نوازع الفتنة الطاغية والرغبة في التطهر والتغلب على ثقلة الطين .. التي أوقعت من قبل أباه الكبير آدم وجرته إلى المعصية .. ويظل ليلته في هذه الذكريات ، يدفع بها عن نفسه خواطر الفتنة ، وهي ذاتها تزيد من الصراع الدائر في داخل ذاته .. فيتطلع إلى الله في حرقة ولهفة ، ألّا يدعه يهوي ، وألّا يفرط فيه .. وهو يدعوه الليل والنهار ! وفي النهاية ينبلج الفجر ، وتكون نفسه قد هدأت شيئاً من الهدوء .. ويطمئن إلى الله .

تلك قصة الصراع المرير التي يقصها لنا الشاعر في قصيدته .. خطوة خطوة وخاطراً خاطراً .. منذ بدء السَّورة إلى لحظة الهدوء والاطمئنان .

ولكن ماذا نجد من « ملامحه » النفسية فيها ؟!

إنه أولاً لم يسمها ثورة ! وإنما سماها « ضراعة ثائر » ! ولهذا دلالته بلا ريب !

ثم هو قد كتبها – دون شك – متأثراً بهذا الصراع المرير ، مدفوعاً بوقعه في نفسه وهو يكتب ، مستجاشاً بلذعه في ضميره .. ولكن .. أي معنى وقف عنده أطول وقفة دون أن يشعر ، وهو يعبر عن الآلام المتأججة في شعوره ؟

إنها ذكريات الحج والطواف حول المسجد الحرام ... !

وفي « هدوء » يسرد هذه الذكريات !

فهذه المقطوعة بذاتها التي يذكر فيها مشاعر الحج وأثرها في نفسه – وهي ثلث القصيدة تقريباً – يمكن أن تعزل وحدها ، فتكون سبحة روحية هادئة رضية لا صلة لها بالثورة والصراع !

ولكنها هنا في القصيدة « مهرب » لا شعوري ، يهرب به الشاعر من حدة الصراع !

ثم .. ما هي أمنيته في نهاية القصيدة ؟

ولو اني كفيت إغواء عصري
وأحابيل خلقه الأشرار
وحبيت اختيار وجهة أمري
لتساميت .. واستقر قراري !

إنه يخوض الصراع .. نعم ! ولكنه نافر منه ضيقٌ به صدرُه ! يتمنى في قرارة نفسه لو أنه قد كُفِيَ المثيرات والأحابيل والانحراف .. فيتسامى ويستقر !

إنها «الوداعة» الرضية العذبة التي تفيض بها روح الشاعر ، تطبع شعره كله حتى في أشد ساعات الثورة والجموح والانفلات !

وهي الوجه المقابل تماماً لإقبال !

فهناك تكون أمنية الحياة هي «القلق» و «الحرق» والصراع الدائم والاشتعال !

وهنا أمنية الحياة هي الهدوء المطمئن الوادع اللطيف ..

ولكنهما وجهان يسعهما الإسلام معاً ، ويسعهما الفن الإسلامي !

فالإسلام لا يلغي الفوارق الذاتية للنفوس ، ولا يسعى لطبعها كلها بطابع واحد مكرور ! كلا ! إنه حريص على إبقاء السمات الذاتية للناس ما دامت لا تصادم مفاهيمه وقواعده وشروطه للحياة . أما السمات النافرة أو المنحرفة فهو يروضها ويعدّلها حتى تستقيم على النهج .. ويتركها هناك !

وطبع إقبال الجامح .. وطبع الأميري الوادع .. كان يمكن أن ينحرفا كلاهما عن الإسلام !

كان يمكن أن ينقلب عند إقبال إلى رغبة في الصراع من أجل الصراع ! ورغبة في الانفلات من القيد .. أي قيد .

وكان يمكن أن ينقلب عند الأميري إلى هروب من الصراع !

ولكن «الإسلام» يعصم كلاً منهما من ذلك الانحراف .

فيتحول صراع إقبال إلى صراع هادف .. يريد للناس أن يتحركوا في الحياة حركة حية خيّرة ، وأن يثبتوا ذواتهم – لا عن طريق المعصية والشر – ولكن عن طريق الالتقاء مع ناموس الحياة الأكبر ومع ناموس الوجود .

وتتحول وداعة الأميري إلى سماحة روحية عذبة ، ولكن مع عزيمة وإصرار على مكافحة الشر وصراع الانحراف ..

وبذلك يكونان مسلمين ، يسعهما الإسلام ، فيسعهما الفن الإسلامي .. وهما وجهان متقابلان !

(٣) طاغور

طاغور ليس مسلماً بطبيعة الحال !

والطابع الهندوكي واضح فيه شديد الوضوح ..

السماحة العذبة ، والصفاء الروحي ، والحب الفياض .. الحب للحياة كلها وللأحياء .. والفناء في الوجود الأكبر .. فناء المحبة والمودة والإخاء !

و .. كذلك السلبية !

إنها في طاغور سلبية عذبة ! فلطف روحه وصفاء سريرته وشعوره الفياض بالحب .. وإعطاؤه نفسه كلها لكل شيء وكل إنسان .. يضفي على هذه السلبية عذوبة !

ولكنها ما تزال – رغم ذلك – سلبية ! لا تحب الصراع ولا تطيقه . ولا ترى أن الشر يمكن أن يقاوم بغير الحب والمودة التي تغلبه في النهاية وتستميله إلى جانب الخير ..

حلم جميل لا يتحقق في كل حالة ولا في أكثر الحالات ! .. وحين لا يتحقق ، فهو يثير في نفس الشاعر الأسى والحزن .. ولكنه لا يعزف به عن سلبية طبعه ، ولا يدفعه إلى معاناة الحياة الدافقة المشتعلة في عالم الصراع !

وهو – في هذا – لا يلتقي مع المنهج الإسلامي !

ولكنه مع ذلك لا يخرج تماماً من دائرته !

فهناك نقط التقاء كثيرة بين طاغور وبين المنهج الإسلامي .. نقط التقاء جزئية كلها ، ولكنها تكفي لإيجاد روابط المودة بينه وبين هذا المنهج ، بحيث يذكر معه – في حدود هذا الالتقاء !

يلتقي معه في شعور المودة والحب نحو الوجود الكبير والحياة والأحياء .

.. والحب الجميل للإنسانية .

ويلتقي معه في دعوته الدائمة للسماحة والخير بين الناس ، والانفلات من ثقلة الضرورة ، والانطلاق إلى عالم الطلاقة والنور ..

وإن اختلفا بعد ذلك في طريقة تصورهما للحياة ، ودور الإنسان في هذه الحياة !

رحلة إلى السوق

اليوم لم يختم بعد . والسوق التي على شاطئ النهر ما تزال .
لقد خفت أن يكون يومي قد تبدد ، وآخر دراهمي قد ضاع .
ولكن . لا . لا يا أخي . إني ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يسلبني كل شيء ..

* * *

الآن انتهى البيع والشراء .
لقد جمعت حصيلتي من الطرفين .
والآن حان وقت عودتي إلى البيت .
ولكن ، أيها الحارس ، أفتطلب ضريبتك ؟
لا تخف يا أخي . لأني ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظي لم يسلبني كل شيء .

* * *

إن سكون الريح ينذر بالعاصفة .
وإن السحب المتجهمة في الغرب لا تبشر بالخير .
والماء الساكن ينتظر الريح .
أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركني الليل .
ولكن يا صاحب المعبر ، أفتريد أن تطلب أجرك ؟
أجل يا أخي ، إني ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظي لم يسلبني كل شيء .

* * *

وفي ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع الشحاذ .
وا آسفاه ! إنه يحدق في وجهي وفي عينيه رجاء وحياء !
إنني – في ظنه – غني بما ربحت في يومي .
أجل يا أخي ، إني ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظي لم يسلبني كل شيء .

* * *

لقد اشتد ظلام الليل ، وأقفر الطريق ، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر .
من عساك تكون يا من تتبعني في خطوات متلصصة صامتة ؟
آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تسرق مني كل أرباحي .
لن أخيب ظنك !
لأني ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظي لم يسلبني كل شيء .

* * *

وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين .
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت ، وفي عينيك شوق .
وكعصفورة وجلة طرت إلى صدري ، يدفعك حب توّاق .
آه يا إلهي . إن شيئاً كثيراً لم يزل باقياً معي . فإن حظي لم يخدعني ويسلبني كل شيء .

إنها رحلة إلى السوق ولكنها رحلة في قلبٍ ودود عطوف ، يسع الكون بعطفه وسماحته ، ويتجاوب تجاوب المودة مع كل شيء وكل شخص فيه ، حتى مع اللص قاطع الطريق !

وهنا تبدو نقط الالتقاء مع المنهج الإسلامي ونقط الافتراق ! فهي سماحة جميلة ولا شك . ولكنك تلمح فيها مع ذلك مشاعر غير «بشرية» ! قد تعجبك لحظة وأنت حالم تسبح في الملكوت .. ولكنها لا تملأ «الإطار» الكامل للإنسان !

وهذه قصيدة اخرى لطاغور :

إن الطائر الأصفر يغني على الفنن فيرقص قلبي فرحاً ..
نسكن معاً في قرية واحدة ، وهذا هو سر سرورنا جميعاً .
يجيء حملاها المدللان ليرعيا في ظل أشجار حديقتي .
وإذا ما ضلا طريقهما في حقل شعيري أحملهما بين ذراعي .
اسم قريتنا «خانجانا» ويسمون نهرنا «أنجانا» واسمي يعرفه الجميع .
أما اسمها هي فهو «رانجانا» .

* * *

ويفصلنا حقل واحد ..
فالنحل الذي يتجمع في حديقتنا يذهب ليبحث عن الرحيق في حديقتهم .
وأزهارهم التي تتساقط في النهر يدفعها التيار إلى حيث نستحم .
وسلال أزهار «الكسم» الجافة تجلب من حقولهم إلى سوقنا .
اسم قريتنا «خانجانا» ويسمون نهرنا «أنجانا» واسمي يعرفه الجميع ،
أما اسمها هي فهو «رانجانا» .

* * *

إن الطريق الذي يؤدي إلى منزلها يعبق في أيام الربيع برائحة أزهار «المانجو» .
عندما ينضج بذر كتانهم ويكون صالحاً للجمع يزهر القنب في حقولنا .
والنجوم التي تبتسم لكوخهم تبعث لنا بنفس النظرة المتلألئة .
والأمطار التي تملأ أحواضهم تنعش عندنا غابات «الكادام» .
اسم قريتنا «خانجانا» ويسمون نهرنا «أنجانا» واسمي يعرفه الجميع ،
أما اسمها هي فهو «رانجانا» .

إنها قطعة غزل لطيفة شفيفة عذبة . تعبر عن عواطف «إنسان» . إنسان يعيش بروحه في هذه العاطفة ، لا بجسده ، ولا بمشاعر الحس الغليظة المتلمظة إلى متاع الحس القريب ! وفيها تلك الرفرفة المشعة التي تنقل الإنسان من عالم الأرض المحدود ، وعالم الضرورة ، إلى الطلاقة والبشاشة في الكون الواسع الرحاب .

إنها «لحظة» حب ، ولكنها وجود متكامل ، لا تنفصل فيه عاطفة القلب عن الإحساس بالكون الكبير . ووشائج المودة والقربى لا تصل قلبه بقلب حبيبته فحسب ، بل تصل قلبه بالوجود كله في ذات الوقت بلا تعارض ولا انفصال .

ومن هنا تلتقي كلها بمنهج الإسلام !

(٤) سُكينة بنت الحسين

سهرت أعين ونامت عيون ... في أمور تكون أو لا تكون
إن ربّاً كفاك ما كان بالأمس ... سيكفيك في غد ما يكون

هذان بيتان منسوبان لسُكينة بنت الحسين رضي الله عنهما[1] ؛ وقد كانت متصوفة تعيش من خلال التسليم المطلق لله ، وتمنح كيانها كله لله .

وهما بيتان فردان .. ولكنهما تاريخ حياة ! تاريخ حياتها النفسية كلها ، ونموذج في الوقت ذاته للمشاعر الإسلامية تجاه الحياة ، وتجاه القدر ، وتجاه الله !

إن كثيراً من الناس يقضون حياتهم في التوجس من الغد المجهول .. من أمور «تكون» أو «لا تكون» . ويصل هذا التوجس عند كثير من الناس إلى حد القلق المدمر الذي يتلف المشاعر ويفسد الحياة . هل يكون كذا أم لا يكون ؟ وماذا إذا كان ؟ وماذا إذا لم يكن ؟ ويقضون الحياة في هذه الفروض والتوقعات ، يبددون طاقتهم في القلق والتوجس ، وهم لا يملكون اليقين الذي يستندون إليه ، ولا الحقائق الواقعية يواجهونها بما تتطلبه من إعداد .

والشاعرة المتصوفة ، المسلمة الصادقة الإيمان ، تنهاهم – من تجربتها الخاصة – عن هذا القلق المفسد للحياة المدمر للأعصاب . وتنهاهم – من هذه التجربة الخاصة – بحقائق ، تلقّاها قلبها الكبير في سياحته إلى الله .

فماذا يصنع أولئك الذين لا تنام عيونهم من التوجس والقلق والاضطراب ؟ ماذا يصنعون بقدر الله ؟ هل يغيرون شيئاً منه ! هل يخفف القلق والتوجس من وقع القدر في حياتهم وأعصابهم ؟

وأولئك الذين تنام أعينهم ، مطمئنين إلى الله ، مسلّمين أمرهم إليه ، متوكلين عليه . كيف تصنع الحياة بهم ؟ هل يهلكهم التسليم ؟ هل يضرهم الاطمئنان ؟

كلا ! إنه العكس ! فأولئك يدمرون أعصابهم ، ويعيشون الحياة ولا طعم لها في نفوسهم ، ويبددون طاقتهم في لا شيء .. بينما التسليم لله ، وإن كان لا يغير شيئاً من أحداث القدر ، فهو يغير طعمها في النفس ! فلا تتهاوى النفس في مهاوي اليأس ولا تذهب حسرات !

وهذا الإنسان الذي يتوجس اليوم من الغد المجهول فيفرق ويجزع ويضطرب أما واجهته بالأمس أحداث وأحداث ؟ كيف نجا منها وعاش ؟ أو ليس الله هو الذي كفاه ما كان بالأمس ؟ أفلا يدع له كذلك ما يكون من أمر الغد فيكفيه إياه كما كفاه ما كان بالأمس ؟

إنه هكذا الحس المسلم .. يسلّم الأمور كلها لله .. ويعيش في رحابه متطلعاً إلى رضاه .. ويطمئن إلى رعايته ، فلا يذهب التوجس القلِق بأمنه وطمأنينته في الحياة .

---

(١) لم أتمكن من تحقيق نسبة البيتين لسكينة ، ويقال إنهما لأحد المتصوفين . والذي يعنينا من هذه النماذج هنا هو موضوعها بصرف النظر عن قائلها .

(٥) ابن الرومي

أذاقتنيَ الأسفار ما كرَّه الغنى ... إليّ وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد ... وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً أشتهي ثم أنتهي ... بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعني رغب ورهب .. كلاهما ... قوي .. وأعياني اطّلاع المغايب
فقدمت رجلاً رغبة في رغيبة ... وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين والغايات بعد المذاهب !

هذه الأبيات فيها من دقة الوصف ما اشتهر به ابن الرومي في الأدب العربي ، فهي مزيته البارزة سواء في وصف المحسوسات أو وصف المشاعر والخلجات النفسية الدقيقة .

ولكنا نختارها هنا بصفة خاصة لأنها تلتقي – في البيتين الأخيرين منها – بمنهج الفن الإسلامي في تصوير موقف «الإنسان» أمام «الغيب» المجهول .

إن الأبيات الأولى ، على كل ما تحمله من جمال فني يتمثل في دقة الوصف من ناحية ، وفي «سرد» الأحاسيس المتتابعة كأنها قصة شعورية يحكيها لنا الشاعر ، فنتتبعها لحظة لحظة وشعوراً إثر شعور ، حتى نلم بجزئياتها جميعاً وقد اتخذت في حِسِّنا مساحة أوسع واستجابة أعمق .. هذه الأبيات – رغم جمالها الفني – لا تزيد على أن تكون وصفاً لمشاعر خاصة لإنسان «ما» تصور طبيعة خاصة ليست هي الطبيعة الإسلامية . فإيحاءات التصور الإسلامي لا تدعو إلى كل هذا القلق ، وإلى كل هذا التردد ، وإلى إيثار العافية على المخاطرة .. إنها طبيعة «ابن الرومي» خاصة . الطبيعة المتوجسة المتوفزة القلقة ..

حتى إذا قال :

أخاف على نفسي وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب !

حتى إذا قال ذلك ، نقلنا من تلك الحالة الخاصة لإنسان ما إلى «الإنسان» كله ، وموقفه من الغيب المجهول والقدر المستور .

وهي نقلة واسعة ..

فمن تتبع الخلجات الخاصة لشخص معين نراه أمامنا على اللوحة .. ينفتح المنظر في لحظة ، فإذا نحن نطل على رقعة فسيحة تشمل كل الحياة وكل «الإنسان» .. واقفاً أمام

ستر الغيب المسدل ، يحاول جاهداً أن يمتد ببصره إلى ما وراءه ، وأن يقرأ الصفحة التي تليه . ويظل يتطلع في لهفة وتشوّف ، حتى يدرك أن ليس إلى شيء من ذلك سبيل ، وأن الغايات بعد المذاهب ، ولا يمكن أن تكون خلاف ذلك . فهذه حقيقة الواقع ليس لها من تبديل !

هنا ننتقل من الرقعة المحدودة الصغيرة المفردة ، إلى الرقعة الفسيحة التي لا تزول ، لأنها تتصل بناموس الكون الشامل الكبير .

وهنا كذلك نلتقي مع أحد المفاهيم الإسلامية للكون والحياة والإنسان ، ونلتقي بها في نطاق الفن ، فهي لا تجيء إلينا مبلورة في صورة فلسفية ، وإنما تجيء من خلال تجربة إنسانية حية ، ومن خلال وصف فني لخلجات النفس ، يبرز التجربة بلغة المشاعر النفسية لا بلغة الذهن والتجريد .

ثانيا : من القصة والمسرحية

القصة والمسرحية – كالشعر . كالخاطرة ، ككل ألوان التعبير – ينطبق عليها المنهج الذي شرحناه من قبل . وتنطبق عليها الحقيقة التي أشرنا إليها ، وهي أنها لم توجد بعد – متكاملة – في الأدب العربي . وإن وجدت منها بواكير تدل على الطريق .. ولا يسعنا هنا – ونحن نختار الأمثلة من هذه البواكير – إلا أن نختار قصصاً قصيرة ، تتناسب مع الحيز المتاح للأمثلة في هذا الكتاب .

وقد اخترنا هنا نموذجاً من القصة القصيرة . ثم اخترنا – لنفس الأسباب التي اخترنا من أجلها نماذج لطاغور في الشعر – مسرحية لكاتب إيرلندي ، تلتقي التقاء جزئياً مع المنهج الإسلامي .

(١) قصة ضرس [(١)]

كانت الساعة في يده تشير إلى الثامنة والثلث ، زفر زفرة ضيقة مكتومة ، ساعة كاملة وعشر دقائق انطوت منذ جلس فوق هذا المقعد ، وأكثر من ساعة أخرى ضاعت هناك في الحجرة المجاورة في صمت الانتظار الثقيل ، كلمات المنتظرين الثرثارة تشد أذنيه برهة ، ثم تتوه أفكاره في متاهات صمت ومتاهات حديث !.... وعاد ينظر في الساعة الصغيرة الملتفة حول معصمه ، لقد فات موعده معها منذ أكثر من ثلث ساعة ، لا بد أنها سئمت الانتظار وذهبت غاضبة ... وغام وجهه ... لمحه الطبيب ولكنه ظل هادئاً يعمل في تؤدة ، ملامحه الحادئة لم تتغير وان كان طيف ابتسامة كسا قسماته الصارمة وغمغم بصوت خفيض عميق الهدوء :

– هانت ، لم يبق الليلة غير دقائق .. ثم تعود بعد غد .

– بعد غد ؟! ألم ينته بعد ! مرة ثانية ، بل رابعة من أجل ضرس !

– الذهب أكبر قليلاً . وعصب الضرس حساس ما يزال .. سنضع له مادة مهدئة حتى بعد غد . ربما يستطيع وقتها أن يقبل الحشو .

– ألا يمكن أن ننتهي منه الليلة – ببنج مثلاً ؟. لقد ألغيت أعمالاً كثيرة ، ووقتي مشحون بشدة .

– نحاول . لو استطعت أن تحتمل المواصلة ..

وأمسك رأسه يعيده إلى مكانه على مسند المقعد ، وأذعن هو في ضيق ..

ألقى رأسه إلى الوراء وفتح فمه ليواصل الطبيب عمله ، وفي السكون المخيم دارت الآلة من جديد ... آلات صغيرة كثيرة ، مدببة ، مستديرة ، مستطيلة ، مبططة ، مستقيمة ،

---

(١) لحميدة قطب من مجموعة قصص قصيرة تحت الطبع .

منحنية ، لم يحصها ، كلها دخلت في فمه تدور حول هذا الكائن الصغير الذي لم يعره اهتماماً من قبل ، بل لم يشعر بوجوده .. العرق يتصبب من وجهه ومن وجه الطبيب أيضاً رغم النافذتين المفتوحتين والمروحة الدائرة في الركن البعيد ... وحدق في وجه الطبيب يتأمله ، ورانت على مشاعره سحابة اشفاق .. لكم هو مستغرق . ساكن الملامح ، مجهد القسمات ، الوقفة الطويلة ، وفحيح الألم المتصاعد من القدمين ، وحنين الساقين المتعبين إلى لحظة استرخاء ، تتصاعد في خطوط صامدة وتحفر مكانها على صفحة الوجه الصلب المتماسك القسمات ، يداه لا تكفان ، وعيناه أيضاً وقدماه . يحفر ، ينظف ، يقيس ، ثم يحفر من جديد ، ينظف من جديد ، يقيس من جديد ، ثم يعود ويعود ويعود ، لا يمل ... الآلات هناك تملأ الصوان الصغير ، وهنا حول المقعد وعلى الرف الرخامي الصغير بجوار الصنبور ، لا يمل الترداد بين هنا وهناك .. كم آلة أمسكتها يده ، وكم آلة أدخلها في فمه ، ثم عاد فأدخل غيرها وغيرها ، ثم أعادها من جديد ، لم يستطع أن يحصيها ، ولكن هذا الرجل الصابر بغير حد لم يمل ! !

حين أدخل قطعة الذهب الصغيرة في الحفرة الصغيرة التي جهدت في حفرها الآلات صرخ بغير وعي .. أحس كأن خازوقاً ضخماً قد انحشر في فمه ، في لحم فمه ، بل في أعصاب عينه ، خجل من نفسه وأمسك بآهته وابتلعها .. حاول من جديد أن يغلق فمه ، ولكن الصرخة كانت أسبق من قدراته .. لا ، مستحيل !

وأجاب الطبيب في هدوء :

– لا بد من وقت يستريح فيه العصب ليطيقه .. لندعه أياماً أخرى ..

لم يجرب ذلك أبداً من قبل ، لم يعرف كيف تكون آلام ضرس وحين كانت أخته تتألم مرات أمامه لم يكن يملك التصور .. منذ متى تعيش هذه الكائنات الصغيرة داخل فمه في صمت ! تتحرك فيه كل لحظة ، دون أن تشعره بوجودها ! وهو يأكل . وهو يشرب ، وهو يتحدث ويضحك لاهياً ، بل حتى حين يبتلع ريقه ، وحتى حين يهمس بينه وبين نفسه !.. كان مشغولاً عنها بكبريات الأمور !.. لم يفكر فيها قط ولم يعرها اهتماماً حتى كان ذلك المساء حين أعلنت بكل جبروت عن ضخامة وجودها ! في ذلك المساء كان مشرق القلب كعادته حين يكون في السهرة الصاخبة وسط الشلة ، بين مرح الأصدقاء والصديقات . وكان الطعام لذيذاً باسماً ، والحديث يدور متفتحاً كزهر الربيع ، كلهم شباب ، كلهم مثقفون ، بعضهم أدباء وشعراء وصحفيون ، تجمعهم ليلة الجمعة يتحادثون ويتناقشون في أعظم أمور الكون ، يسعدون ويستمتعون ويلهون ..

كان حديثهم تلك الليلة متشعباً كالمعتاد ، ولكن هبوط الإنسان فوق القمر قد استغرق

معظم الاهتمام . ومن ثنايا الحديث كانت سعادتهم تفوح بانتصار الإنسان وبقدراته الباهرة .. محمود فقط من بينهم كان واجماً ، أساءه دون شك أن يكون أول هابط على القمر أمريكياً .. أما فريد فكان منتشياً للغاية ، لقد هتف بحياة الإنسان وبحياة أمريكا ، وكادت مشادة تنشب بينه وبين محمود لولا أن تدخلت سامية فأصلحت بينهما . واعتذر فريد قائلاً إنه يمزح ليغيظ محمود !.. أخذت سامية تقرأ عليهم مقدمة كتاب عن المرأة بدأت في تأليفه بعنوان (الزمن لن يعود إلى الوراء) .. اعترض مصطفى على بعض الجمل قائلاً إنها تعـدٍ صريح على الله ، وانطلق محمود يدافع عن الفكرة بحرارة ويشجع سامية على المضي في الكتابة !

لم يكن في حديث سامية ما يرفضه الفكر الحر . ولكن مصطفى ، رغم ذكائه الواضح تعيش في قلبه أفكار رجعية كثيرة ، كان يوماً ما ينتمي إلى جماعة دينية ، وأبواه ما زالا عضوين فيها .. لقد استطاع أستاذه الكبير رئيس التحرير أن يستل من رأسه الكثير من تلك الأفكار خلال سنوات عمله الخمس معه ، ولكن قلبه ما يزال متلبساً بها !.. ولكنه أخيراً تزوج من صديقته علياء . لسوف تعدل بقية أفكاره دون شك .. كانت معه في تلك الليلة .. لكم كانت رائعة ، فستانها الأزرق الداكن المفتوح فوق بشرتها البيضاء كان فتنة الليلة .. كانت هذه هي أول مرة تحضر ندوة الأدب هذه وهي زوجة لمصطفى ، العيون كانت تلتهمها بشره ، أما مصطفى فقد ارتسمت على وجهه سحابات من صراعات دفينة ، مسحة خجل ، انتفاضة غيرة ، ضيق تكسوه ابتسامة فرح ونشوة ، كان اضطرابه ينم عن محاولته التي لا تكف لدفن أفكاره القديمة ، ليستقر في فكره الجديد وليبدو إنساناً متحضراً .

وحين التف الجميع حول المائدة كانت أصوات ضحكاتهم أعلى من صخب الأدوات المعدنية في أيديهم ، كان الطعام شهياً ووجه علياء وصوتها الناعم أشهى وهي تتيه في دلال العروس . فقد كانت الليلة كلها احتفاء بزواجها بمصطفى ، وكانت النكات الخبيثة المداعبة تتراشق من هنا وهناك فتتلقاها مشرقة بروح مرح ، وكان المرح اللاهي يملأ الجو كله ويحملهم فوق الواقع وفوق متاعب العمل وأثقال الفكر وصراعات العيش ..

فجأة . أحس كأن شيئاً هائلاً قد تحطم داخل فه وهو يمضغ قطعة من اللحم البارد . على إثره انطلق ألم مزعج .. كان الذي تحطم هو أحد جدران ضرسه الأخير ، أبعد ضرس في فمه ، ولم يستطع أن يكمل الطعام ، ولم يستطع أيضاً أن يكمل حديثه ، حاول أن يخمد الألم بكل طريق ولكنه لم يفلح فغادر الأصدقاء عائداً إلى البيت ..

كان الوقت متأخراً فلم يجد طبيباً تلك الليلة ، قضاها ليلة مبرحة صاخبة الألم ، كل المسكنات التي يملكها لم تفلح في هدهدة العاصفة التي أطلقها ذلك الكائن الصغير الصامت دوماً ، انطلق كالمارد الجبار يصل صليل الأفعى ، كالوحش الهائج يحطم رأسه معلناً وجوده

وجبروته .. منذ سنوات انبعثت في ذلك الموضع البعيد من فمه آلام خفيفة هادئة ، على إثرها نبت هذا الكائن الصغير ونما في يسر ورفق واستقر هناك وسكن ، ونسي هو أنه هناك .

ولأول مرة يدخل عيادة طبيب الاسنان ، وجهه الضاحك دوماً كان يحمل آثار ليلة قارسة ، عيناه ذابلتان تحت مطارق الألم الموجع ،وفمه المشرق البسمة بدا ساكناً منطفئاً يضم شفتيه على عالم جديد ، غريب ! لسانه الطليق ، المشهود له بفصاحته لا يملك اخراج الكلمات الهزيلة ، عاجز عن كل حركة كأن ابرة رفيعة مسمومة قد اخترقته حتى أصوله ، تورم واحتقن وغدا هو الآخر قطعة من العذاب . كل شيء قد تبدل إلى عالم غريب كأنما مسته يد شيطان مارق .. كل هذا من أجل قطعة صغيرة من جدار ضرس ؟! لم يكد يصدق ذلك الأمر العجيب !

ومشى إلى عيادة الطبيب مطأطئ الرأس ، لأول مرة ! كانت جلسته الأولى عند طبيب الأسنان بالغة الازعاج له ، ساعة كانت أو تزيد ، آلات عديدة لم يحصها تناوبت الدخول في فمه المفتوح بغير حراك ، آلة الحفر الرتيبة الصوت تحفر وتحفر كأنما تغوص في أعماق جبل ! وينقل الفضلات فإذا هي ذرات قليلة من غبار .. ويعود الحفر من جديد ، وتتناوب الآلات الصغيرة عملها في العالم الغريب !

ألم لا يوصف يمور ، لا يكاد يطيقه ، خيل إليه أن فمه ردهة واسعة الأرجاء يجول فيها معول ، يحطم كل شيء ويغوص إلى أعماق بعيدة ، وتجسمت الصورة أمامه حتى ملأت الفراغ .. حاول مستميتاً أن يستعيد شعوره بالحقيقة ! حاول أن يتخيل ضرسه الصغير في تجويف فمه الصغير في رأسه الصغير ! حاول بلا جدوى ، صورة الردهة الواسعة العميقة الغور تملأ عينيه المغلقتين ، وطنين آلة الحفر يصم أذنيه !.. أما هو ذاته ، فقد بدا أمام بصره المغمض صغيراً ، ضئيل الحجم كأنما ابتلعته الردهة الواسعة الغائرة ! حتى طبيبه المفرط الطول بدا مغرقاً في الصغر وغارقاً في اجهاده ، وتحت قطرات العرق التي تتصبب من وجهه !.. لا شيء كبير غير فمه ، غير رأسه ، غير ضرسه العملاق !

وعجب ، كيف لم يشعر به من قبل ! وهو يأكل ، وهو يشرب ، وهو يتحدث ، وهو يبتلع ريقه ! وهو يفكر في ضخامة الإنسان وقدراته الباهرة !.. كيف لم يأبه له وهو يشق طريقه في ثنايا اللحم الساكن في صمت ليستقر شامخاً راسخاً في طمأنينة عجيبة دون أن تلحظه عين أو يأبه له شعور ، هذا العملاق الذي بدل حياته !! كل لحظة هو هناك في أعماق فكره يمحو كل فكر سواه ! كل لحظة هو هنا في فمه . في شعوره ، في أعصابه ، في كل رأسه وجسده ، كل حركة هو فيها ، هو معطلها ، وهو يطلق الألم حولها كأنما هو الحياة ، كأنما هو أضخم ما في الحياة ! كأنما هو مسير الحياة ! لا يملك أن يقضم طعاماً . لا يستطيع أن يبتلع شراباً ، بل لا يستطيع أن يبتلع ريقه أو يحرك لسانه ليخرج الكلمات ،

شامخة كقدرة الإنسان !! حتى الصمت .. لم يعد يملك الصمت ، لأول مرة يجده عبئاً ثقيلاً ! لأول مرة ينوء بحمل لسانه في فه ، يود لو يرفعه من هنا ليضعه هنا . بل يود لو لم يكن هنا !.. والكلمات ! ما أعجز هذا اللسان عن حمل الكلمات ، الكلمات التي تاه بها وحمّلها في طلاقة شامخة كل اعجابه بعظمة الإنسان !

وعملية الطعام !! ما أشق عملية الطعام وما أعقدها ! كيف لم يفكر في هذا الأمر العظيم من قبل وهو يلوك طعامه في عجلة وفي نشوة ثم ينطلق إلى آفاق الحياة .

وخرج من أفكاره على صرخة ألم في أعماق الهوة في قلب الضرس ، لقد حاول الطبيب من جديد أن يضع قطعة الذهب الصغيرة لتقبع في الحفرة التي صنعتها الآلات في ساعاتها الطويلة !

– كلا يا دكتور .. لا يمكن أن تحتمل .. كأن خازوقاً بشعاً قد انحشر في فمي ، في أعصابي ، رأسي كله .

– إذن لا بد أن نعود إليه بعد أيام ، حتى يهدأ العصب .

في الطريق ، تمنى أن يعود إلى البيت ، وتراءت له منى هناك حيث اتفقا على اللقاء .. عيناها السوداوان الواسعتان كأنما تحدقان فيه . تعتبان .. ونظر في ساعته ، لقد تأخر الوقت كثيراً ، لا يمكن أن تظل هناك .. وغمرته راحة مفاجئة ، وقرر أن يعود إلى البيت ، يتوق أن يستلقي هناك في سريره وحده ، مع نفسه ! منذ متى لم يلتق بنفسه !

وقرر أن يسير على قدميه ، فخطوه الدائب يريحه كأن وقعه موسيقى رخية تهدأ أعصابه على دقاتها .. الطرقات المفعمة بالضوء تصدم عينيه ، تصد فكره وتقلق روحه .. واخترق طريقاً ، وطريقاً ، وانحنى مع ثالث . ثم استقام في الطريق الهادئ على النيل ..

كم يتوق لأن يجد نفسه .. لهفة غائرة ، غامضة في أعماقه .. وحدق في المياه . في ظلمتها الداكنة الرهيبة ، ما أشد أغواره البعيدة بأغوارها ! ظلمات كثيفة داكنة ترقد هناك وراء فرحة الحياة الظاهرة .. وراء الصباح المشحون بالعمل بين طنين الماكينات الضخمة ، بين الزملاء والزميلات والأخبار والأوراق والحركة الدائبة ، ووراء الأمسيات اللاهية الغنية بالأمنيات .. وراء وجه منى المشرق بفرحة الرجاء ووراء كل تطلعاته واشراقة الوجود في قلبه ، يهفو الآن ، لا يدري لماذا لأن يغوص في هذه الظلمات ويغرق في سرها الدفين ويلتف في حناياها البعيدة في لجة الغموض .. يغمره الحنين إلى ... لا يدري .. لا يذكر ، كأن ماضياً سحيقاً يرقد في ظلمة الغموض . لا يعرف كنهه ، لا يميز لونه ، ولكن حنيناً شجياً يشده إليه ..

وجه جدته ، في بيتهم القديم الواسع في الحلمية يتراءى له .. لماذا الآن ولم يتذكره منذ أمد بعيد ؟ أبيض ساطع البياض حوله شعر أبيض مهيب ، تجلس على سجادة صغيرة .

في طرف حجرتها تهمهم بشيء لا يفهمه ، رهيب مهيب يقشعر له جسده الصغير ، ولكنه يظل مشدوداً إليه يسمع ويسمع .. وحجرات البيت الواسع وحديقته وهو يلهو بغير حرج .. وقتها كان خط حياته الطويل هذا غارقاً في أعماق المجهول .. هل كان هو ، هو ذاته الذي هو الآن ؟! كأن جداراً سميكاً يفصلهما وكأنه بناء سامق وبغير جذور وأحس أنه يميد ، وعلى مقعد من هاته المقاعد المستطيلة المتناثرة على الكرنيش ، ألقى بجسمه الخائر في استلقاء مريح وتنهد في عمق .. وفي لحظة كالبرق مر وجه أمه أمام ناظريه ، ثم أسرع الخطى .. يوم غادرتهم في الرحلة البعيدة بغير عودة كان هناك ، لم يكن يدري شيئاً ، ولكنه أصر أن يراها وأن يرقد بجوارها وأن يقبلها ، ولم يكن يدري أنها لن تعود ، كل ما كان يفزعه هو أصوات العويل ، والوجوه الفزعة اللاهثة الواجمة ، وحركة البيت الرهيبة المفاجئة .. لم يكن جاوز الرابعة بعد ، ولكن وجهها المسبل الجفنين محفور في ذاكرته ، وصورة الحجرة وهم يبدلون فراشها بفراش جديد بعد الرحيل ..

وعاود المسير .. وقع خطاه يبدو رهيباً في ضوء الطريق الخافت ، وصوت المياه يطن في دأب لا يصمت ، والأغوار الداكنة تمد أذرعها إليه .. قشعريرة تجتاح رأسه ، وجسده .. ترى أيظل يسير ؟!

بعد غد سيكون لقاء «الشلة» .. سيكون هذه المرة في بيت مصطفى .. مصطفى ؟! منذ خمس سنوات كان مصطفى إنساناً آخر ، يذكر أول لقاء به في المجلة ، كان ذلك في مكتب رئيس التحرير ، كان شاباً وسيماً ، ملامحه يغشيها حياء رقيق .. ضحكوا منه جميعاً فيما بعد وكانوا يسمونه الشيخ مصطفى ! ولكنه كان – بغير شك – ألطفهم حساً وأرفعهم أخلاقاً .. مرات كثيرة تحدث معه عبد الله ، وفي هذا المكان سارا معاً في إحدى الليلات واستغرقهم الحديث ، كان حديثه مفعماً برطوبة حلوة ولكنه جادله بعنف .. يكاد يذكر الكلمات ، قال هو : ليس لدينا وقت نضيعه في النظر إلى الخلف ، وأجابه مصطفى بكلمات حارة كأنها نبض موسيقى هزت قلبه حينها ولكنه طمرها . لا يذكر كل حديثه ، ولكن بعض كلماته ما زالت تنقر في مشاعره ، قال : لن ننظر إلى الخلف . ولكن ننظر في أعماقنا ، ننظر حولنا ، ننظر في السماء وفي دكنة هذه المياه وننظر في قلوبنا .. كان صوته متهدجاً وكانت كلماته ذات رنين حلو ، ولكنها تاهت في اللجة ... في أعماقه ترقرق حنين غامض ، لأشياء كثيرة .. بيتهم القديم ووجه جدته الساطع البياض ، وجه والدته المسبل الجفنين ، وخط ذكريات طويل وحنين آخر مجهول السمت .. وأحس برغبة لأن يلقى مصطفى ، وطافت بقلبه صورته في آخر لقاء ، يده في يد علياء ، وفستانها الأزرق اللاصق ببشرتها البيضاء وعلى صفحة وجهه ابتسامة مضطربة تصارع رؤوساً تطل من الأعماق ثم تغيب .. كلا .. ليس ذاك .. إنه يهفو أن يلتقي بمصطفى .. ذلك الذي كان قبل أن يغمره الطوفان ...

(٢) الراكبون إلى البحر

مسرحية للكاتب الأيرلندي ج . م . سينْج

ولد جون ميلينجتون سينج في دبلن سنة ١٨٧١ ومات سنة ١٩٠٩ في مقتبل شبابه ، ولم يخلف إلا ست مسرحيات من بينها – وأعظمها – هذه المسرحية : « الراكبون إلى البحر » (Riders to the sea). ويضعه بعض النقاد في قمة المؤلفين المسرحيين باللغة الإنجليزية .

وقد اخترناه في نماذج الفن الإسلامي – وهو غير مسلم – كما اخترنا طاغور في نماذج الشعر من قبل ، لأنه – كما قلنا – يلتقي التقاء جزئياً مع المنهج الإسلامي .

إن المسرحية تصور أمّاً فقدت من قبل خمسة من أبنائها .. ذهبوا جميعاً إلى البحر ولم يعودوا .. ولم يبق إلا ابنها السادس والأخير . وتصوره المسرحية ذاهباً هو الآخر في رحلة إلى البحر . منطلقاً كالسهم .. إلى حتفه ! لا يصده شيء ولا يقنعه شيء بالعدول عن رأيه .. إنه ينطلق كالقدر .. لأن القدر هكذا أراد !

وتفقد الأم ابنها السادس والأخير .. الأم المحزونة الموهونة الغائبة في الآلام .. ولكنها في هذه المرة تستريح ! لقد سلمت البضاعة كلها عن آخرها ! لم يعد لديها ما تفقده ! وعندئذ تلجأ إلى الله .. الذي سلمته وديعته كلها .. تلجأ إليه تلتمس عنده وحده العزاء والسلوان !

والمسرحية تحمل طابعاً مسيحياً واضحاً شديد الوضوح – بمقدار وضوح الهندوكية في طاغور ! – المسيحية المتصوفة اللاجئة إلى مهرب الروح ، تهرب إليه من جحيم الألم في عالم الإنسان .. ولكنها – كشعر طاغور – تلتقي مع المنهج الإسلامي في نقاط :

فهذا التسليم إلى الله .. وهذا اللجوء إليه .. والشعور بالموت على أنه رد الوديعة إليه .. والتأسي والصبر .. والرضاء « بقدر» الله .. كلها جوانب تلتقي مع منهج الفن الإسلامي ، وإن اختلف الطريق بعد ذلك في طريقة تناول الحياة !

أشخاص المسرحية

موريا : امرأة عجوز .
بارتلي : ابنها .
كاتلين : ابنتها .
نورا : ابنتها الصغرى .
رجال ونساء .
المنظر : جزيرة على مسافة من غرب أيرلنده .

[مطبخ أحد الأكواخ ، تُرى فيه شباك صيد ، وقطع من الشمع . وعَجَلة غزل . وألواح خشبية جديدة مسندة إلى الحائط .. الخ . «كاتلين» فتاة تناهز العشرين من عمرها . تفرغ لتوها من عجن كعكة وتضعها في وعاء على النار . ثم تمسح يديها وتأخذ في إدارة المغزل . «نورا» فتاة صغيرة ، تطل من فتحة الباب] .

نورا [في صوت خفيض] : أين هي ؟

كاتلين : إنها مستلقية في فراشها . أعانها الله . وربما كانت نائمة .. إن كان ذلك في استطاعتها .

[تدخل نورا في هدوء ، وتخرج لفافة من تحت شالها] .

كاتلين [تدير المغزل في سرعة] : ما هذا الذي معك ؟

نورا : لقد أحضرها القسيس الشاب . إنها قميص وجورب (سادة) انتزعا من جثة غريق في دونيجال . [كاتلين تتوقف عن الغزل بحركة مفاجئة وتمد رأسها لتتسمع] علينا أن نعرف هل هي من ملابس «ميكل» ؟ لا بد أنها ستذهب بنفسها بعد فترة لتبحث بجوار البحر .

كاتلين : كيف يمكن أن تكون ملابس ميكل يا نورا ؟ كيف يمكن أن يذهب كل هذه المسافة إلى الشمال ؟

نورا : يقول القسيس الشاب إنه يعرف حالات مماثلة . وهو يقول : «إذا كانت هذه ملابس ميكل ، فتستطيعين أن تخبريها أنه دفن مدفناً طيباً ، برحمة من الله . وإذا لم تكن هذه الملابس له فلا تذكروا شيئاً عنها ، فإنها ستقتل نفسها قتلاً بالبكاء والعويل» .

[الباب الذي واربته نورا ينفتح على مصراعيه بفعل الريح] .

كاتلين [تنظر إلى الخارج بقلق] : هل سألتِه إن كان سيمنع بارتلي من الذهاب اليوم بالخيل إلى سوق جولويي ؟

نورا : لقد قال : «لن أمنعه ، ولكن لا تخافوا . إنها تقوم الليل بنفسها تصلي . ولن يتركها الله العلي القدير محووجة ، دون أحد حي من أولادها» .

كاتلين : هل البحر هائج عند الصخور البيض يا نورا ؟

نورا : هائج إلى حد ما . والأمواج تزأر بشدة في الغرب . وسيكون الأمر أسوأ حين يرتد المد في اتجاه الريح [تذهب إلى المنضدة باللفافة] هل أفتحها الآن ؟

كاتلين : ربما تصحو الآن وتفاجئنا قبل أن ننتهي [تتجه نحو المنضدة] وسوف نظل فترة طويلة نبكي .

نورا [تتجه إلى الباب الداخلي وتنصت] : إنها تتحرك في فراشها ، وستكون هنا بعد لحظة .

كاتلين : أعطيني السلم الخشبي ، وسأضعها في مخزن الوقود ، فلا تعلم عنها شيئاً أبداً . وحين يعود المد فربما تذهب هي إلى الشاطئ لترى إن كانت جثته قد طفت من ناحية الشرق .

[يضعان السلم الخشبي تجاه سقف المدخنة . تصعد كاتلين بضع درجات وتخفي اللفافة في مخزن الوقود . تدخل موريا من الحجرة الداخلية] .

موريا [ترفع بصرها نحو كاتلين وتتحدث متسائلة] : أليس لديك من الوقود ما يكفيك هذا النهار والمساء ؟

كاتلين : هناك فطيرة على النار تحتاج إلى فترة لكي تنضج [تلقي بعض الوقود] وسيحتاج إليها بارتلي حين يعود المدّ إذا كان ذاهباً إلى كونيمارا .

[نورا تلتقط حزمة الوقود وتضعها في النار حول الفطيرة] .

موريا [تجلس على مقعد صغير بجانب النار] : لن يذهب في هذا اليوم والريح تهب من الجنوب والغرب . لن يذهب اليوم فسوف يمنعه القسيس الشاب لا محالة .

نورا : لن يمنعه يا أماه . وقد سمعت إيمون سيمون وستيفن فيتي وكولم يقولون إنه ذاهب

موريا : وأين هو ؟

نورا : ذهب ليرى إن كانت هناك سفينة أخرى مبحرة في هذا الأسبوع . وأظن إنه لن يغيب كثيراً ، وأنه سيكون هنا بعد قليل ، فالمد قد بدأ يعود عند الرأس الأخضر ، و سفينة الصيد بدأت تصفر من ناحية الشرق .

كاتلين : أسمع أحداً يعبر الصخور الكبرى .

نورا [تنظر إلى الخارج] : إنه قادم الآن . وهو في عَجَلة .

بارتلي [يدخل . يدور بنظره في الغرفة . يتكلم في أسى وهدوء] : أين قطعة الحبل الجديدة يا كاتلين التي اشتريناها من كونيمارا ؟

كاتلين [تنزل] : أعطيه له يا نورا .. إنه على مسمار بجوار الألواح البيض . لقد علقته هذا الصباح لأن الخنزير ذا القدم السوداء كان يقضمه .

نورا [تعطيه الحبل] : أهو هذا يا بارتلي ؟

موريا : إنك تصنع معروفاً بترك هذا الحبل يا بارتلي معلقاً بجوار الألواح . [بارتلي يأخذ الحبل إنه لازم في هذا المكان ، وها أنذا أخبرك ، إذا ظهرت جثة ميكل غداً صباحاً ، أو بعد غد ، أو أي صباح في هذا الأسبوع . فسوف نحفر له قبراً عميقاً بإذن الله .

بارتلي [يبدأ في العمل بالحبل] : ليس معي لجام أركب به الحصان ولا بد أن أذهب الآن في الحال . فهذه هي السفينة الوحيدة المبحرة خلال أسبوعين أو أكثر ، وستكون السوق سوقاً جيدة للخيل ، هكذا سمعتهم يقولون هناك .

موريا : سيقولون كلاماً قاسياً هناك إذا ظهرت الجثة ، وليس هناك رجل ليصنع التابوت ، بعد أن اشتريت له أجود الأخشاب البيض التي تجدها في كونيمارا . [تنظر ناحية الألواح] .

بارتلي : كيف يمكن أن تظهر ونحن نبحث كل يوم لمدة تسعة أيام ، وهناك ريح شديدة تهب من الغرب والجنوب ؟

موريا : افرض أننا لن نجدها . ولكن هذه الريح تجعل البحر هائجاً . وهناك نجمة بجوار القمر ، وهي ترفع المدّ في الليل وتهيج البحر . لو كانت مئة فرس أو ألف فرس تحصل عليها هناك .. ما قيمة ألف فرس في مقابل ابن ، إذا لم يكن هناك غير هذا الابن ؟

بارتلي [يصنع اللجام ، لكاتلين] : عليك أن تذهبي كل يوم لتتأكدي أن الغنم لا تأكل الشعير ، وإذا جاء التاجر فتستطيعين أن تبيعي الخنزير ذا القدم السوداء . إذا وجدت سعراً طيباً .

موريا : كيف تحصل مثلها على سعر طيب للخنزير ؟

بارتلي [لكاتلين] : إذا استمرت ريح الغرب مع ليالي القمر الأخيرة فعليك أن تجمعي أنت ونورا ما يكفي من الحشائش . ستكون الأمور صعبة منذ اليوم وليس إلا رجل واحد يعمل في البيت .

موريا : ستكون الأمور صعبة حقاً حين تغرق أنت مع الباقين . كيف أعيش والبنتان معي ، وأنا عجوز أبحث عن القبر ؟

[بارتلي يضع اللجام ، ويخلع سترته القديمة ويلبس أخرى من نوعها ولكنها أحدث] .

بارتلي [لنورا] : هل هي قادمة إلى الميناء ؟

نورا [تنظر إلى الخارج] : لقد مرت بالرأس الأخضر وحلت شراعها .

بارتلي [يأخذ محفظته وعلبة طباقه] : سأكون هناك في ظرف نصف ساعة ، وسترونني قادماً مرة أخرى خلال يومين ، أو ثلاثة ، أو ربما أربعة إذا ساءت حال الريح .

موريا [تتجه نحو النار وتضع شالها على رأسها] أليس رجلاً فظاً قاسياً ذلك الذي لا يستمع لكلمة واحدة من امرأة عجوز وهي تمنعه من الذهاب إلى البحر ؟

كاتلين : إنها الحياة بالنسبة للشباب أن يذهب إلى البحر . ومن ذا الذي يستمع إلى امرأة عجوز وهي تقول نفس الشيء مرة بعد مرة ؟

بارتلي [يأخذ اللجام] : لا بد أن أذهب الآن سريعاً . سأركب الفرس الحمراء ، وسيجري المهر الأشهب ورائي .. دعواتي لكم أن يشملكم الله ببركاته [يخرج] .

موريا [تصرخ وهو بالباب] : لقد ذهب الآن . فليرحمنا الله . ولن نراه مرة أخرى . لقد ذهب الآن ، وحين يسدل ستار الليل الأسود فلن يكون قد بقي لي ولد في هذه الدنيا .

كاتلين : لماذا لم تمنحيه بركتك وهو يلتفت إليك حين كان بالباب ؟ أليس مما يبعث الأسى في النفس أنه ما من واحد في هذا البيت إلا شيعته بكلمة تعيسة من ورائه وكلمة قارسة في أذنه ؟ [موريا تمسك بالملقاط وتحرك النار بلا هدف دون أن تنظر حواليها] .

نورا [تلتفت نحوها] : إنك تبعدين النار عن الفطيرة .

كاتلين [صارخة] : عفوك يا رب . نورا ، لقد نسينا فطيرته . [تذهب إلى الفرن]

نورا : وسيهلك من الجوع حين يحل الليل ، وهو لم يأكل شيئاً منذ طلعت الشمس .

كاتلين [تخرج الفطيرة من الفرن] : سيهلك حتماً . لا يمكن أن يبقى عقل في رأس أي واحد في منزل فيه عجوز لا تكف عن الكلام [موريا تلقي بنفسها على مقعدها] .

كاتلين [تقطع جزءاً من الفطيرة وتلفه في قطعة من القماش ، لموريا] : فلتذهبي الآن إلى النبع وتعطيه هذه حين يمر هناك . سترينه عندئذ ، وتبطل الكلمة المشئومة ، وتستطيعين أن تقولي له : « أعادك الله إلينا سريعاً » فيستريح باله .

موريا [تأخذ الفطيرة] : هل أستطيع أن أصل هناك حين يصل هو ؟

كاتلين : إذا ذهبت الآن سريعاً .

موريا [تقف مترنحة] : إنها لمهمة شاقة عليّ أن أمشي .

كاتلين [تنظر إليها قلقة] : أعطيها العصا يا نورا ، وإلا انزلقت قدمها فوق الصخور الكبيرة .

نورا : أي عصا ؟

كاتلين : العصا التي جاء بها ميكل من كونيمارا .

موريا [تأخذ العصا التي تعطيها إياها نورا] : في الدنيا العريضة كلها يخلف الكبار وراءهم أشياء لأبنائهم وأطفالهم ، أما في هذا المكان فالشبان هم الذين يخلفون الأشياء للكبار .

[تخرج في بطء . تصعد نورا على السلم] .

كاتلين : انتظري يا نورا . فقد تعود سريعاً . إنها امرأة أكلها الحزن . كان الله في عونها . لا تستطيعين أن تعرفي أي شيء تعمل .

نورا : هل عدّت الشجرة الصغيرة ؟

كاتلين [تنظر إلى الخارج] : لقد ذهبت . ألقيها بسرعة ، فالله وحده يعلم متى تخرج مرة أخرى .

نورا [تحضر اللفافة من المخزن] : لقد قال القسيس الصغير أنه سيمر غداً ، وإن علينا أن نذهب إليه ونخبره إن كانت ملابس ميكل حقاً .

كاتلين [تتناول اللفافة] : هل قال كيف عُثِر عليها ؟

نورا [تنزل] : قال : « لقد كان هناك رجلان يجدفان قبل الفجر ، فاصطدم مجداف أحدهما بالجثة بينما كانا يعبران بجوار الجرف الأسود هناك في الشمال » .

كاتلين [تحاول فتح اللفافة] : ناوليني سكيناً يا نورا . لقد بلي الخيط من الماء المالح ، وفيه عقدة لا تنحل في أسبوع .

نورا [تناولها سكيناً] : سمعتهم يقولون إنها مسافة طويلة إلى دونيجال .

كاتلين [تقطع الخيط] : إنها طويلة حقاً . لقد كان هنا رجل منذ قليل — وقد باعنا هذه

السكين – وقد قال إنك إذا مشيت من عند تلك الصخور هناك ، فإنك تصلين إلى دونيجال بعد سبعة أيام .

نورا : وكم يأخذ الرجل إذا كان طافياً ؟

[كاتلين تفتح اللفافة وتخرج قطعة من قميص وفرد جورب . تنظران إليهما بلهفة] .

كاتلين [في صوت خفيض] : فليرحمنا الله يا نورا ! أليس عجيباً أن نقول إن كانت هذه ملابسه حقاً ؟

نورا : سأحضر قميصه من المشجب لنقارن بين هذا القماش وذاك . [تنظر في بعض الملابس المعلقة في ركن الكوخ] ليس فيها قميصه يا كاتلين ، فأين ذهب ؟

كاتلين : أظن بارتلي ارتداه في الصباح إذ كان قميصه ثقيلاً من الملح [تشير إلى الركن] ها هي ذي قطعة من الكم كانت من نفس القماش . ناوليني هذه وهي تكفي . [نورا تحضرها إليها وتقارنان القماش] إنها من نفس القماش يا نورا . ولكن إذا كانت من نفس القماش . ألا توجد أثواب ضخمة منه في المحلات في جولويي ، أو لا يشتري منها رجال كثيرون ويصنعون منها أقمصة كما صنع ميكل ؟

نورا [التي كانت قد أخذت الجورب وعدت الغرز التي يحتوي عليها . صارخة] . إنه ميكل يا كاتلين . إنه ميكل . ليرحمه الله . أي شيء سوف تقول هي حين تسمع هذه القصة وبارتلي في البحر ؟

كاتلين [تأخذ الجورب] : إنه جورب (سادة) .

نورا : إنها الفردة الثانية من الزوج الثالث الذي اشتغلته . وأنا أعرف عدد غرزه . إنها ستون غرزة .

كاتلين [تعد الغرز] : إنه العدد الذي تقولين [صارخة] آه يا نورا . أليس شيئاً محزناً أن يفكر الإنسان فيه وهو طاف فوق الموج كل هذه المسافة إلى الشمال ، وليس هناك من يبكيه إلا الطيور السود المحلقة فوق البحر ؟

نورا [تدور حول نفسها نصف دورة وتلقي بذراعيها فوق الملابس] : أو ليس من المحزن أيضاً ألا يتبقى شيء من رجل كان مجدفاً ماهراً وصياداً بارعاً إلا قطعة من قميص قديم وفردة جورب ؟

كاتلين [بعد لحظة] : خبريني .. هل هي قادمة يا نورا ؟ إنني أسمع صوتاً في المعبر .

نورا [تنظر إلى الخارج] : إنها قادمة يا كاتلين . إنها مقبلة نحو الباب .

كاتلين : أخفي هذه الأشياء قبل أن تدخل . ربما يكون حالها أحسن بعد أن باركت بارتلي ، ويحسن ألا نقول لها شيئاً ، وهو في البحر .

نورا [تساعد كاتلين في ربط اللفافة] : نضعها هنا في الركن .

[يضعانها في فتحة في ركن المدخنة . تعود كاتلين إلى المغزل] .

نورا : هل تراها ستلحظ أنني كنت أبكي ؟

كاتلين : اجعلي ظهرك للباب فلا يقع النور عليه .

[نورا تجلس في ركن المدفأة وظهرها إلى الباب . تدخل موريا في بطء شديد دون أن تنظر إلى البنتين ، وتذهب إلى مقعدها بجانب النار من الناحية الأخرى . اللفافة التي بداخلها الفطير ما تزال في يدها . وتتبادل الفتاتان النظرات وتشير نورا إلى اللفافة] .

كاتلين [بعد أن تغزل لحظة] : لم تعطيه قطعة الفطير ؟

[موريا تأخذ في النوح بصوت خفيض . دون أن تلتفت حولها] .

كاتلين : هل رأيته يركب إلى الميناء ؟

[موريا تستمر في نواحها]

كاتلين [بشيء من نفاد الصبر] : غفر الله لك . أليس من الأفضل أن ترفعي صوتك قليلاً وتقولي لنا ماذا رأيت ، خيراً من التوجع على شيء حدث وانتهى ؟ هل رأيت بارتلي ؟ إني أسألك .

موريا [بصوت ضعيف] : إن قلبي محطم منذ اليوم .

كاتلين [كالمرة السابقة] : هل رأيت بارتلي ؟

موريا : رأيت أرعب شيء .

كاتلين [تترك مغزلها وتنظر إلى الخارج] : غفر الله لك . إنه راكب فرسه الآن عند الرأس الأخضر . والمهر الأشهب وراءه .

موريا [تفزع حتى إن شالها يقع من فوق رأسها ويظهر من تحته شعرها الأشيب المعقوص فوق رأسها . تتحدث بصوت مفزّع] : المهر الأشهب وراءه ...

كاتلين [تتجه نحو الموقد] : ماذا بك ؟ من أي شيء تشكين ؟

موريا [تتحدث ببطء شديد] : رأيت أرعب شيء رآه إنسان منذ اليوم الذي رأت فيه العروس دارا الرجل الميت يحمل الطفل بين يديه .

كاتلين ونورا : أوه ..

[تجلسان منكمشتين أمام المرأة العجوز بجانب الموقد] .

نورا : حدثينا بما رأيت .

موريا : ذهبت إلى النبع ووقفت هناك أتمتم بدعاء في نفسي . ثم جاء بارتلي يركب فرسه الأحمر والمهر الأشهب وراءه [تمد يدها أمام عينيها كما لو كانت تحجب عن بصرها شيئاً] يرحمنا الله يا نورا !

كاتلين : أي شيء رأيت ؟

موريا : رأيت ميكل نفسه .

كاتلين [تتكلم بصوت خفيض] : لم تريه يا أماه . لم يكن ميكل الذي رأيته ، فقد وُجِدَتْ جثته في أقصى الشمال . وقد دفن مدفناً طيباً برحمة من الله .

موريا [بشيء من التحدي] : لقد رأيته اليوم راكباً منطلقاً بفرسه . جاء بارتلي أولاً على الفرس الأحمر ، وحاولت أن أقول : «أعادك الله إلينا سريعاً» ولكن شيئاً ما أوقف الكلمات في حلقي . ومر بي مسرعاً ، وقال : «أحاطك الله برعايته» ولم أستطع أن أقول شيئاً . ورفعت بصري والدموع تنهمر من عيني نحو المهر الأشهب ، وهناك وجدت ميكل راكباً فوقه وعليه ملابس نظيفة وحذاء جديد في قدميه .

كاتلين [تأخذ في النواح] : لقد هلكنا منذ اليوم .. لقد هلكنا حقاً .

نورا : أليس القسيس الصغير قد قال إن الله العلي القدير لن يتركها محووجة بغير أحد حيّ من أولادها ؟

موريا [بصوت خفيض ولكنه واضح] : إن مثله لا يعرف كثيراً عن البحر . إن بارتلي قد فقد الآن . فلتنادي إيمون ليعد لي تابوتاً جيداً من الألواح البيض . فلن أعيش بعدهم . لقد ضاع مني في هذا المنزل زوجي وأبوه ، وستة أبناء – ستة رجال معتبرين . رغم أني تحملت العناء وهناً على وهن حين جاء كل منهم إلى هذه الدنيا – وبعضهم وُجِدَ وبعضهم لم يعثر عليه ، ولكنهم ذهبوا الآن كلهم .. ستيفن ، وشون فقدا في الرياح العاتية ووجدا بعد ذلك في خليج جريجوري عند الجولدن ماوث وحُمِلَا معاً على لوح خشب واحد ، وأدخلا من هذا الباب .

[تتوقف لحظة ، وتفزع الفتاتان كما لو كانتا قد سمعتا شيئاً من خلال الباب الموارب من خلفهما] .

نورا [هامسة] : هل سمعت يا كاتلين ؟ هل سمعت ضجيجاً في الشمال الشرقي ؟

كاتلين [هامسة] : هناك إنسان يزعق على شاطئ البحر .

موريا [تستمر دون أن تسمع شيئاً] : وفقد شيموس ووالده وجده في ليلة مظلمة ، ولم يظهر منهم شيء على الإطلاق حين طلعت الشمس . وغرق باتش في مركب انقلب به في البحر . وكنت جالسة هنا مع بارتلي وكان رضيعاً في حجري ، ورأيت امرأتين وثلاث نساء وأربع نساء داخلات يرسمن علامة الصليب ولا يقلن كلمة واحدة . ورفعت بصري فرأيت رجالاً قادمين خلفهن ، يحملون شيئاً في نصف شراع أحمر ، يقطر منه الماء ، وكان اليوم جافاً يا نورا ، والمياه تتقاطر وتترك على الأرض خطاً منقّطاً حتى الباب .

[تتوقف مرة أخرى ويدها ممدودة نحو الباب . ينفتح الباب في هدوء . وتأخذ نساء كبيرات السن يدخلن . ويرسمن علامة الصليب وهن على عتبة الباب ، ويركعن في مقدمة المسرح وعلى رؤوسهن مآزر حمراء] .

موريا [كالحالمة ، إلى كاتلين] : هل هو باتش ؟ أم ميكل ؟ أم من .. ؟

كاتلين : لقد وجد ميكل في أقصى الشمال ، وإذا كان قد وجد هناك فكيف يكون هنا في هذا المكان ؟

موريا : هناك قوة تحمل جثث الشباب الطافية وتسبح بها في البحر . وكيف يعرفون أنه ميكل هو الذي وجدوه ، أو رجل آخر يشبهه ؟ فعندما يظل الرجل تسعة أيام في البحر والريح هائجة فمن الصعب حتى على أمه ذاتها أن تقول أي رجل هو .

كاتلين : إنه ميكل . يرحمه الله . فقد أرسلوا إلينا قطعة من ملابسه من أقصى الشمال .

[تمد يدها وتناول موريا ملابس ميكل . موريا تقف في بطء وتتناولها بيديها . نورا تنظر إلى الخارج] .

نورا : إنهم يحملون شيئاً بينهم والماء يتقاطر منه ويترك خطاً على الصخور الكبيرة .

كاتلين [هامسة إلى النساء اللواتي دخلن] : أهو بارتلي ؟

إحدى النساء : هو بالتأكيد . ظلل الله روحه .

[تدخل امرأتان أصغر سناً . وتجران المنضدة . يدخل رجال يحملون جثة بارتلي على لوح خشبي ، تغطيها قطعة من شراع . ويضعونها على المنضدة] .

كاتلين [للمرأتين وهما تصنعان ذلك] : كيف غرق ؟

إحداهما : أوقعه المهر الأشهب في البحر ، ودفعته أمواج الشاطئ الصخري العنيفة فوق الصخور البيض .

[موريا قد ذهبت وركعت عند طرف المنضدة . النساء يَنُحْنَ في صوت خفيض وتهتز أجسامهن في حركة بطيئة . تركع كاتلين ونورا عند الطرف الآخر من المنضدة . ويركع الرجال عند الباب] .

موريا [ترفع رأسها وتتحدث كما لو كانت لا ترى الناس من حولها] : لقد ذهبوا الآن جميعاً . ولن يستطيع البحر أن يصنع لي شيئاً بعد ذلك .. لم يعد هناك ما يدعوني الآن أن أبكي وأتمتم بالدعاء حين تهب الرياح من الجنوب ، ويسمع صوت تكسر الأمواج على الشاطئ الصخري في الشرق والشاطئ الصخري في الغرب ، فتحدث ضجة عظيمة وهي تتخبط من هنا ومن هناك . لم يعد هناك ما يدعوني أن أذهب لأحضر الماء المقدس في الليالي المظلمة من سامهين ، ولن أفكر في حال البحر حين تنوح النساء الأخريات . [لنورا] أعطيني الماء المقدس يا نورا . هناك بقية منه لم تزل على (دولاب الفضيات) .

[نورا تعطيها إياه] .

موريا [تسقط ملابس ميكل من عند قدمي بارتلي وترش الماء المقدس فوقه] : ليس الأمر أنني لم أدع لك العلي القدير يا بارتلي ؛ ليس الأمر أنني لم أدع لك في الليل المظلم حتى لا أعود أعرف ماذا أقول . ولكنني الآن سأجد الراحة العظمى . وقد آن أوانها . إنها الراحة العظمى التي

سأجدها الآن ، والنوم المستغرق في الليالي الطويلة ، حتى ولو كان طعامنا حفنة من الدقيق وسمكة قديمة نتنة .

[تركع مرة أخرى ، وترسم علامة الصليب وتصلي صلاة غير مسموعة] .

كاتلين [لإحدى النساء] : لعلك تصنعين أنت وإيمون تابوتاً حين تطلع الشمس . عندنا ألواح بيض اشترتها بنفسها ، أعانها الله ، ظناً منها أن ميكل سيعثر عليه . وعندي فطيرة طازجة تستطيعين أن تأكلي منها وأنت تعملين .

الرجل العجوز [ينظر إلى الألواح] : هل معها مسامير ؟
كاتلين : لا يوجد يا كولم . لم نفكر في المسامير .
رجل آخر : إنه لعجيب جداً ألا تفكر في المسامير بعد كل التوابيت التي رأتها .
كاتلين : لقد كبرت وتحطم قلبها .

[موريا تقف مرة أخرى في بطء شديد ، وتنشر ملابس ميكل بجانب الجثة . وترشها بما تبقى من الماء المقدس] .

نورا [هامسة لكاتلين] : إنها الآن هادئة مطمئنة . أما يوم مات ميكل فكنت تسمعينها تصرخ من هنا حتى النبع . إنها أكثر شغفاً بميكل . هل كان أحد يظن ذلك ؟

كاتلين [ببطء ووضوح] : إن امرأة عجوزاً مثلها لا بد أن يدركها الملل من أي شيء تصنعه . أو ليست تبكي وتنوح منذ تسعة أيام كاملة ، وتحدث أسىً عظيماً وحزناً في البيت ؟

موريا [تضع الفنجان مقلوباً على المنضدة . وتضع يديها معاً على قدمي بارتلي] : إنهم كلهم معاً في هذه المرة . والنهاية قد أتت . ليتنزل الله برحمته على روح بارتلي وروح ميكل وأرواح شيموس وباتش وستيفن وشون [تحني رأسها] وليتنزل الله برحمته على روحي يا نورا وعلى روح كل إنسان في هذه الأرض .

[تتوقف ويرتفع النواح قليلاً من جانب النساء ثم يصمت] .

موريا [مستمرة] : لقد دفن ميكل مدفناً طيباً في أقصى الشمال ، برحمة من الله . وسيكون لبارتلي تابوت جيد من هذه الألواح البيض ومدفن عميق بكل تأكيد . أي شيء نريد أكثر من هذا ؟ لن يعيش الإنسان إلى الأبد . وعلينا أن نرضى .

[تركع ويسدل الستار ببطء] .

آفاق للمستقبل

تتمثل في الأدب العربي الحديث نهضة فريدة ، قد لا تكون لها شبيه في تاريخ هذا الأدب كله إلا في العصر العباسي ، حين اتسعت آفاق الأدب ، وشملت كل المجالات المتاحة في ذلك الحين .

وهذه النهضة الحديثة التي ترجع جذورها إلى نهاية القرن التاسع عشر ، والتي امتدت في النصف الأول من القرن العشرين حتى شملت كل مجالات الأدب وفنونه من قصة ومسرحية وشعر وملحمة ومقالة وخاطرة وبحث .. تشبه مثيلتها في العصر العباسي ، في أنها لم تكتف بالأصول العربية ، وإنما استمدت مما جاورها من الثقافات والحضارات والآداب والفنون ، ثم صاغت ذلك كله في أسلوب عربي وإطار عربي .

ولا ضير في هذا الاستمداد ..

فالفن لا يعرف الحواجز .. لا يعرف حواجز اللغة أو الوطن أو الجنس .. إنه تعبير بشري عن الإنسانية في أوسع مجالاتها وأوسع مفاهيمها . ومن ثم يلتقي لديه البشر جميعاً بلا تفرقة ولا انفصال . يلتقون عليه بوجداناتهم وأفكارهم ومشاعرهم ، كما يلتقي الأخ بالأخ في أسرة البشرية الكبيرة المتصلة الحلقات .

ولكن التقاء البشرية كلها على هذا الجوهر الإنساني المشترك ، وتعارفها على السمات المشتركة بين الجميع : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) لا ينفي وجود التميز بين فرد وفرد ، وبين فن وفن ، وبين مزاج ومزاج .

ولحكمة عليا كان هذا التميز والاختلاف ..

فلو كان الناس كلهم صورة واحدة لصارت الحياة كذلك صورة واحدة مكرورة رتيبة مملة ، لا فسحة فيها ولا تشويق !

ولكنها بهذا الاختلاف – مع وجود الجوهر المشترك – تصبح أكثر ثراء وأوسع مساحة وأحفل بألوان الجمال ..

وفي الفن بصفة خاصة تبرز هذه الظاهرة البشرية الفريدة : التشابه والاختلاف في ذات الوقت . ويبرز كذلك هذا الجمال ، الناشئ من التقاء الصور المتعددة للجوهر المشترك بين الجميع .

وكل فن أصيل لا بد أن يحمل هاتين السمتين في وقت واحد : فهو فن إنساني ، بما هو تعبير عن النفس الإنسانية في حقيقة جوهرها ، وهو في الوقت ذاته فن متميز بطابعه الخاص ، الذي يعبر عن شخصيته الذاتية في نطاق الإنسانية الشاملة .

وحين بدأت النهضة الحديثة في الأدب العربي ، لم تكن بعد قد أخذت طابعها النهائي المتميز ، الذي يكفل لها السمة الإنسانية والسمة الذاتية في نفس الوقت .

فقد بدأت تقليداً للصور الأدبية المتوارثة في الأدب العربي ، ثم أخذت شيئاً فشيئاً تتأثر بالآداب الأوربية ، وبخاصة الإنجليزية والفرنسية ، اللتين وجدتا لهما – بحكم الاحتلال من ناحية ، وبحكم مكانتهما العالمية من ناحية أخرى – تلاميذ ومدارس في الشرق العربي ، يتأثرونهما وينسجون على منوالهما .

وكان هذا أمراً طبيعياً ومنطقياً مع سير الأحداث : السياسية والفكرية والثقافية في نهاية القرن الماضي ومبادئ القرن العشرين .

ومرت فترة ظهر فيها في مصر أدباء كبار .. أدباء لهم ذاتيتهم التي لا شك فيها ، ولهم براعتهم وحذقهم واجتهادهم ومشاركتهم الأصيلة .. ولكن طابع «الترجمة» كان يسيطر عليهم . ولا نقصد أنهم كانوا يترجمون الأعمال الغربية أو الأفكار الغربية وينسبونها إلى أنفسهم . وإنما نقصد عملية أعمق من ذلك وأخفى ، لعلها كانت تتم عن غير وعي من هؤلاء الأدباء أنفسهم ؛ فقد كانت «مشاعرهم» هي المترجمة عن الآداب الغربية ! مشاعرهم وطريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة وتقديرهم للقيم الإنسانية و «للمفاهيم» على وجه العموم !

ورغم الأصالة الذاتية لهؤلاء الأدباء الكبار – وهي أصالة غير منكورة – ورغم حرصهم الواعي الدقيق المتمكن ، على سلامة الأداء العربي وقوته وفصاحته ، ورغم الخدمات الجليلة التي أدوها في تنقية الأسلوب العربي وتطويره وتجميله .. رغم هذا كله فقد كانوا طبعة عربية أنيقة من المفاهيم الغربية في الأدب والحياة !

وكان ذلك – كما قلنا – أمراً منطقياً ، ومتمشياً مع طبائع الأشياء .

وكان المفروض أن تلي فترة الانتقال الطبيعية هذه ، فترة أخرى تبرز فيها السمات الأصيلة لفن هذا الشعب ، وتتخذ طابعها الخاص المميز ، الذي يعطيها شخصيتها الذاتية على مائدة الأدب العالمي الحافل بكل السمات وكل المميزات .

وبدأت هذه الفترة فعلاً ، وسارت شوطاً في الطريق .

وأخذ الأدب يتبلور ويصفو على أيدي عدد من أدباء الشباب ، وأخذ ينضج على مهل ليعطي نكهته المتميزة الأصيلة .

ولكن هذا لم يدم طويلاً ، ولم يسر في الطريق الصحيح إلا خطوات ..

وبعدها ، كأنما أصابت الأدباء الشبان زوبعة عاصفة نكثت رؤوسهم وأفكارهم وطيرتها في كل اتجاه ..

وخرجت دعوات الأدب الملتزم وغير الملتزم . وتعددت المذاهب التي يلتزم بها الأدب ، المذاهب الفنية ، والمذاهب الاجتماعية ، والمذاهب التعبيرية ، والمذاهب «الأيديولوجية» ، وغيرها من التسميات والاتجاهات ..

زوبعة كأنما انطلقت في لحظة .. فشتتت كل ما كان في طريقه إلى التجمع والانضاح والبروز .

وضاعت شخصية هؤلاء «الأدباء» في غمار الزوبعة المشتِّتة !

وصاروا طبعات .. غير أنيقة .. من المذاهب التي ينقلون عنها بوعي أو بغير وعي ، ويتأثرونها كأنها مقدسات ، يتتبعون حرفيتها ويقلدونها جاهدين .

وصار الأدب — من هذه الناحية — كأنه يرجع إلى الوراء !

لقد صار أكثر فنوناً وأكثر طرائق وأكثر إنتاجاً وأكثر ميادين .. ولكنه أقل أصالة وأقل جودة ، وأسوأ من ناحية القدرة التعبيرية وسلامة اللغة والأسلوب .

ذلك أن أدباء الشباب — بجانب الزوبعة التي نكثت رؤوسهم — لم يكن لهم الصبر المتأني الذي يحصّلون به ويتمكنون في التحصيل ، فهم مستطارون معجلون إلى الشهرة والكسب وكثرة الإنتاج ولمعان الأسماء .

* * *

وقد استفاد الأدب والأدباء خبرة كبيرة ولا شك بالاستمداد من أدب الغرب ومذاهبه وأفكاره ، وسعة مجالاته وتعدد فنونه ، وطرائق العرض فيه والأداء ، والقواعد الفنية للعرض والأداء .

ولكنهم فقدوا شخصيتهم المميزة وتبعثروا ، فلم يعودوا يمثلون طابعاً مميزاً محدد السمات في الأدب العالمي الواسع الثراء .

ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون بأنفسهم أو يعرفون ذاتيتهم !

ولا يعرفون ميراثهم ...

لقد خرجوا من الآفاق المحدودة التي كانوا يعيشون فيها ، يريدون أن ينطلقوا ويلحقوا الركب الظافر المترائي أمامهم بكل قوته وجبروته ..

وفي انطلاقهم انسلخوا من كل موروثاتهم الفكرية والروحية و «الأيديولوجية» .. لأنهم ظنوها حملاً يعوّقهم عن الانطلاق ، وقيداً يعثّر خطواتهم في الطريق ..

ولكنهم كذلك — من ثم — انسلخوا من ذاتيتهم وكيانهم .. وأصبحوا بلا كيان !

وصاروا طبعة — غير أنيقة — من الأدب الذي ينقلون عنه ، أو المذهب الذي يحشرون

أنفسهم فيه ! إذ أن تلك المذاهب نتاج تاريخي لبيئات معينة ، مرت بظروف وأحوال معينة ؛ لم يكن لها وجود في بيئتنا ولا في تاريخنا القريب أو البعيد !

* * *

والخبرة الفنية التي اكتسبوها كانت ذخيرة ضرورية لأية نهضة جادة تراد في عالم الأدب والفن .

ولا ضير – كما قلنا – من الاستمداد في هذا المجال .

ولكن الضرر الأكبر أن نستمد هذه الخبرة كلها ثم لا يكون لنا وجود متميز الطابع واضح السمات .

ولكي يكون لنا هذا الطابع ينبغي أن نرجع إلى أنفسنا !

ينبغي أن نعود إلى موروثاتنا الفكرية والروحية والأيديولوجية التي انسلخنا منها ونحن منطلقون فيما يشبه هذيان المحموم .

ينبغي أن نعود إلى الإسلام ..

فالإسلام هو كياننا الحقيقي الأصيل العميق الذي يعطينا صفتنا الإنسانية ، ويتيح لنا في الوقت ذاته أن نكتسب ذاتية متميزة في المجتمع الإنساني المتصل الحلقات .

لقد صاحبنا هذا الإسلام أربعة عشر قرناً متوالية ، ومن تصوراته الذاتية نشأت مجتمعاتنا ، وترسبت هذه التصورات في كياننا حتى ونحن نحاول التملص منها في الظاهر ، ونجري وراء التصورات المستحدثة التي لم تنضج في تاريخنا الذاتي .

والإسلام – في عالم الفن – هو هذا المفهوم الواسع الشامل الذي عرضناه في هذا الكتاب : أكمل مفهوم عرفته البشرية في تاريخها الطويل ، وهو كذلك أجمل مفهوم .

وقد كان لا بد من خبرة فنية عالية ليستطيع الأدب والفن أن يعبرا عن المفهوم الإسلامي بصورة تكافئ هذا المفهوم من ناحية الأداء .

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعي ، فقد كان الأدب والفن قمينين أن يستمدا إيحاءاتهما الفنية من القرآن وفنون القرآن ، ومن التصورات الإسلامية والرواسب الإسلامية في ضمير الشعب وفي حياته واتجاهاته ، ثم ينتفعا بما استجد من طرائق العرض والأداء ، وقواعدهما الفنية المستحدثة في الغرب ، لإبراز تلك الإيحاءات والتصورات .

ولكن ذلك لم يحدث ..

فالأدب العربي القديم لم يتجه هذه الوجهة من قبل إلا نادراً ، ولم يكوّن رصيداً فنياً يصلح لأن تستمد منه النهضة الحديثة وهي في سبيل النهوض ... بالإضافة إلى أن هذه النهضة ذاتها لم تتخذ منذ البدء وجهة إسلامية ، وإنما كانت أوربية في صميمها ، متأثرة بكل إيحاءات الغرب ، ومستعيرة لكل مفاهيمه في الفن والحياة .

وعلى أي فالذي حدث بالفعل هو أننا استمددنا خبرتنا الفنية كلها من أوربا .. ولا ضير في هذا الاستمداد .. فقد سبقتنا أوربا في هذا المضمار فترة من الزمن ، اكتسبت فيها خبرات متعددة هي رصيد للبشر جميعاً ، يستمدون منه بحرية ، كل وما يريد .

ولكن هذه الخبرة ينبغي أن تخدم أصالتنا الفنية لا أن تخدم التقليد ..

كذلك حدث في الأدب الروسي في القرن الماضي ، الذي شهد أكبر العبقريات الروسية في عالم الفن .

لقد استمد الفنانون الروس كل «التكنيك» من غرب أوربا .. ولكنهم أبدعوا أدباً أصيلاً ذا طابع مميز لا يخطئ الإنسان مميزاته وسماته الأصيلة ..

وهذا هو الذي ينبغي أن يحدث في مجال الإنتاج الفني : نأخذ البراعة الفنية وطرائق الأداء وطرائق العرض من أي مكان نشاء .. ولكننا في النهاية نكون أنفسنا ونكون ذواتنا وشخصياتنا .

ولن يتسنى لنا ذلك حتى نكون «إسلاميين» في تصورنا للكون والحياة والإنسان .. فهذه هي حقيقتنا التي عشناها حوالي أربعة عشر قرناً ، ولا يمكن أن ننسلخ منها ولو أردنا أو أراده لنا المريدون ! وهي حقيقة لا تشمل المسلمين وحدهم في الشرق الإسلامي .. ذلك أن المفاهيم الإسلامية رصيد متاح للجميع ، يملكون الاستمداد منه بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم .

* * *

وتلك مهمة الجيل الصاعد في عالم الأدب والفن ..

أن يكتسبوا الخبرة الفنية من كل مكان في العالم يمكن أن يمدهم بالخبرة المنشودة .. ثم يعودوا إلى أنفسهم فيبدعوا فناً يعبر عن ذاتيتهم الأصيلة .. يعبر عن المفاهيم الواسعة الشاملة العميقة الجميلة التي عرضناها بالتفصيل في هذا الكتاب .

وبذلك لا يكونون أنفسهم فحسب .. بل يقومون كذلك بإضافة فصل جديد في الآداب والفنون العالمية ، هو أروع فصولها وأشهاها ، وهو المرآة المجلوة التي تنظر فيها الإنسانية نفسها ، فتجدها على أصفى صورة وأنقاها .

وهي مهمة ضخمة تحتاج إلى صبر وأناة وتمكن وعمق .. وأصالة .

ولكنها ليست عسيرة التحقيق .. حين تمتلئ نفوس الفنانين والأدباء بمفاهيم هذا المنهج ، فتنطلق من ذاتها تنشئ تصورات فنية جديدة ، وصوراً فنية جديدة ، وموضوعات شائقة ذات جاذبية وجمال مشرق طليق .

وقد بدأت تباشير في عالم الفن الإسلامي .. في القصة والشعر والبحث والمقالة والخاطرة ، تبشر بأننا في الطريق الصاعد ، وأننا إن شاء الله واصلون .

وإني - وأنا أدلي بجهدي اليسير في هذا المجال - لأرى على الأفق الممتد تباشير هذا النور ، فتملؤني الثقة بأن الصبح المشرق قريب .. قريب !

المحتويات

صفحة

من كتب دار الشروق الإسلامية

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

مطابع الشروق

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

